في هذا العدد

كبش الفداء ـــــــ رئيس التحرير 4

■ مسار العصر
بلاد ما بين الحربين ـــــــ سعد سلوم6

■ مسار الحرب
التجربة تُمتحن ـــــــ محمد خضير 22
الحرب والناس ـــــــ علي حاكم صالح 24
كرة صوف في خوذة ـــــــ حسن كريم عاتي 26
الثقافة تمشي والشارع يتأسلم ـــــــ ناظم عودة 30
الحرب خلف شاشة التلفزيون ـــــــ أحمد سعداوي 36
القديس يُنكر ذنوبه ـــــــ سعدون محسن ضمد 40
قرابين عراقية ـــــــ جمال العميدي 48
من الواقعية القذرة الى الواقعية الايطالية ـــــ أحمد ثامر جهاد 52
في الرومانسية السياسية والثقافية ـــــــ عباس خضر 60
في البحث عن الوطن الضائع ـــــــ نجم والي 66

■ مسار الشعر
طربيبل .. نص مغلق ـــــــ جسن عبد راضي 70

■ مسار القص
التجريب في القصة العراقية القصيرة ـــــــ
ـــــــ جميل الشبيبي 74
وزة في الخليج ـــــــ سميرة المانع 81

■ مسار السينما
كوبريك ومعاناة الآلة ـــــــ برهان شاوي 96
كوبريك وشاعرية العلم ـــــــ 104

■ مسار الميديا
العراق والجنس والميديا ـــــــ ترجمة امير دوشي 106
النساء كأسلحة حرب ـــــــ 108
الجسد الاثنوي بوصفه غواية وسلاح ـــــــ 118

4-3
العدد
السنة الثالثة

■ مسار التشكيل

فنان العدد
ستار كاووش

كاووش ألم رائع ——— ناجي رحيم 86
أشراقات كاووش اللونية ——— محمد مهدي 88
معرض كاووش الاخير ——— عدنان حسين 91
نساء كاووش ——— موفق السواد 95

■ **مسار المسرح**

المسرح الأهلي والرسمي في العراق ———
——— ياسر عبد الصاحب 122

■ كتاب العدد

فوضى اللغة والبواعث النفسية للعنف الثقافي
سلام عبود 132

كبش الفداء

رئيس التحرير

هلْ صاغت البيئة ذهنية "العراقي" الميّالة للعنف، هل كورت الطبيعة يده ليلقي أخاه بحجر، هل عاد هابيل وقابيل، وعمر وعلي الى الحياة مجددا وتقاتلا في الشارع الخلفي لمنزلنا وقريبا من مدرستنا القديمة، هل قدرت علينا الآلهة عذابا أبديا في جحيم شرق أوسطي فريد؟

العنف حاضر بقسوة في بلاد ما بين الحربين، ينعكس صباحا في فنجان قهوتنا، يتسرب ظهرا من خلال الاغاني التي نحب، وينظر مساءً من خلال وجوهنا الى المرآة، يرسم اسمه على سبورة الدرس، ويلتمع من خلال شعارات الجدران، ويتخفى وراء طريقة قيادة السيارة، واختيار لعب الاطفال. انه طالب في المدرسة، واخ في المنزل، وبائع خضار في السوق، وزعيم على شاشة التلفاز، انه زميل وصديق وجار... وطريقة حياة.

العنف معنا أو ضدنا حاضر وقبله ماضٍ وبعده مستقبل، حاضر حتى من خلال الغياب، في مشهدنا اليومي وفي لاوعينا وفي ذاكرتنا.

نتعايش معه ونحمله في جيناتنا، منبثقا كغريزة تقودنا للوصول الى ذلك الحد الاقصى متمثلا بالموت، وهي الغريزة التي اطلق عليها فرويد اسم "غريزة الموت"، لكن القول بذلك قد يعني خضوع الانسان لحتمية تجعل من الفرد محبوكا بخيوط لامرئية، اذ لم يعد مركز نفسه مثلما لم تعد الارض مركز الكون.

العنف شيء بشري محض، وهو ظاهرة اجتماعية ينفرد بها الانسان، ونحن لن ننجح في تفسيره اذا اسندناه لقوى خارجة عن إرادة الانسان مثل القدر او البيئة أو الله او ارجعناه الى حتمية سيكولوجية او بيولوجية.

كما ليس صحيحا الركون الى حتمية وملازمة العنف لشخصية "العراقي" التي تفسر وكأنها موثوقة بألهة الانتقام؛ فتصبح فريدة من نوعها واستثنائية أو شاذة وخارجة عن المقاييس.

فشبح العنف يخترق جميع المجتمعات وحتى في مجتمع الاسكيمو الذي يقترن بتقاليد لاعنفية قل نظيرها، واذا كنا لا نميزه أحيانا؛ لاننا لم نتبين طبيعة التحويل للعنف في مثل هذه المجتمعات، اذ يمكن التمعن في طرق الصيد مثلا التي تحيل القتل الى نوع من الفن السادي،

وبذلك يتم تجنب العنف او خداعه عن طريق التضحية.

قد ندخل هنا في مجال رؤية "رينيه جيرار" للعنف في محاولته الصعود الى اصل البنيان الثقافي للحضارة الانسانية بما فيه من أساطير وطقوس وقداسة، حيث نظر الى التضحية كطقس تحاول بواسطته المجتمعات ان تجتنب العنف. هناك افراد نود حمايتهم (افراد الجماعة) وهناك آخرون لايهمنا موتهم (الحيوانات) فيما إن مصدر العنف وموضوع العنف هو الانسان، تقف الضحية بين العنف والانسان .هل تفتقر الثقافة العراقية الى كبش الفداء الذي يجري في سياقه تحويل العنف عن الانسان أو خداعه او تجنبه؟

سؤال يلح لمن يتأمل سورة تحولات العنف على سطح المجتمع، فالتحول الذي جرى للعنف لم ينجح بخداعه بقدر ما حوله من شكل قاس الى شكل أشد ضراوة، وكان فيه المدنيون كبش فداء لاحلام السلطة والمتسلطين وأدواتها للانتقام في الوقت ذاته

.مناد طوال العقود السابقة نموذج "العنف الخارجي' الذي مارسته الدولة على حدودها أو تقياءته خارج هذه الحدود، ونموذج "العنف الداخلي" الذي مارسته ضد مكونات المجتمع. العنف الخارجي والداخلي قننن وجرى تكييفه ضمن آلية عمودية، ولم يختف الا ليتحول الى شكل آخر، فبعد 9 نيسان تحول من عنف عمودي الى عنف افقي.

واقصد بـ"العنف العمودي" العنف الذي تستخدمه الدولة ضد الافراد بوصفها الكيان الذي يحتكر استخدام العنف داخل المجتمع، لكن ثقافة سحل الجثث في الشوارع، وسجل المقابر الجماعية، والاغتيالات والاعدامات الجماعية، انما هو سجل عنف"ثا" كأفراد، حين مارسنا العنف كقاهرين سلطة الأنا الأعلى، كانت الدولة/الاب تقرر عنا، وكنا لا نشعر بمسؤولية العنف الذي نقترفه، فمسؤولية الجرائم كانت تعلق على شماعة السلطة، فالسلطة تأمر وتنهي وطاعتها من ثم تمحو قوة ضميرنا.

حين تصدعت السلطة ثم انهارت وتم قتل الدولة/الاب تحول العنف من شكله العمودي الذي تمارسه الدولة ضد الافراد الى عنف أفقي نمارسه ضد بعضنا البعض بعد تفجر الدولة وانتشار شظاياها العنفية في جسد المجتمع. انه انتقال العنف بين الابناء بعد قتل الاب المتسلط وفقا للنموذج الاوديبي.

***

كيف يمكن تجاوز ثقل هذا العنف وأثاره ؟

سؤال يقتضي منا محاكمة الذات قبل مراجعة التاريخ، هذا مع العلم اننا اذا نظرنا من خلال عدسة مكبرة الى الذات سوف نرى صورة تاريخنا بتفاصيلها واحداثها وتحولاتها.

والجواب يتجسد في دافع للتحرك الاصلاحي على صعيد فردي وجماعي في آن. فضح الخداع ومحاولة كشف تكرار سيرورات العنف وظهورها بأشكال جديدة جزء من المهمة النقدية للمثقف من جهة، كما تبرز ضرورة عكس مجرى العنف وحصره بيد "الدولة" كمشروع سياسي يحتكر العنف المشروع داخل المجتمع من جهة أخرى. مع إن حصر رأس المال الفيزيائي أو حق احتكار استخدام العنف الفيزيائي بالدولة ينبغي ان يكون محددا بدرجة اعتراف الناس بهذا الحق وقبوله، وهو ما يكوّن رأس المال الرمزي. وهذا الاعتراف أو القبول العام يتم من خلال بنى معرفية ترتكز الى توافق اخلاقي وتوافق منطقي طبقا للغة "بورديو". بمعنى ان الطاعة تتحول الى شكل من القبول، والهيمنة تقوم على الاقناع بدلا من أن تتأسس على القسر.

***

مسارات تقدم هذا العدد الخاص بالحرب فاتحة الباب أمام مراجعة ثقافة العنف، ويحمل الملف الرئيس عن الحرب شهادات حارة وحية تتحت إصبعا يمسح مرآة الاحداث المشوشة ببخار الاحداث ليتضح وجه قد نكون اخفيناه وراء قناع عجيني من الخطابات والممارسات الكاذبة.

ها نحن بكل جرأة نتأمل الجرح القائم على تقاطع الجغرافيا والتاريخ، نتأمل معادلة الخسارة العراقية : ما منحته الجغرافيا قتله التاريخ، وما قدمته الطبيعة بدده الانسان.

الحرب
رؤية عراقية

مَنْ ينظر الى مرآة الحرب؟

لا تتأتى أهمية ملف (مسارات) من تأمله فلسفة الحرب ومحاولته الاقتراب من أفقها النظري، ولا من تطلعه لدراسة دورها في بناء أو تهديم ما يتأسس عليه مجتمع مثل المجتمع العراقي من منظومات قيم وتصورات، كما لا تتأتى أهميته من تركيزه على الظلال السوسيولوجية أو التأريخية للحرب، إن الأهمية الحقيقية للملف تكمن في محاولته إعادة ترتيب الأولويات وقد مَنح المثقف هذه المرّة فرصة الاقتراب من المشهد بوقائعه المعقدة ليقول كلمته التي طالما غُيّبت في مهرجان الكلام، لتشكل قراءته للحرب جانبا ثريا من جوانب الثقافة في طموحها للانفتاح على مختلف تمثلات الحياة العراقية، هذه الحياة التي ما تزال بعد قرن من الكتابة والتفكر محملة بأعباء السريّة والصمت، مثقلة بالموانع وماسورة بالمحرّمات. من هنا كان المقترح أن تتجاوز فكرة الكتابة الشروط و الموجهات، مثلما كان الطموح منصبًا على تقديم مساحة توفر للمثقف قراءة مركبة للذات والموضوع وهما يؤديان في أطر من الخبرة الشخصية للكتّاب، لتقديم الموضوع في منظور ذاتي يمكنه من الارتقاء للحظة الإنسانية الخاصة في سبيل وعي التجربة والانشغال بها،

بعد أن تمت معايشتها على نحو تفصيلي، إنها خبرة أخرى تعيد الذات من خلالها فحص موقعها ضمن مجرى الحرب وهي تكتب ذاتها وتدوّن، عبر الحرب، بعضا من وقائعها التي تؤمّن لها على نحو ما تدوين ما حولها : أنظر إلى وجهي في مرآة الحرب فلا أرى وجهي، أرى شظايا من وجوه الآخرين .. إنه المعنى الذي يجعل كتابتنا عن الحرب، حربنا، كتابة عن حروب الآخرين، وهو المعنى الذي يدعونا للإنصات إلى دواخلنا وقد ارتسمت عليها الكثير من ظلال الحرب بتجربتها المرّة التي لم تكن لتنتهي حتى تبدأ من جديد، كأن انقضاءها إيذان ببدء آخر وتوقفها شرط من شروط استمرارها، قراءتنا الشخصية بعد هذه المسافة الزمنية الفاصلة ضرورة للوقوف على رؤية كل منا للحدث في تعقيداته وقد عدّ لحظة فاصلة من لحظات التحول التأريخي في العراق، لتوفر الكتابة، بهذا المعنى، فرصة للنظر إلى التفاصيل غير المرئية للحرب، التفاصيل الدقيقة للحياة والعلاقات الصغيرة العابرة، حيث يتسع المشهد ويمتد فيكون بإمكانه الجمع بين نقطتين متباعدتين: حاضرة تعبر فيها قافلة دبابات أميركية جسرا على نهر دجلة،

وماضية تدخل فيها قافلة خيول الجنرال مود من باب المعظم إلى بغداد، مرور القافلتين يختصر المشهد بجملة بانورامية قاهرة ويؤرخ ما يقارب القرن من الزمان معيداً توجيه الوقائع وترتيب الأدوار وهي تسهم بإنتاج قراءتها للواقعة العراقية التي يعمل المثقف، بصمت مرّة وبصوت مسموع مرّة أخرى، على أن يدون رؤيته فيها، رؤية الناس الذين كانوا وما زالوا "وقود كل حرب".. إنه الدرس القديم الذي لاينقطع، إنها العبرة العاطلة.

يشبه الحديث عن حربنا العراقية الأخيرة بأوجهها العديدة وفصولها المثقلة، لعبة انزلاق طويلة، كل شيء ينحدر على نحو سريع، يغادر طبيعته ويتلبّس معنى مغايراً، معنى دونيا ينطوي على البشاعة مثلما ينطوي على الكثير من الألم وهو يسعى لوعي اللحظة الإنسانية وقد أثقلتها سنوات الرجاء الطويل، لم تكن حياتنا خلالها غير توقفات في شريط يُعبّر عن كل شيء إلا عن اشيائنا الحميمة وشخوصنا، كان كل شيء حاضراً في مشهد الحرب إلا ذواتنا، فقد حققت الحرب بالنسبة لنا أهم انتصاراتها وهي تطردنا عن أنفسنا، وتقصينا عن ملامحنا، وتفصلنا عن أزمنتنا لتغرقنا في نهر من العنف فتجعل منا، في طموح كل حرب، كيانات قاصرة، منخورة ومهدمة، يصعب علينا مواجهة أنفسنا بعد كل تلك السنوات والإقرار بأننا لسنا أبناءها إنما نحن شواهد أحزانها التي تملأ الأفق .سعت رؤى كتّاب الملف على اختلافها وتعدد توجهاتها لمراجعة المشهد، بما فيه من صعوبة وتعقيد، ومحاورة اللحظات الشخصية للاقتراب من الذاتي سبيلاً لقراءة الواقعة الصعبة ورصد متغيراتها وقد عملت الرؤى، في تأملها، على تغليب الإنساني بطابعه الشعوري على السياسي لما شهده الأخير من عنف التحوّل وجسامته ولما يتطلبه من سعة المراجعة وموسوعيتها، في حين بقي الثقافي بحاجة إلى مقاربة وتفحّص تثريهما تجاربنا الخاصة التي ستمنح إنساننا فرصة التعبير عن أحاسيسه وهو يتأمل ما يتغير حوله من وقائع وما يتشكل من مقولات:

من أسلمة الشارع إلى الطائفية، من موجهات الميديا إلى إشارات العنف الخفي في شخصياتنا بما يغذي نهر الجنون العظيم، تتوالى صفحات القراءة وتتعدد أسألتها

من أن تتذكر، أكثر صبراً من أن تتألم، أبعد نظراً من أن تبصر.

تنبسط التجربة مثل حقل حنطة فسيح تحت الشمس، ولن يفلح السرد في تضمين مشاهدها العنيفة وصورها الفاضحة وكناياتها المنزلقة، ولا الحوار في كشف حقائقها على خشبة المسرح، ولا التأمل الشعري في الصمود طويلاً أمام السورات الملتقة في نهر التأريخ.

البلاد المجرّبة تتمدد مثل امرأة حامل بجنين أسطوري سيلد يوماً في وادي السلام، ولا سلام! الصوت المتكسر – رجع الأصوات البعيدة – يشرخ البسطة الأسمر المكوّر نصفين، ويفتح السبيل إلى مستقبل قريب، ولا غد ! هدير ولا هدير، سكون ولا سكون، صمت ثقب السرطان. حروف ولا كتابة، نقطة صفر الكتابة!

هنا يتقطع التحليل الرامش ويتسلم زمام التجربة ليفرغ أمعاءها من عصيدة المأتم، وحنجرتها من أنين المخاض. رمشة ويتبرعم مفهوم بديل بين أغصان التجربة المتفرعة في زمنها المتطاول أو المتسارع. نسمة وتستأنس الطيور المهاجرة في أعشاشها. كلمة وتستي التجربة موالديها الهاربين من أسمائهم.

المعرفة الجديدة، ميديا الصورة، الهواتف الخلوية، الأقراص المدمجة، ألعاب الكمبيوتر: ستوضع في خدمة التجربة كي تحكم نفسها بنفسها وتتحقق من استعمال هرمونات السلطة الجديدة المنشطة. سيتاح للتجربة أن تقيم من حجارة الهرم المنهار سلسلة أهرامات مترابطة متجاورة، تعكس سطوحها الصقيلة الأطياف الديمغرافية المتكاثرة لسكان وادي الرافدين، المتصارعة على جرعات الطبيعة الناضبة: الماء والكهرباء والمحروقات.

هي ذي التجربة تتخيل كرنفالاً، بل تستعيد أخيلة الربيع المحصودة بمنجل الصيف: أولاً، النملة الحكيمة تحذر التجربة من زحف الدبابات مثلما حذرت قومها من زحف جنود سليمان. ثانياً، التجربة تحلق بالمروحيات في سماء بغداد كما حلقت في طائرة حربية ذات جناحين مزدوجين على تجحفلات الثوار عام 1920 باستداد نهر الفرات، ساحبة وراءها ظل جناحيها على المزارع المحاذية للنهر.

ثالثاً، التجربة تغادر طائرة العشرينيات وتهبط بمظلة قبل أن تختفي الطائرة في غيمة بيضاء ويبتعد أزيزها. المظلة المترنحة تتجذب نحو أغصان شجرة عملاقة وتعلق بأغصانها، فتفرّ مئات الطيور الساكنة إليها، ثم تعود وتستقر عليها. رابعاً، الضجيج يلفت أعناق مجموعة من الحطابين المعمرين المنتظرين بفؤوسهم المثلمة أسفل الشجرة نهاية الكرنفال.

ولن يفتر خيال التجربة باستقرارها في الأعالي الخضر، بل خطط لها كي تواجه محكمة الطيور في أعلى الشجرة. تزقزق التجربة مع عصافير الفجر وتنوح ليلاً مع غيلان الحقول، حتى يحين وقت الامتحان. ستمثل التجربة أمام عقاب الطيور لتجيب على مسائل الكرنفال الموجهة من ثلاثين طيراً، لم تكن استعراضات الماضي سوى مقدمات للامتحان العسير الذي ستخوضه التجربة في بداية هبوطها البلاد التي استدعتها للمثول أمام طيورها.

ستواجه التجربة هذه الأسئلة: (1) إلى من تؤول مفاهيم العشق والكرم والوفاء والتضحية وبقية المفاهيم الجوانية في تجليات المرأة الأممية الخادعة؟ (2) ما حقيقة الشكل الناتج عن اتحاد الشمس والظل على الخط الوهمي الفاصل بين الجغرافيات الربانية والقيذر اليات الأرضية؟ (3) ما الفرق بين الميناكولوليا والمانوكولوليا، ذلك الفرق الدقيق أو الفصام غير الملحوظ بين الأخلاق والسياسة؟ (4) كيف تنظم التجربة مسألة تداول السلطة بين الشعب والنخبة، وبرأي اتجاه تدير عتلة الحكم بينهما، إلى الأسفل أم إلى الأعلى، إلى اليمين أم إلى الشمال، أم إلى القمة أم إلى الهاوية؟

أسئلة إجبارية وغيرها اختيارية عن: الحرب والسلام، الجريمة والعقاب، الجنسيات المزدوجة والهويات العابرة والثقافات المهجنة، حقوق المرأة وسياسات الرحم (الإجهاض، تحديد النسل، الحضانة، تبني الأطفال)، التلقيح الاصطناعي والاستنسال)، حكومات المدن، المتاحف، الأهوار، البيئة..

تجيب التجربة بين هزو الشهود وغطيطهم ونخيرهم وصياحهم، وبين جواب وجواب رمشة عين، لحظة إظلام وقطع صوت، حدّ فأس والتماع صورة في حدقة طير، تدلى حبل وخفق جناح (صور التجارب الماضية تتناوب من دون لبث أو اصطبار). تهرم التجربة ويتساقط ريشها، وتعصف الرياح فتبدد الأسئلة والأجوبة، كأنما لا جناح خطف ولا وحي نزل، ولا جسد تدلى من غصن، ولا روح ناحت على ظل. قبضة ريش وهزّة خبل. (وبك أستعين يا أكثم!).

الناسُ وقود كلّ حرب. درسٌ قديمٌ لا ينقطع، وعبرةٌ عاطلة. الحروبُ تتناسل، كما يعبر الشعراء. وعلى طريقتهم في التعبير أيضاً: إنّ كلّ حرب إلى زوال، ولكن يبدو أن كلّ زوال يقتضي حرباً. أفكر الآن ماذا لو كفّ الجنسُ البشري عن التناسل، يتضاجعون من أجل اللذة حسب. لا حاجة بهم لإعادة إنتاج أنفسهم. حينذاك ستكفّ الحروب عن سيرتها. وسيعمّ السلام الأرضَ كما كان يوماً. ويسكت الدويّ، لتعود الكائنات المنقرضة، سكان الأرض الأصليين، للحياة من جديد. لا ذنوب تُقترف، ولا دماء تسيل.

الحرب والناس

علي حاكم صالح

والعرف الأخلاقي سيكون كلياً، وسيكون العمل به ملزماً للجميع وربما بطواعية وحب. حينذاك فقط سيقتفي أحدهم، من تلك الكائنات، رواية الجنس البشري المنقرض، من دون تحيزات، ولا أحكام مسبقة. لا حاجة بهم للبحث عن وثيقة، ولا تقصي سيرة وسيلة إعلامية بائدة، لن يلزمهم غير التطلع في صفحة الكون، وعبور ما كان يوماً حدودا ليروا ماذا فعل الإنسان بالإنسان. وسيكون وطننا العراقي شاهد عيان أبدي على الجريمة التي اقترفها الجميع منذ ثمان وعشرين سنة، أي ثلث عمر الدولة العراقية الحديثة تقريباً، عاش العراق حروباً شبه متصلة ومستمرة، كان القتل فيها مفردة ثابتة في الحياة اليومية. وعلى أساس الثبات القدري لهذه المفردة يبني الناس العراقيون توقعاتهم للحياة، وتصوراتهم، واستعداداتهم، وأحكامهم، وتقييماتهم. فانحل المجتمع ليحل المجتمع اللاإجتماعي، لأن الموت العبثي يبتر كل صلة، ويبني علاقات (أو بالأحرى لاعلاقات) جديدة مختلفة تماماً. وتبني الحروب تناقضات جديدة داخل المجتمع الواحد نفسه، وتكرس أخرى قديمة، وتفعّلها، وتبرّرها، ويحتمي بها

الناس، بوعي أم بوعي زائف، لأسباب عديدة ليس أقلها عدم قدرة الفرد على مواجهة واقع كهذا لوحده أو فقدان الحياة نفسها لأي معنى. إن الحروب، التي هي بطبيعتها تكريس للموت ونشره، تجعل من الموت خياراً. برغم أن الموت من حيث طبيعته ما كان يوما كذلك.

يصحب ذلك تنازل اضطراري عن شروط الحياة، والفرد، الإنسان والمواطن، تتقلص حقوقه، ليتخلص في الأخير مرغماً حتى من حقه في الحياة. إن إغلاق منافذ العيش يفتح للموت أبواباً واسعة، يجد فيها الجميع سبيلاً لملاذ. والثقافة التي تشيع فكرة التضحية بالحاضر من أجل المستقبل، قادرة على تأجيل المستقبل إلى موعد غير منظور، لأن المستقبل بطبيعته لا يجيء إلا كحاضر. إن اللعب على تقسيم الزمن الموعود سمة كل من يفضل التأجيل والإرجاء، وغاية لمن لا يريد أن يرى الناس ومايريدون الآن وهنا. الناس، الناس العراقيون، لا سقف فوق رؤوسهم يحميهم، ولا جدار يصد عنهم عائلة الموت. الحروب الحديثة تلغي كل إمكانية لسقف، تلغيه مادياً ونفسياً. فلاشيء يحميك. الصورايخ الملونة، تخترق كل شيء فما بالك بسقوف بيوتنا النحيلة التي لا تقي حتى من المطر السيابي. لينضاف إلى ذلك طرق أخرى للقتل والموت. فيشعر العراقي منذ سنين طوال بانكشافه وعريه التام. ولاشيء يحميه غير سماء تتأى عنه يوماً بعد آخر. والمكان نفسه، مفهوماً وواقعاً، تشظى على وقع الصورايخ، والمقابر الجماعية، والقتل على الهوية، والشعارات التي لم تتوقف. فكانت النتيجة أن شعر الجميع أن لاحول لهم ولا قوة. وبدت الحياة ومازالت حقل ألغام يجد الإنسان العراقي نفسه ملقى فيه، من دون خريطة ولا بوصلة هادية. وكل حركة تحمل إمكانية الموت، وكل جهة تقود إلى اللاعودة. في حقل كهذا تتضبب الحياة، وتصبح مجرد مصادفة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم! إن حبّ الحياة ليس غريزة إنسانية فقط، إنما هو أيضاً خبرة إنسانية، يخبرها الفرد الواحد بما هو كذلك. والعيش فنّ كما يقال، والعيش الاجتماعي علم. خلت للأسف ثقافتنا العراقية من هذا الفن وهذا العلم. شعاراتيا كنا نفكر بالمستقبل الذي لا يجيء أكثر مما نفكر بالحاضر، وننتمي في تفكيرنا ذاك إلى خارج المكان فكرياً وزمانياً. كل هذا أفضى إلى نوع من التدمير الذاتي. تدمير لا يهدف إلى شيء آخر سوى التدمير. والوعي الذي ينحيس في هذا الخيار، الذي هو في حقيقته ليس خياراً، لن يستطيع أن يؤسس لحياة. وما يبدو حتى الآن من حلول لواقع مرّ ليست سوى محاولات للإلتفاف على هذا الواقع واستثماره لغايات محسوبة تستغل الغضب هنا أو هناك، مستغلة عواطف الناس الذي ملّوا كلّ شيء. وأرى بحكم تجارب الدكتاتورية، وما أعقبها من مسلسل التدمير الذاتي أن أي تفكير مناطقي أو إقليمي لن يقود إلا لتسليم البلاد لقيمات سائغة، وملحقيات لدول أخرى. لعل الإفلاس الايديولوجي الذي انتهى إليه الصوت العقائدي، بأطيافه كافة، قمين بأن يعيد المثقف الوطني إلى التفكير بالذات بشكل علمي. واستعادة لحظة كان قد مثلها مرة واحدة المفكر علي الوردي، لحظة يمكن تسميتها "لحظة الوعي الذاتي". والذات هنا العراق. ليست العودة محض اجترار لما قاله الوردي، فلربما كان كل ما قاله الوردي مجرد أفكار وتشخيصات خاطئة، إنما هي إحياء للحظة الوعي نفسها التي تنتجه إلى ذات محددة زمانياً ومكانياً من دون مزاعم شوفينية ولا استعلائية أو دونية. لقد خسرت الثقافة العراقية الكثير، وهي جزء من خسارات الناس أنفسهم. وفقدت استمراريتها التأريخية. وهذا الفصال لم يكن وليد اليوم، إنما جاء أصلاً بسبب التنافر الأيديولوجي المتحزب الذي كان قد وسم الثقافي في الغالب. وبث روح التواصل التأريخي بين مراحل هذه الثقافة، وتجاوز حطام المناكدات الجيلية، والتخوينية الشائعة هذه الأيام، لا يكون بغير ارتفاع المثقف نفسه على أي اصطفافات أنية قد تكون، كما ثبت لنا في خمسينيات وستينيات القرن الفائت، مكتفية بأخطار جنينية. إن الائتماء الديني المسيّس، والحزبي القائم على رومانسية فادحة، والقومي اللاواقعي، لا يفعل غير أن يضع العربة أمام الحصان لو صح التعبير. فجميع هذه الاصطفافات من دون استثناء لا تفعل غير أن تغيّب الناس، وتبرّز الجهات.

ما الذي يبني لحمة الناس من جديد، وبعيد لضم عقدهم المنفرط؟ إن الوضع المتأزم الذي تعيشه ثقافتنا العراقية تعبير جلي عن الوضع المتأزم الذي يعيشه الناس: عدم ثبوت الرؤيا. والرؤيا لو جاز التشبيه لا تكون بشهادة فرد واحد، ولا حزب واحد، ولا عقيدة واحدة. الرؤيا لا تثبت إلا بشهادة الجميع. فكيف يمكن بناء الجميع؟ "وماذا بوسع المثقف أن يفعله في هذا الزمن الأسود؟"

منْ هول الحرب أنها لا تحصد أمنياتها ثماراً عند انتهائها دائماً. ومن مفارقاتها إنها تخلق ذرائعها كلما اشتد أوارها. حتى يكون الحقد ثأراً يطلب، ويتم التعصب له في قتل الخصم أو إذلاله. ولا تكون نهاياتها مرتبطة بهدف الابتداء بها. إنها عارية عن الانتماء الى العقل قطعاً، فليس من العقل محاكمة غير العاقل بقانون العقل. إنها تمتلك قدرة الحضور مع غياب التعقل. وتثبت هذا الحضور بانفعال مدهش يقرب من هيام العاشق الولهان بحبيبة أفعى، لا تلمس ولا تحضن، لان في أنيابها العطب.

كرة صوف في خوذة

حسن كريم عاتي

تلك شرارة الابتداء، أما لظاها بعده فسكون مريع لمن وقع في اتونها، غالباً أو مغلوباً. فلا يكون الغالب غالباً، الا بمقدار ما أراقه من دم الخصم، ومن دمه أيضاً. ولا يكون المغلوب مغلوباً، الا بسفك كرامته بسخاء وهوس، حتى لا يظن بنفسه قادراً على استرداد ما فقده الا بتجريع دم يغطي الأفاق. فيكون الغالب بدم مسفوك.. والمغلوب بكرامة مسفوكة. والغالب خائفاً من حرب خاسرة قادمة يقودها المغلوب ثأراً للكرامة قبل الدم. والمغلوب توّاقاً الى سفك دم الغالب للعق ما تبقى من كرامة سفكت بالأمس.

إنها وجه قبيح شائخ يحاول استرداد ما يظنه جمالاً بتجميل نفسه بمبالغة لا تزيده الا قبحاً. تلك مبررات الحروب على الدوام.

الحرب الاحتكام الى قوة الجسد وتسخيره قوة العقل لأجلها. سواء كان المتحارب طفلاً أم شاباً أم رئيس قبيلة أم رئيس دولة. حين لا تمتلك قوة الحجة فالجأ الى قوة اليد، وحين لا تمتلك قوة الحق الجأ الى قوة السيف، وحين لا تمتلك قدرة التعايش فالجأ الى قوة الجيوش. فالحرب تقلب موازين العقل، لأنها غير عاقلة، وترسم

خارطة علاقات صبيانية أو رسمية أو دولية جديدة، تكون اليد او السيف او الجيوش بسطتها على أرض واقع يُرغم الضعيف على الاعتراف به لضعفه، ويقره القوي لقوته وان كانت نشوة النصر ثمناً لجيل النصر نفسه، ودافع غرور له ولما يليه. وقد يكون عنصر اعتزاز بتفاصيله. لكن لا يقوى ذلك الإحساس على الصمود امام معايير العقل المرتبطة بالحق أصلاً. فيتهم القادة، المبطلون، المنتصرون في أزمنتهم بجنون العظمة أو ضعف القدرات العقلية أو انعدام الدراية في سياسية الناس، أو الميل الى الباطل. وقد يكون المهزوم، المحق، رابحاً بالتعاطف مع مصيبة الكرامة المسفوكة على اوراق التأريخ الذي يكتبه المنتصر.

تلك الحروب السلطانية بشوتها وإحباطها. تحقق عظمة القادة والأمرين، أسماء تطلق على المدن والشوارع. وللسلاطين تسميات أوسع على حقب من التأريخ لا تقلت شاردة ولا واردة الا بالعودة إليهم. لكن جنود الحرب أو الحروب خاسرين أو رابحين، سيكونون سداداً لأرض المجد التي يزرعها أولئك السلاطين أنفسهم. فهم لا يصلحون الا ان يكونوا صخوراً ترصف بعناية على طريق المجد التليد.. والخاسرون فيها دوماً أولئك الذين بذلوا المهج ولا ينالون مجداً مكللاً بالغار فوق رؤوسهم لأنه حكر على سلاطينهم.

أب، قبل له: كيف قتل أبنك؟

قال: انه حاول الانتقال، تحت القصف المدفعي المعادي، من موضع ظنه غير آمن الى موضع ملاصق آمن. عند سكون القصف، وفي اللحظة التي خرج جسده كاملاً مهرولاً الى الموضع الجديد، كانت قنبلة ميدان معادية انفجرت مع موعد انطلاق الجسد، فحزت رقبته بشظية وفصلته عن الجسد، ليتدحرج الرأس كرة صوف في خوذة، ويستمر الجسد في عدوه منطلقاً غير مدرك ما فقده، ونافورة الدم تقذف حممها من الرقبة بساق مع عصف القذيفة ودخانها وغبارها، ليلتكش الجسد، فجأة، عند حافة الموضع الجديد الذي ظنه آمناً، ويضطجع هناك من دون حاجة الى موضع آمن أو غير آمن.

لم يكن الأب شاهد عيان، لكن نقل اليه ذلك. واذا حُسب عدد من شاهد الواقعة قياساً بمن سمعها ورواها، وأنا من بينهم، يكون ذلك التوالد الاميبي لهول الحرب، على قدر الرواة وأساليبهم في نقلها وإظهار الاشمئزاز منها.

قد يتساءل صبي أو طفل عن الذهول الذي يصيبه عند مشاهدة مستطيل خشب يلف بقماش ملون، تدعوه شهيداً، وعلى ما نحاول جميعاً منحه هذه التسمية سمة انتشاء للدخول في أبهة المجد الموائل والسؤدد. لكن للطفل تساؤلاته المنطقية التي تناسب عقل الحرب أيضاً:

هل يعني ذلك اني أصبحت من دون أب؟

وهل أُجبر قسراً دخول لعبة الكبار من دون موافقة مني وبخسارة جسيمة؟

لا يدرك حجم الكارثة الا من نواح أمه وشق الثوب حتى يصل الشق الى أذياله، تعبيراً سريالياً عن هتك الستر. ومن اللطم على القلب الذي أجهد حد الإعياء بيدين كلتا من تعذيب النفس بجلدها بيدين عاريتين، ترتفعان وتهبطان مع كل وفد عزاء نسوي قادم الى المأتم.

ليركب الطفل منظومته العقلية من جديد وبما يناسب عقل الحرب ويطلقه سؤالا لا يجد من يجيب عنه:
– إذا كان أبي ينعم بالجنة فلما النواح عليه؟
او ليفسر سلوك الكبار بالكاذب، ومن بينهم أمه التي قد تبكي محتجتها من هجر الزوج لها واتخاذه الحوريات أزواجا؟
وحين تضيق عليه الإجابة، يقول: إنها الحرب؟
وللحرب مفارقاتها. فزوجة الشهيد، الذي أتوا به مشوها لا يمكن تبين شيئا من ملامحه، تقسم بأغلظ الأيمان ان الجسد الذي أتوا به لا يمكن ان يكون جسد زوجها، وتصر على ذلك حد إنكارها إقامة مأتم له. وحين يسألها الرجال عن السبب تلوذ بالصمت ولا تستطيع البوح ولكنها تصر على ذلك ولا تكتمه عن عمة أو خالة:
– الجثة التي أتوا بها لم تكن حليقة العانة وزوجي قبل ذهابه كان قد حلقها؟
– بين ذهابه والمجيء بالجثة لا تفرق سوى ثلاثة أيام؟
كيف نبتت كومة الصوف بين فخذيه بثلاثة أيام؟
تسأول بقيت الزوجة تحمله ناكرة به موت زوجها دليلا على حياته.
غير انه لم يعد اليها وان انتهت الحرب، واستمرت على يقينها بحياته بر غم يقين الدولة بموته.

انه وجه الحرب الذي يتخذ من شعر العانة سمة.. ويجعل من توصيف الرأس المتدحرج في خوذته ممائلا لشعر ينبت بين الفخذين.
انه قانون آخر غير عقلاني يستمد شرعية الانتساب الى الحرب من لا عقلانيتها.
وقد تتزوي الأم من كل يفقدها قدرة النطق أمام ذهول الفقد للأعزة. حين ترى من أول الزقاق تابوتا ملفوفا بعلم يقتربون به من بيتها ظانة به ابنها. ومع تواصل التكبير وازدحام الزقاق بالصبية ووجوم وجوه الكبار يتقدم الموكب الجنائزي باتجاهها، ويؤكد ما تحاول ان ترفض من احتمال ان يكون بين الأحشاب ابن لها في نهر جاسم أو الاخر الذي في (ديزفول) أو الثالث الذي نقل توا الى (سانوبه). و على بطء التقدم يتسارع انهيار جسدها حتى يكل، فيقع نصفه في الزقاق ونصفه الآخر داخل البيت. وتحافظ على النظر اليه مستسلمة و على موكب الناس المتقدمين باتجاهها. فتتسع الرؤى لترى تاريخ ولادته وصرخات وضعها وصرخة الوليد، حتى يكاد يقف التابوت فوق رأسها، فلا ترى سوى صندوق معلق في كبد السماء تحف به وجوه تتحنى عليها بتشويه يخلقه ضباب الرؤيا. ويجتازها الركب الى بيت جارتها

التي لم تكن تحسب القتيل ولدها. فتهرع العجوز الى الاشتراك بحماس في قتل النفس لطماً ونواحاً ثأراً من احتمال ان يكون القتيل ولدها. فتبكي حين تصمت غيرها من النسوة على هذا الاحتمال.

انه قانون آخر من قوانين الحرب يستمد شرعية الانتساب إليها من لا عقلانية حروب السلاطين.

وما يحدث في هذا الطرف من الحرب يحدث ما يماثله حد التطابق عند الطرف الاخر المسمى: عدواً. فالأب نفسه باحساسه، و الأم نفسها بهوس الخوف واحتمالاته، والزوجة نفسها بيقين حياة الزوج الذي لن يعود، والطفل نفسه بتساؤلاته المطابقة للاعقلانية الحرب.. ذات المشاعر التي توحد طرفي وقود النزاع الذي سمي حرباً. غير أن الاختلاف بينهما هو وقوف كل منهما على ضفة منها، ويستمر نهر الدم يجري عبيطا.

وتثير الحرب السؤال الأهم:

– اذا كان طرفا الحرب، من شعب يقف هنا، وشعب يقف هناك، يتضوران من لظاها، ويرفضان فقد الأحبة من اجلها، فلم تستمر بالتهام ما تبقى؟

إنها حروب السلاطين الذين لا تنتفخ أوداجهم الا بمجد الدم ونفخ أبواق وعاظهم الذين يصورون لهم مواكب المجد السائرة في شوارع العزة تنيرها أضواء الكبرياء في مدن وهمية يؤسسونها بجماجم أبناء جلدتهم اولا.

ذلك الوجه النفسي والاجتماعي للحرب، فما الوجه السياسي لها.

الحرب لعبة سياسية أطرافها المتضررة، أصلاً، غير سياسية. إنهم عامة الناس الذين يبحثون عن هناءة العيش، التي لن يجدوها، أبداً، بين طيات الحروب التي كتبها سلاطين تاريخ بلدانهم.

فإذا كان التوصيف الدولي للحروب يعدّها (نزاعاً مسلحاً). أو الوثيق الدولية التي تسميها (حروباً) على وفق اتفاقيات جنيف. أو بوصفها (حلا سياسيا) أخيراً، وأحياناً ناجعاً، على وفق تعبير أطراف النزاع. فانها لدى الشعوب تمثل التوصيف الدقيق باعتبارها (كارثة) إنسانية لهول ما يتعرض له أضعف أطراف النزاع، وهم: المدنيون والنساء والأطفال والشيوخ. أي أولئك الذين لن تكون لهم مصلحة، أبداً، في خوض غمار الحرب. فهم لن تتوافر لهم الشروط لان يكونوا من تجارها. ولن يحققوا الربح المتوقع منها، بل ستكون الأرباح المتحققة لأطرافها، أو احدهما، على حسابهم دائما.

ومن المفارقة ان يدعي كلا الطرفين الحرص عليهم. فباسم الوطن يُدمر المواطن من سلطته (الوطنية) المستبدة، وينتهي بتدمير الوطن أيضاً. وباسم المواطن يُدمرُ الاحتلال الوطن، وينتهي بتدمير المواطن.

إنها عملية تبادل الاولويات في التدمير. فلا يعدُّ أحدهما يضع مبرراً مقنعاً بتقديم الوطن على المواطن، أو تقديم المواطن على الوطن. ونتيجة الاولويات تبقى كما تمناها المستبد، أو تمناها المحتل. والفئات المتضررة، من شيخ باحساسه هول الفاجعة، ومنام بهواجس الخوف، ومن زوجة على يقين من حياة زوجها الذي يخالفه يقين الحكومة بموته، ومن تساولات طفل تماثل لا عقلانية الحرب، تلك الفئات على ضفتي نهر الدم في صمت مريب من سلوك كلا القوتين. تدرك كذب التبريرات. وتعرف ان لم يكن بيقينها فبحدسها، الصدق المناقض لها. وتسكت على وجع ممض من هول المفارقة. ويزداد ذلك الألم مع ازدياد مساحة خسارتها، التي يطيل لها المحتل أو المستبد، بوصفها أرباحاً، بل إنجازات بالغة الروعة تشرق في القريب شموساً تضيء الوطن وتنير ذهن المواطن الكسول، الذي لم يدرك فداحة التغاضي عنها. فانها ستجعل من الوطن قبلة الشعوب الطامحة الى الحرية في تبريرات السلطة (الوطنية) المستبدة، التي صادرت الوطن قبل المواطن، وتطلب منه الاعتزاز بإنجازاتها، وتحويل فمه الى قمع هائل الحجم يصح النفخ فيه بقوة هائلة تسبيحاً بحمد رب السلطة الذي وكله الرب بتحقيق العزة للشعب، كما يحاول ان يصور ذلك. وستجعل من الوطن واحة سعادة في صحراء الجوار والجور الإقليمي الذي تداسى حقوق مواطنيه، على وفق وعود المحتل، التي تحمل أعذب الجذة وتينها وملائكتها وحورياتها، وان كانت بشكل آدمي.

فالمحتل والمستبد، دائما، من عائلة واحدة، تربطهما قرابة مصالح أقوى من قرابة الدم أو النسب. فهي رابطة نتاج فكر واحد، وان تنوع في تبريراته، غير انه يتفق في نتائجه.

ذلك ما يجعل من ظاهرتي الكبت والغليان في حياة الأمم صعبة التوقع في توقيتها. فالشعوب صبورة حد اليأس، وعنيفة حد تدمير ذاتها. وهي تدرك ان خصميها (المستبد والمحتل) معا. وهو ما يفسر سهولة اجتياح البلدان، وسهولة سقوط الطغيان.

تطمحُ هذه الكتابة أن تعاين الثقافة العراقية من خارج سلطة معيار القراءة والكتابة، ذلك المعيار الذي ظل مدخلاً مهيمناً لتحليل أي نمط ثقافي. ومن خارج سلطة البنى الذهنية أو البنى الجمالية التقليدية التي تخضع لها عادة عملية إنتاج عمل ثقافي معين. وبناء على ذلك، نحن نرغب في الحديث عن الثقافة العراقية، بالمعنى الذي نريد أن نحدده، وهو الطريقة التي ينظم فيها العراقي حياته وسلوكه على وفق أسس خاصة، تعبر عن شعوره الجمالي الاعتباطي، وصراعه الأنطولوجي مع سلطة العرف الاجتماعي وسلطة السياسة وسلطة الدين. ثقافته الحية الفاعلة والمنفعلة في آن. كذلك طريقته في التفكير وممارسة المعرفة استهلاكاً وإنتاجاً، والتعبير عن عالمه الروحي بالأدب والفن والطقوس الأخرى. ومن هنا، فإن المجتمع ينعكس في الثقافة مثلما تنعكس هي فيه على نحو من التجاذب الجدليّ.

الثقافة تمشي والشارع يتأسلم سوسيولوجيا ما بعد النص الثقافي

ناظم عودة

وعندما نتحدث عن الثقافة العراقية في ظل ظروف تأريخية معقدة وبحسب هذه المقاربة، ينبغي أن نفطن إلى قضية أبعد من حدود هذه الثقافة. بمعنى أن ما نريد أن نكشفه، لا يقتصر على الصراع الذي يدور في داخل بنية هذه الثقافة حسب، إنما هو صراع ثقافات حقيقي يجري في ظل هيمنة كولونيالية جديدة تريد أن تفرض نمطاً من التفكير والثقافة والسلوك السياسي من ناحية، ويجري كذلك في ظل إثنيات في داخل النسيج الاجتماعي العراقي تسعى بقوة إلى التعبير عن هويتها وتوكيدها من ناحية أخرى، بصرف النظر عن ما ينجم عن هذا التوكيد من تدمير هوية عامة ظل البلد محافظاً عليها طوال عقود من الزمن.

هذا يعني، أننا أمام سوسيولوجيا معقدة للثقافة العراقية، يتداخل فيها الصراع الهوياتي الداخلي مع الصراع الثقافي الكولونيالي الأمريكي الجديد. ففي بداية الاحتلال الأمريكي، أراد الجنود الأمريكيون أن ينشروا بقصد أو بغير قصد عددا من التقاليد الأمريكية في الشارع العراقي، لكنهم بعد مدة قصيرة وجدتهم

يتنازلون عن تلك النخفة الغربية ويدخلوا المحلات الشعبية ليتناولوا وجبات الطعام واحتساء العصائر والمشروبات الغازية، وقد أطلق مرة صبيان يبيعون السجائر على الرصيف المحاذي لمطار المثنى قبالة منتزه الزوراء في جعل أحد هؤلاء الجنود يخلع حذاءه، الكولونيالي ويرتدي نعالا بلدياً ويطوي بنطاله إلى منتصف ساقه، وهو يمسك خرطوماً للمياه يرش به الرصيف في عز القيظ، وحينما تقف الأتوبيسات ينادي ذلك الجندي بدلا من السائق: بيّاع... بيّاع... بيّاع، حتى يمتلئ الأتوبيس وسط ضحكات وهمسات وابتسامات وسخرية الصبيان وشتائم بعض الركاب.

لكن من الناحية الثانية، كانت النظارات السحوبة من الجانبين، وحلاقة الرأس الماريني أو الحفر أو الطاسة أو النمرة صفر تزداد انتشاراً بين الشبان. وانتعشت مبيعات الجينز، وعصابة الرأس، والقمصان الشبابية البدي، وأخذ بعض الشبان يضع المساحيق في الوجه والرأس، ويستمع إلى الأغاني الأمريكية من قبيل: مغني الراب المشهور ايمينم، وجنيفر لوبيز، وبرتني سبيرز وآخرين.

وعندما اتخذ الحاكم المدني للعراق بول بريمر، الأمر رقم (22) في 8/8/2003، بتشكيل الحرس الوطني، كان الجندي العراقي يقف لأول مرة من دون ذلك اللباس التقليدي الذي عرف به منذ تأسيسه في العام 1921. كان الزي الجديد موضع سخرية العراقيين، إذ كان لباس الجندي العراقي على غرار لباس الجندي الأمريكي، وحركاته تناظر حركاته، وتجهيزاته تناظر تجهيزاته أيضاً، من غطاء الرأس، واستعمال النظارات الشمسية، وسمك قنينة الماء أو البيبسي كولا فوق ظهر النهر التي تجوب شوارع بغداد، وكذلك شكل البنطال والسترة والجزمة، وبقية المستلزمات. إلا أن أشدّ ما كان يضجر ويسخر منه العراقيون، هو العصابة التي يتعصب بها هؤلاء الجنود وهم يمسكون قنينة الماء أو البيبسي كولا، أو يتناولون سندويشات الهبر غر أو الشاورما.

وعلى هذا الإيقاع، كان الشارع العراقي يفقد طابعه الذي اختزن فيه تأريخ آبائنا وأجدادنا، تأريخ السلوك العراقي في العمران ومزاولة العمل بأعراف خاصة، إذ يتجاور العراقيون عادة من كل صنف ولون من دون أن تنشأ أية حساسية عرقية أو طائفية من النوع الذي يجري الآن. كان ثمة تنظيم للأسواق والمحال التجارية والأرصفة ونوع المهنة وواجهات المحلات والملصقات، لكن هذه الأعراف دُمّرت الآن في فوضى التعبير عن الهوية تارة، وضعف القانون أو عدم القدرة على تطبيقه في ظل الانهيار الأمني تارة أخرى.

كان الناس يمشون في الشوارع والأسواق والمحال التجارية ويعلقون بصوت مهموس أو مسموع، ومن تلك التعليقات عليك أن تكتب تأريخ هذا البلد الذي يمرّ بواحدة من أقسى المحن التي تعرّض لها شعب في العالم. ومن هذه التعليقات، يكون بوسعك أن تميّز الطائفة والعرق، وأحياناً حتى الموقف السياسي الأيديولوجي. هؤلاء الناس فُتحت أفواههم، وها هم يحللون ويشرحون كلّ شيء، لكنهم يتحاشون الوصول إلى الكاريزمات الدينية الجديدة. بيد أنّ هذه التعليقات، هي نموذج آخر من نماذج التعبير عن الهوية وتوكيدها.

الشارع العراقي الحامل لثقافة ماضية، بات الآن يتأسلم أحياناً، وينزلق إلى الفوضى التي لا طابع لها أحياناً أخرى. فأنت ترى هذا بوضوح عندما تتجول في الشوارع، وسوف تستمع إلى تسجيلات دينية لخطباء أو زعماء أو تسجيلات لشعائر معينة، أو تقع عينك على صور الرموز الدينية الملصقة على الجدران وواجهات المحال، أو تستمع إلى النغمات والأغاني الخاصة بالموبايل. حتى وأنت تتنقل في التاكسي أو الأتوبيسات سوف تلحظ هذا الهوس بالتعبير عن الهوية ولا سيما لدى الشيعة الذي تعرضوا إلى أسوأ حملات الإبادة والقمع والتنكيل وغمط الحقوق من قبل صدام حسين منذ 1979 حتى 2003.

وكان هذا من الخطوات الأولى، باتجاه التمهيد لصراع طائفي مدمر. الإسراف في التعبير عن الهوية، كان يؤدي إلى نتائج عكسية، تدفع الطرف الآخر إلى المغالاة التي وصلت إلى محاربة كلّ وسيلة دالة على الهوية. وهكذا ولد العنف الطائفي في العراق.

كان السنة يتخبطون في التعبير عن هويتهم، إذ ثمة أزمة رمزية لديهم، فهم تارة يلصقون صور أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي، وتارة يكتفون بتعليق قصار السور القرآنية، وتارة يبثون الأغاني والأهازيج ذات اللكنة الخاصة بفلكلور المنطقة الغربية، وهي أغان حماسية تعبر عن مقاومة أهالي المنطقة الغربية للاحتلال الذي أفقدهم السلطة التي ظلت بأيديهم طوال

قرون من الزمن. وأحيانا يحملون صور صدام حسين أو يكتبون على الحيطان عبارات تمجده، أو يتظاهرون في قسم من المناطق السنية المغلقة حاملين صورة مرددين الأهازيج بحقه، تلك الأهازيج التي كانت في يوم من الأيام تصدح عنوة في كل أرجاء العراق.

لكنك أحيانا، تستمع إلى تلاوات قرآنية بصوت قراء سعوديين، من أمثال: العجمي، والعفاسي، وعبد الرحمن السديس، وسعود شريم، وآخرين، وبعضهم كان يختتم القراءة الباكية الشجية بدعاء ثوري يتضرع إلى الله بنصرة المسلمين في بقاع الأرض على اليهود والأمريكان، وهو ما ينسجم مع الخطاب الإسلامي السني في العراق.

المهم في ذلك كله، هو أن الشارع العراقي ولا سيما في بغداد لم يكن شارعا حياديا، بل إنك تلحظ بوضوح مظاهر التعبير عن الهوية المأزومة بأكثر من طريقة. ونظرا لزحمة وسائل التعبير عن الهوية، فإنك منخرط لا محالة في جدل حول الوضع في العراق، أنت منخرط في تحليل كل شيء من السياسة، إلى أزمة النفط والبنزين والغاز التي تضرب بلد البترول. حتى أن العراقيين باتوا يتندرون بإحدى النكات التي تستثمر أسلمة الثقافة العراقية، ونصها: إياكم والإسراف بثلاث: النفط، الغاز، البنزين، رواه مسلم مرّت من البرد. ومسلم هذا، كما هو معروف، أحد أصحاب الكتب الصحاح التي تجمع بين دفتيها الأحاديث المروية عن النبي محمد.

وأفرزت ظاهرة الأزمة المستمرة للوقود، عددا من المصطلحات المتداولة المستحدثة بعد الاحتلال، وتسمع في الشارع بكثرة، وفي مقدمة هذه المصطلحات مصطلح: البحّارة. وهؤلاء هم أصحاب السيارات العتيقة ممن يتسللون إلى طابور الانتظار الطويل أمام محطات الوقود بالعنترة أو بغضّ الطرف من قبل الشرطة المشرفين على تنظيم الطابور.

وفي الوقت الذي يجري فيه التعبير المسرف عن الهوية البشرية المذهبية أو العرقية، كان تدمير هوية الشارع العراقي العمرانية والحرفية يجري في وضح النهار، فقدت كثير من الشوارع ذات الطابع الحديث أو الطابع التراثي، خصوصيتها التي تتفرد فيها عن مثيلاتها من حيث الطراز والحرف ونوع الرواد ونمط الثقافة والسلوك، بالإضافة إلى طابع الحركة الاقتصادية في هذا الشارع أو ذاك.

لقد امتلأ شارع الرشيد وهو أحد أعرق الشوارع البغدادية، بالنفايات والتجاوزات العمرانية وتغيير الخريطة المهنية، فهجر كثير من أصحاب الحرف التي كانت تمنحه طابعه الخاص، وهكذا تحولت إلى أماكن لبيع المعدات الثقيلة، أو إلى مخازن تتكدس فيها البضائع بصورة عشوائية. ومن المؤسف، أنّ واحدة من أقدم دور السينما في العراق وهي سينما الزوراء التي تزيّن واجهتها النقوش البغدادية في مطلع القرن الماضي، قد تحولت إلى مخزن محشو بالكراتين والبضائع التجارية. وأغلقت إلى الأبد، شركة جقماقجي للتسجيلات الصوتية، التي تعد من أقدم شركات الاسطوانات، بعد أن لحقتها أضرار جراء انفجار، وبعد أن تحول الشارع إلى مكان لعصابات الإجرام. ومن المدهش، أن سلسلة من المحلات الراقية لبيع الملابس في هذا الشارع التراثي، تحولت إلى محلات للسمكرة أمام مرأى أمانة بغداد، التي وقفت عاجزة عن اتخاذ القرار اللازم بإسعادهم إلى المدن الصناعية الخاصة بهذه المهن.

وبمحاذاته، تحول شارع النهر الذي يقع على نهر دجلة، إلى شارع مهمل يغزوه أصحاب النعمة الجديدة، فيغيرون الطبيعة الجمالية للشارع بسمهن لم يصلح لها قط. فهو بعد أن كان يزخر بأخر صيحات الموضة في الأزياء والذهب، وتموج فيه النساء الجميلات من كل صنف ولون، صار الآن خاليا إلا من عربات الحمل الدفع، أو البضائع المرمية على الأرصفة. لكن هذا الشارع السياحي، الذي تقع عند أقدامه بداية المستنصرية الأثرية التي يعود تأريخ بناتها إلى 631 هجرية في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله، ويقع في خاصرته أحد الخانات الشهيرة وهو خان مرجان الذي شيد في العام 1358م حيث تقام حفلات المقام العراقي، وبحاذي جسده من الغرب نهر دجلة بأسماكه وزوارقه، قد أهمل شأنه شأن بقية الشوارع الأخرى، ولم تراع قيمته التراثية، ولا قيمته الاقتصادية للبلد، إذ هجره التجار الكبار بسبب تربص عصابات الخطف والابتزاز.

وهذا الشارع، عبارة عن سوق لبيع الانتيكات من كل صنف ونوع، يأتي إليه السياح الأجانب، ليقتنوا التحف والهدايا، فتنتشر الثقافة الشعبية في كل بقاع العالم عن

طريق هؤلاء السياح، أو السفراء المجولين. وفيه ينتشر عدد من المقاهي، وفي مقدمتها مقهى شط العرب الشهيرة، التي أعدم صاحبها عبد العزيز من قبل مخابرات صدام بعد أن أراد وبعمل جاسوساً على رواد المقهى فرفض فكان جزاؤه التغييب في المقابر الجماعية، لكن الوضع الجديد قام بإعدام المقهى نفسها بوصفها مكاناً تراثيا، ترصعت جدرانها بحكايات البغداديين طوال عقود من الزمن.

إن القضاء على المقهى البغدادي، هو جريمة ثقافية، ذلك أن هذه المقاهي بخلاف مقاهي البلدان العربية ظلت محافظة على ديكورها التقليدي الذي يعود إلى بدايات القرن الماضي، وربما قبل ذلك. ولم تخل مقهى من رواد مثقفين؛ من الكتّاب والأدباء والفنانين. وقد منحها ذلك خصوصية ثقافية، هي أنها أصبحت مكاناً للتخيل والكتابة والإبداع، وصالونا للحوار الثقافي الحيّ. وفي هذه المقاهي، انبثقت جماعات أدبية وفنية، كان لها أثر بالغ في تطور الحركة الثقافية، وتنويع نشاطاتها، من ناحية ثانية، تعد المقهى البغدادية، ذاكرة وطنية عامة، إذ تزدان جدرانها بصور الشخصيات العراقية من سياسيين ومثقفين وعلماء، وكذلك تزدان بصور تدون حركة الناس ولباسهم ومهنهم وعمارتهم وعاداتهم الشعبية، بالإضافة إلى اللوحات التي تهدى من الفنانين الرواد إلى صاحب المقهى ليعلقها على أحد الجدران.

وقد طال التفجير الانتحاري عدداً من المقاهي، على حين أغلق بعضها بسبب التهديد من إسلاميين متطرفين، مثل مقهى الشابندر في شارع المتنبي التي أغلقت عدة مرات.

من ناحية أخرى، تحولت ضفاف نهر دجلة إلى مكب للنفايات، ومات المقام العراقي، وغاب السياح والنساء الجميلات، وأحيطت المستنصرية التي تعد معلماً أثرياً إسلامياً وعراقياً وإسلامياً، بالنفايات المحترقة من ثلاثة جوانب، ولعل وضع بناية المستنصرية التي تعد من أقدم الجامعات في العالم، ينبئك عن الوضع المتردي للجامعة والتعليم في العراق.

لم يكن هذا بسبب فقدان الأمن حسب، بل ثمة رغبة لتدمير الهوية الثقافية لمدينة بغداد، فالأماكن التي عليها مسحة ثقافية سنية لا تحظى برعاية المجالس البلدية ذات التكوين الشيعي، وهكذا بالنسبة للأماكن ذات المسحة الثقافية الشيعية في الأماكن السنية. فهذا عمل إرادي مقصود، يستند إلى ذهنية دينية تتحّي جانباً كل مكون ثقافي سواء أكان دينياً من مذهب آخر، أم دنيوياً يطلق عليه عادة علمانياً، وحينئذ يوضع في خانة الحرام والتكفير والتبعية إلى الغرب.

لقد تمّ الاستيلاء على البيوت البغدادية التراثية، التي يعود تأريخ بنائها إلى مطلع القرن الماضي، وهي ذات رمزية محلية تكشف عن نمط الحياة في تلك المرحلة، وتكشف كذلك عن نمط الثقافة والعادات الشعبية في هذا البلد. في البداية، هجم السراق عليها ونهبوا مقتنياتها، بعد ذلك استولت عليها الأحزاب والجمعيات المشبوهة، وبعضها حوّل إلى دوائر حكومية معرضة إلى التفجير في أية لحظة من اللحظات. وقد استطاعت الشاعرة العراقية أمل الجبوري المتزوجة من شخصية متنفذة في وزارة الدفاع، أن تستولي على بيتين شهيرين من هذه البيوت التي تقع في شارع حيفا الذي شيده صدام على طراز معاصر في الثمانينيات. حولت أمل الجبوري البيتين إلى مؤسسة ثقافية هي: اتحاد ديوان الشرق-الغرب/ فرع العراق [وكان هذا الاتحاد قد أسس في مدينة برلين في 26 حزيران/يونيو سنة 2001]، تمول من ألمانيا، قام بافتتاحها السفير الألماني في 9 آذار/مارس 2004.

إنّ شارع حيفا، الذي يعدّ تحفة من تحف العمارة المعاصرة، ويتوسطه مركز صدام للفنون، الذي نهبت كنوزه من اللوحات التشكيلية والتحف والمنحوتات إبّان هجمة الحوامل الشهيرة السيئة الصيت في 9/4/2003، يتعرض الآن إلى تشويه في معالمه الجمالية، إذ تتلوث واجهاته الأمامية وجدرانه بموجات من الملصقات والصور والرايات والشعارات المكتوبة بألوان متعارضة وبخطوط سيئة، وتحمل مضموناً مخرباً للوحدة الوطنية بين أبناء هذا البلد.

ومع أنّ مركز صدام للفنون، أصبح الآن من ممتلكات وزارة الثقافة، وتستقر فيه مجلة كلكامش، لكنه لم يعد مكاناً تعرض فيه نفائس الفن العراقي الذي يحظى بمنزلة عربية وعالمية متميزة. وأصبح الفنانون العراقيون، يتذكرونه بحسرة وألم.

وعلى مقربة من هذا المركز، يقع المتحف الوطني الذي تعرض إلى هجمة بربرية سرقت كنوزه وخطّمت على مرأى ومسمع الجنود الأمريكان. بيد أنّ ثمة تكاسلاً وإهمالاً شديدين من لدن الحكومة، لإصلاح حاله والقيام

بحملة كبرى لإعادة ما سرق منه. ويجب أن نعترف هنا، بأنّ التكاسل مرده إلى الطابع الديني لهذه الحكومة التي تعدّ هذه التماثيل حراماً استناداً إلى فتاوى المرجعيات التي تحرم النحت وكثيراً من الفنون الجميلة.

ولكي يظل المتحف تحت سيطرتهم في القضاء على ما لا يعجبهم فيه، والإبقاء على ما لا خوف منه، أو على أقل تقدير الإمساك بهذا المنجم المالي الذي لا يقدر بثمن، قاموا بإيصال رسائل تهديد وُصفت بأنها من متطرفين إسلاميين إلى الدكتور دونى جورج مدير المتحف صاحب الخبرة المشهودة، مما اضطره إلى مغادرة العراق، لينضم إلى قائمة الكفاءات العراقية التي توزعت بين خرائط العالم.

إنّ الشارع البغدادي، الذي كان يمتاز بخصائص عمرانية جمالية حولته إلى ذاكرة للحياة البغدادية بكل تجلياتها الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وباتت تختزن في تفاصيله كل تلك الحركة الحيوية طلّ الأصيلة، أصبح الآن فاقداً لخصوصيته المكانية. سنتر العاصمة، الباب الشرقي، يتمتع بمسحة جمالية خاصة صارت جزءاً من المخيال البغدادي، إذ تتوسطه ساحة التحرير، ويطلّ عليها من الحافة الغربية لحديقة الأمة، نصب الحرية العظيم للفنان العراقي الكبير جواد سليم، ومن حافتها الشرقية جدارية الفنان فائق حسن ذات الألوان الخلابة وحمامات السلام البيضاء. بيد أنّ نصب الحرية الذي يعد واحداً من أكبر وأهم النصب في العراق اكتسى بملصقات وصور لرجال الدين، وتوشح بالقاذورات. ولم تنفع حملة التنظيف التي قادها جمع من الفنانين والمثقفين لرفع الملصقات والصور وتنظيفه من الأوساخ، إذ سرعان ما عادت الصور والشعارات في زحمة التكالب على توكيد الهوية.

كان الباب الشرقي، يتزين بالمحلات التجارية المودرن، ويعدّ سنتر صالات السينما، ويمتاز بكثرة حركة الشباب فيه الذين يأتون إليه بحثاً عن آخر صرخات الموضة، ويحتضن حركة صاخبة من الباصات الحمراء ذات الطابق الواحد أو الطابقين، وتلمع واجهات محلاته، وتنتشر فيه البارات والمقاهي والمساجد والكنائس، فيه المسيح والمسلمون وما تبقى من اليهود، فيه نصب الحرية، وجدارية فائق حسن، وتمثال رئيس الوزراء في العهد الملكي عبد المحسن السعدون، وفيه نصب الجندي المجهول القديم الذي استبدل بآخر في أيام صدام حسين الذي وضع محله تمثالاً شخصياً له هو التمثال الشهير الذي أسقط في 9/4/2003 وكان دلالة على سقوط النظام، واستبدل ذلك بنصب آخر من عمل جماعة ناجين، ويحاذي الباب الشرقي من الجانب الغربي، نهر دجلة وكورنيش أبي نواس إذ يحتضن هذا الكورنيش الذي كان ملتقى العشاق عدداً من التماثيل من أبرزها تمثال أبي نواس وهو يمسك متكئاً أمام بحيرة كأس الخمرة الذي اشتهر بتوصيفها حتى قال:

بتوصيفها حتى قال:

اسكتي.

بيد أنّ شارع أبـي نواس، قطّعت أوصاله بـالعوازل الكونكريتية بسبب وجود عدد من الأحزاب فيه، وهجر الكورنيش تماماً بـعد كان يزخر بالحـركة، وتول إلى مكبّ للنفايات والأنقاض، حاله في ذلك حـال كورنيش الأعظمية الذي تحـــول إلى مكبّ للجثث المغدورة وأنقاض البناء، وحـال جزيرة بـغداد السياحـية التي تحولت إلى معسكر يعيث به الجنود فساداً، بعد أن كانت واحدة من أجمل المواقع السياحية في العراق، وحـال جزيرة الأعراس التي تحولت إلى شبح مخيف وانتشرت كل معالمها.

وتحولت حديقة الأمة (حديقة الملك غازي سابقاً)، إلى مكان للتبـرز والتبـول، ورمي النفايات، ومؤخراً تم تشويه الحديقة بإقامة دكاكين صغيرة قيد الإنشاء لا شكّ في أنها ستجعل الحديقة مكاناً لتجمّع المشـردين الذين يعيثون فساداً في هذا الموقع الجميل الذي يتزين بـأهم نصبين كما ذكرت.

أما شارع أبـي نواس، فلعل أهمّ مصيبـة تعرض لها كورنيش هذا الشـارع، هي إغلاق الكازينوهات التي كانت تصدح بالمقام العراقي، وأغلقت مطاعم أشـهر أكلة تخصص فيها العراقـــيون من دون غيرهم من العرب والأجانب، وهي السمك المسكوف على الطريقة العراقية.

إنّ الباب الشرقي، هي ملتقـى الطرق الآتية من جهات بـغداد الأربـع، وهي حـلم الشبـاب الذين يزورون العاصمة، إذ لا بد من التجول في هذه المنطقة الزاخرة بالألوان الجذابة والمكتبات والمسارح وصالات السينما والملاهي والبارات والمقاهي ومحلات الموضة، بيد أن من يتجول فيها الآن لا يجد فيها سوى أكداس الكارتون والنفايات وعربات البضائع وبسطيات الأرصفة، وكل هذا في جو من التشـــنج والخوف من التفجيرات والعبوات الناسفة والاغتيالات.

أغلقت سينما النصر، وسينما بابـل، وسـينما سـمير أميس، وسـينما النجوم، وسـينما الرصافي، وسـينما الأندلس، وظلت سينما الخيام والستديا وأطلس تعْرضُ فيها أفلام ثانية، ومع ذلك فقد تناقـص عدد روادها إلى أكثر من 95% .

لقد كانت الباب الشرقي، مصدر إلهام للفنانين والكتاب والشعراء العراقيين من كل حدب وصوب، فهو يشبـه لوحـة متعددة الألوان، وكل لون هو لوحـة في ذاته، ليست تجريدية إنما نابضة بحركة بشرية تشـترك مع خيوط النسـج الأخرى لِيُنتج نسـيج كامل هو : نسـيج العراق.

كانت اللهجة البغدادية التي اندثرت تقريباً الآن، بسبب تدفق المهاجرين من المحـــافظات، لهجة تُلحظ في الشـارع ومن أفواه الجموع التي تسـير على أرصفة الباب الشرقي، لكنك الآن تستمع إلى لهجة مهجنة على نحـو تنفر من الأذن، فيه خشـونة، ولا يراعي مقـام العاصمة، إذ تتعدم فيها الاعتبارات تماماً، على حـين تسود السوقية وقلة الذوق.

وفي الساحة المقابلة لصالتي: سينما الرصافي وسـينما الأندلس، هذه الساحة التي كانت تجمعاً للشباب يـعمر الورد يأتون على شكل جماعات لمشـاهدة الأفلام التي تنطوي على مشـاهد الإغراء الجنسـي، أو أفلام الـ Action أو أفلام الرعب. وكان ثمة جمهور سينمائي رائع في بغداد، يتابع الأفلام على نحو منتظم، ويعرف أبطال السينما العالمية والعربية، ويملك معلومات جيدة عنهم. ويمكن القول، إنّ ثمة ثقافة كانت تسربها السينما إلى هؤلاء الشباب، أو رواد السـينما بـصورة عامة. ومجمل هذه الثقافة، ينعكس على الزي، وبعض القـيم الروحية، وغرس روح التفاول والحـلم بالمستقبـل، ورؤية الحـياة على وفق تصورات واقـعية طموحـة ومتحررة من سلطة الآخر. ولم يكن رواد السينما ببغداد من الشبـاب فقـط، بـل ثمة عوائل تجد في ذلك نزهة وترفيهاً وزيادة تثقيف، بـيد أن دور السـينما الآن هي والعدم سواء، فقد أصبحت شيئاً محظوراً في ظل دولة دينية، توطد أركانها بـ: ثقافة الحرام.

من ناحية ثانية، اندثر الإنتاج السينمائي العراقـي لأنّ لفظة: سينما، تثير حساسـية الدولة الدينية، فهي لفظة مشبـعة بـالتهتك والإباحـية والخروج على الأخلاق وترتبط بإفساد طباتع الشبـاب، ومن هنا فإنّ الموقـف الرسمي من السينما هو موقف سلبي، فهي تحرّم في فقه المراجع الدينية، إلا إذا تحـولت إلى سـينما بحسب الضوابـط التي يضعونها، والقـائمة على الحـذف المستمر، حتى لا يبقى من الشريط السـينمائي سـوى الحركة التي لا تدلّ على شيء.

كنتُ انتظر أحد معقبي المعاملات الرسمية في مقهى شعبي بمنطقة "الأورفه لي" ببغداد، حين بدأ الظلام يغطي بالتدريج مشهد السماء الشاحب، وانا اشرب من استكان الشاي.

انظر برتابة الى جهاز التلفزيون البعيد. وذهني يقلب الخيارات التي بدأت تتناقص امامي تجاه الهجرة ومعاملة السفر المرفوضة من قبل مديرية الجوازات. فجأة استدارت اعناق الزبائن في هذا المقهى تجاه شاشة التلفزيون. توقفت فرقعات الدومينو، وركض عامل المقهى الصغير ليرفع صوت التلفزيون. كان برجا مركز التجارة العالمي ينهاران، هناك، على الشاشة الصغيرة الموضوعة فوق ثلاجة المقهى، وكنت اعرف، بنبرة تشاؤم مؤكدة، أني لن اسافر أبداً.

الحرب خلف شاشة التلفزيون
يوميات وتأملات

أحمد سعداوي

الاناشيد تقرع رؤوس العائلة كل ليلة، والبرامج الترفيهية تتناقص. ليس هناك من مفر سوى جهاز السي دي، افلام الكارتون شاهدناها عشرات المرات، الافراص نفسها، وحفلات كاظم الساهر، والافلام الهندية التي يحبها بعض افراد العائلة، إنقاذ الجندي رايان، وبضعة افلام اخرى لتوم هانكس. ملل، والجيران يقولون ان التلفزيون يلتقط، عبر الايريل المتحرك بجهاز المنظم اليدوي، قنوات أخرى، ليس فيها اناشيد حربية، ولا صورة الرئيس ولا أي انتصارات مفترضة. الجيش البريطاني في البصرة، ولا يعلم احد، او انهم يعلمون ولا يخبرون احدا.

العائلة تطلب مني شراء هذا الايريل المتطور حتى نرى الحرب من وجهها الأخر. ذهبت القنوات الرسمية مع الريح، وذهبت انا الى السوق، وبعد العودة بالايريل المتطور، كان الزقاق البعثيون قد نصبوا سيطرة عند مدخل الشارع.

ــ بكم هذا الايريل؟

سألني الرفيق ذو الكرش المدور وهو يبتسم بتواطؤ.

أجبته متغابياً، وحاولت التملص منه، ولكنه استمر باسئلته من دون ان تفارق الابتسامة الماكرة شفتيه. من المؤكد أنه يستخدم هذا الايريل نفسه في البيت لكي يعرف مصيره على وجه الحقيقة. من المؤكد انه لا يصدق ما تقوله القنوات الرسمية، ولا يراها ايضاً.

تركتني بعد ان اشبع احساسه المحدود بالسلطة، وارتفع الايريل ذلك المساء فوق سطح البيت. كانت الصور المجهولة، واستقرت بضعة عوائل بين غرفه المتهالكة على عجل، ولم اعرف حتى الآن كيف استطعنا تأمين هذا البيت، مع الهجرة الواسعة لأهالي بغداد باتجاه ديالى، في سيناريو مشابه للهجرة التي رافقت حرب الخليج 1991.

الاخبار تأتي من راديو الترانزستور الصغير، ولا شيء واضح او مفهوم، حتى تلك الظهيرة، حين ركض احد جيراننا الطارئين باتجاه شاحنة لجار آخر، وتركنا معه على عجل واتفقا على شأن ما. خرجنا لنشاهد تلفزيون هذا الجار، وقد اضاء بصورة مشوشة، بعد ان ربط ببطارية الشاحنة التي شغلها صاحبها.

إنتظمت اشارة الايريل الذي وضع كيفما اتفق على الجدار الطيني، وشاهدنا جميعاً ساحة الفردوس الخالية، منظوراً إليها من كاميرا موضوعة على احدى نوافذ فندق فلسطين ميرديان. الساحة امتلأت تدريجياً بشر قادمين من الاحياء المجاورة، ثم ظهرت دبابة اميركية وتوقفت عند طرف الساحة، لم يستغرق الامر طويلاً، حتى شاهدنا جميعاً، ونحن واقفون في العراء، من دون ان يفكر احد منا بالجلوس، شاهدنا كيف سحبت احدى الدبابات الجثة المعدنية لتمثال الرئيس. سقط التمثال، وكانت الصورة كافية لتأكيد لحظة النهاية. جمع جارنا ذو الشاحنة اغراضه على عجل وغادر من فوره باتجاه بغداد. كانت آراء الاخرين متضاربة، ولم يقرروا بعد متى يعودون، وماذا سيرون على الطريق. الخشية والقلق ظلا يخيمان على الاحاديث تلك الليلة. برغم ان بعض الشباب بيننا كان ينطلق بهتافات او اغان مفاجئة تعبيراً عن الهستيريا المكبوتة، تلك التي آن أوان انطلاقها، والخجل الاجتماعي يقيدها.

4

أكثر الاشياء العالقة في ذاكرتي من مشهد العودة نحو بغداد هو منظر أسرّة المرضى ذات العجلات الخارجة الاميركيون، لأن هذا سيخدمني أنا، وانا ذو حظ سيئ. سينجو هذا الرجل وسيخرج الرفاق الحزبيون بسيارتهم الحوضية وهم يحملون صوره ويطلقون الرصاص في الهواء احتفالاً بالنصر الجديد. ولن نقوم بأي شيء، سنستمر في حياتنا مبتعدين قدر استطاعتنا عن صخب الرفاق وعن سيرة الهزائم والانتصارات.

نظفنا بيتاً طينياً واسعاً عند مدخل احدى القرى المجهولة، واستقرت بضعة عوائل بين غرفه المتهالكة على عجل، ولم اعرف حتى الآن كيف استطعنا تأمين هذا البيت، مع الهجرة الواسعة لأهالي بغداد باتجاه ديالى، في سيناريو مشابه للهجرة التي رافقت حرب الخليج 1991.

الاخبار تأتي من راديو الترانزستور الصغير، ولا شيء واضح او مفهوم، حتى تلك الظهيرة، حين ركض احد جيراننا الطارئين باتجاه شاحنة لجار آخر، وتركنا معه على عجل واتفقا على شأن ما. خرجنا لنشاهد تلفزيون هذا الجار، وقد اضاء بصورة مشوشة، بعد ان ربط ببطارية الشاحنة التي شغلها صاحبها.

إنتظمت اشارة الايريل الذي وضع كيفما اتفق على الجدار الطيني، وشاهدنا جميعاً ساحة الفردوس الخالية، منظوراً إليها من كاميرا موضوعة على احدى نوافذ فندق فلسطين ميرديان. الساحة امتلأت تدريجياً بشر قادمين من الاحياء المجاورة، ثم ظهرت دبابة اميركية وتوقفت عند طرف الساحة، لم يستغرق الامر طويلاً، حتى شاهدنا جميعاً، ونحن واقفون في العراء، من دون ان يفكر احد منا بالجلوس، شاهدنا كيف سحبت احدى الدبابات الجثة المعدنية لتمثال الرئيس. سقط التمثال، وكانت الصورة كافية لتأكيد لحظة النهاية. جمع جارنا ذو الشاحنة اغراضه على عجل وغادر من فوره باتجاه بغداد. كانت آراء الاخرين متضاربة، ولم يقرروا بعد متى يعودون، وماذا سيرون على الطريق. الخشية والقلق ظلا يخيمان على الاحاديث تلك الليلة. برغم ان بعض الشباب بيننا كان ينطلق بهتافات او اغان مفاجئة تعبيراً عن الهستيريا المكبوتة، تلك التي آن أوان انطلاقها، والخجل الاجتماعي يقيدها.

4

أكثر الاشياء العالقة في ذاكرتي من مشهد العودة نحو بغداد هو منظر أسرّة المرضى ذات العجلات الخارجة

من مستشفى حمادي شهاب. لم يكن لدي تعليق واضح. أ اويد نهب الأسرّة في هذا المستشفى أم انا ضد ذلك؟ لا تعليق.

المشـهد الآخر هو لشاحـنات طويلة تحـمل اطبـاق الستلايت بأتجاه قـلب العاصمة. على مدى ايام كانت هذه الشاحـــنات هي المنظر المعتاد لنهار العاصمة. بالاضافة الى الدخان الخارج من مخازن وزارة التجارة في منطقـــة "كســـرة وعطش" والاجهزة المتنوعة المعروضة على ارصفة اســواق ارتجالية هنا وهناك. اسواق للسلاح والعتاد بـمختلف انواعه، ثم هذا الهدير الذي لا ينتهي خلال الليل لأشخاص يجربون اسلحـتهم الجديدة. الاسلحـة بـأيدي الناس، والعتاد ارخص من الرز، كل شيء جاهز للحرب الاهلية، فهي ستقـوم لا محالة بغض النظر عن الاسباب المفترضة.

شـهوة جديدة تذوقـها الناس، اسـمها الاعتداء على الخوف، خرق الممنوع، لم يكن للدين في الحقيقـة أي سطوة خلال تلك الايام، حتى أن بعض المقاهي، وبـعد مضي نصف سنة على سقوط تمثال صدام في ساحـة الفردوس، كانت تعرض ويشكل علني الافلام الخلاعية على زبـــائنها، وكانت الصناديق الفلبنية لبـــاعة المشروبات الكحـولية منتشـرة في كل مكان. أحـد الاصدقاء عبّر عن امتنانه للحرية الجديدة، بقـوله أنه اشترى من باب المعظم علبة بـيرة مثلجة، وجلس على الرصيف وشربها وهو ينظر الى الشمس، ثم بدأ يسـير جذلاناً نحو ساحـة الميدان. كانت علب المشروبـات الغازية منتشرة في كل مكان، لقد دخلت هذه العلب مع اطباق الستلايت كأول الفاتحين ليومیات الناس الرتيبة في العاصمة.

بسبب هذه العلب والانقاض وبقايا السواتر الترابية التي تركها الرفاق الهاربون، ونفايات المسروقات من الدوائر والمؤسسات الحكومية، غدت العاصمة مقلعاً كبيراً للنفايات، كنا ندوس النفايات أينما ذهبنا.

أين الاميركان من هذه الصورة؟ في الحقيقة لا اعرف. لم تكن لدي مشاعر محددة تجاه الوجوه المحمرّة للشبان الصغار فوق المدرعات والدبابات الواقفة في تقاطعات الشوارع. أ أكره هم أم انا واقع في حبهم؟ ليس هذا ولا ذاك، لا اعرف.. هذا اقرب الاجوبة الى ذهني.

5

كل شيء كان فنطازياً واقل عدوانية من المتوقع في تلك الاشهر الاولى التي اعقبت دخول الاميركان الى بغداد. وكأن الصورة الساكنة للزمن التسعيني قطّعت واعيد ترتيبها بشكل اعتباطي ليس إلا، صورة ساحرة، اكثر فناً وغرائبية من أي شيء يمكن تخيله. هل في هذا الكلام نوع من عدم التعاطف، ومن جفاف النظرة الذاتية؟ ربما، ولكن من أين يأتي التعاطف، ومن يستحقه؟

كل شيء يدعو للضحك، ومن الممكن ان يغدو عنوان تلك الاشهر هو الضحك، لولا تلك اللطخات التي تعتور الصورة احياناً، سائق اسعاف قتل عن طريق الخطأ. نواح جار قتل بعض افراد عائلته من بقايا قنابل عنقودية تركت في الارياف. لكن السيارات كانت تعبر مناطق بغداد حتى منتصف الليل، ولا شيء يحدث، والبشر يتحركون بطاقة تفاؤل عالية، برغم الغياب التام للدولة. إبتدأ فصل سرقة السيارات الخاصة، وظهرت العصابات، ولكني لا املك سيارة!

بدأ الجدال يتصاعد حول الاميركان، وحول الضغائن الطائفية، ولكني لا اعرف، ولا املك أي دليل حتى الآن على كره او حب الاميركان، ولا ارى سبباً لكره أحد على اساس طائفي او عرقي أو أي شيء، لا ارى أي سبب لأي شيء يمنع الاستمرار بالضحك على فنطازيا الصورة المقلوبة للتسعينيات الطويلة.

6

أفتح جهاز التلفزيون، وأرى ندوة نقاشية بين اشخاص يرتدون ربطات عنق وبدلات نظيفة، وفي الخلفية صورة ثابتة لمشهد ارتطام الطائرة بأحد البرجين الشهيرين. لقد مر وقت طويل على ذلك، والقنوات كلها تحيي المناسبة، بموجهات مسبقة متعارضة ومختلفة. أنظر واسمع الكلام واشعر بأنني أخذت تطعيماً مبكراً تجاه الانحياز. لا اكاد اصدق بسهولة.

أقف على ثرى خمس سنوات من ذلك المشهد الشهير للدبابات الجديدة على هواء بغداد وهي تقلع الاسفلت بسرفاتها النشطة. وأعرف بأنني لم اكن من سيني الحظ، أولئك الذين غدوا ضحايا جدد لمعركة غير معلنة مازالت مشتعلة حتى الآن. لم اغد سيئ الحظ بعد، على الاقل، حتى هذه الساعة، وانا اخط هذه الكلمات. لقد حدث كل شيء تماماً عكس كل تشاؤمي الفطري، وغدوت اكثر نضجاً، مع تسليمي بأن حدوسي لا تتطابق مع الحقيقة دائماً. غدوت اكثر نضجاً، لأني غدوت اكثر جهلاً بنفسي ربما، وبالموجهات الداخلية التي تنتج وجهة نظري تجاه الحياة. بت أكثر شكاً بأي وجهة نظر، خصوصاً تلك التي تطرح بثقة عالية، وبما يكفي من معدات الاثبات والجزم واليقين.

أقول ذلك وفي الخلف حرب كثيرة التفاصيل، اجرت أنهاراً من مداد الصحف والقنوات الفضائية وخلفت نفايات ورق يصعب تخيلها، حرب يراد مني أن أجزم بشأنها، فأرى انها غيرت يومياتي المعتادة خلال بضعة سنوات أكثر مما فعل عقد كامل. وأرى انها مثل كرة ثلج مازالت تتدحرج وتغير بطريقها كل شيء. تكبر بتفاصيل جديدة، وتغدو خارج القياس أكثر فأكثر. أنظر اليها، من خلال شاشة التلفزيون، وأعرف بأنها الصورة الوحيدة التي تعرفها، والتي نستطيع تجاهلها ايضاً، بتحريك منظم القنوات على فيلم أو أغنية قديمة.

أين سأغدو في اليوم التالي؟ ربما جثة على رصيف، او اشرب الشاي عند تقاطع ساحة الاندلس، او ربما سأدخل الى مكان غريب وغير متوقع، مثلما حدث أثناء تغطيتي كصحفي للاحتفال بعيد ميلاد ملكة بريطانيا قبل عامين، بينما الشارع يسخن تحت وهج المفخخات. ولكني مازلت محظوظاً بوقت لا اعرف قيمته، يتيح لي تأملاً مشكوكاً فيه، بمعنى الكلمات الكبيرة كالحرب والارهاب والطائفية والدولة وما الى ذلك، وهي تنزل الى فضاء الغرفة من شاشة التلفزيون كل ليلة. مازلت محظوظاً كي أنمس، أنني جزء من كرة الثلج التي تتدحرج، بالاميركان والكونكريت والبلاد والسيارات الكثيرة المصفوفة في زحام لا ينقطع، ولم تصل الى قرارها الأخير بعد.

كيفَ يمكن للإنسان أن يتكلم عن الحرب من دون أن يشعر بأنه يخس ضحاياها حقهم؟ أو المقصود بالحرب كم الأسلحة المتناثر بأيدي الصبيان الفرحين بلهيب نيرانها أم أن الحرب هي حجم دمار الطائرات العملاقة التي أخذت تجوب سماء بغداد لتمطر علينا أطنان الخراب الدائم؟ حسناً إذن. إذا كانت الحرب أكثر من هاتين الصورتين المتعاكستين، فماالحدود التي يجب أن يستوعبها كلامُ عابرٍ يريد أن يوفّي الحرب أوزارها؟

القديس يُنكِر ذنوبه

سعدون محسن ضمد

أولاً: الحرب كما يصفها عابر سبيل(1)

في منتصف عام 2004 شاهدت سرب حمام زاجل يطير مبتعداً عن مرقد الإمام الكاظم، لم أكن قد أتيت لأداء طقوس الزيارة، وربما أنني فقدت القدرة على أدائها منذ غادرت العراق هرباً من جدل الدين والسياسة، الذي جعلني أبحث عن المخرج بعيداً عن الطرفين. لذلك لم أشأ الدخول إلى المرقد. وعلى الرغم من أن حفيف أجنحة الحمام الهارب أوحى لي بأن رحمة ما، سُرِقَت للتو من بلاد ما بين النهرين وهُرِّبت مع ذلك السرب الطائر باتجاه اللاعودة، إلا أنني رفضت وساوسي، وقررت أن أعود لأكمل ما جئت من أجله. يومذاك كنت قد ذهبت للإشتراك بتظاهرة من أجل المطالبة بإخراج أحد المعتقلين. لم أعد أتذكر اسم المعتقل ولا مدى أهميته ولا حتى علاقته بمدينة الكاظمية. ما أتذكره فقط هو منصة مسرح كانت منصوبة بشكل لافت، وفوقها مجموعة من رجال الدين

الشباب، ممن كانوا يتقاسمون للإستئثار بالحديث، ومن خلفهم كانت هناك مجموعة من الشعراء الشعبيين يتصارعون من أجل الوصول للمايكروفون باعتباره فرصة لشد انتباه الجمهور المتحفز. تلك الأيام، لم تكن الحرب قد كشرت عن أنيابها بوجه العراقيين بعد، مما أوحى لهم بأن دوامتها لن تتعدى الشعارات والتظاهرات والمطالب والطموحات التي أردوا لها ـ لشدة غرورهم ـ أن تكون بلا حدّ.. أتذكر جيدا كم كان الجو مشحونا بالإثارة والضجيج، وكم كان التحدي يأخذ بالنفوس لأبعد حتى من خيالها الجامح.

فجأة وبينما كنت مستغرقا ببرقبة الناس قفز إلى المنصة شاعر شعبي وأخذ يهتف بحماس مغرور:

ـ ((اخذناهه أخذناه وبعد هيهات ننطيه))..

فاجأني الصوت وأدهشتني نبرة التحدي المعبأة فيه (2). عندها أحسست بأن شيئا ما فتح الذاكرة العراقية العلمة على تاريخ موغل بالقدم. حقا عندما سمعت البيت، وهزني الصوت الذي زلزل كيان الجماهير، أدركت بأن التأريخ المختوق قرر أن يتنفس أخيرا، وأدركت من يومها بأنّ الحرب الباردة والدائرة بين أهم معسكرين في تراثنا كله (الشيعة والسنة) في طريقها لتكون ساخنة جدا.

بيت الشعر الشعبي والموقف الذي قيل فيه اختصرا معا طبيعة الصراع المحتدم بين المكونين الأكبر في العراق وبالنسبة لي، لم تكن دلالات التحدي المشحونة بكلمات ذلك الشاعر هي وحدها الباعثة على الخوف.. بل كم الصراخ الذي كان يهتف به جمهور المتفاعلين معه.. أدركت وأنا أسمعهم بأن كلمات الشاعر ضغطت بقسوة على جرح غائر بنفوسهم وأيقظت كابوسا استغرق تأريخهم كله. تأريخ كامل من النبوءات والأكاذيب والحروب والمذابح. أولياء وأنبياء وأئمة كانوا كلهم يتقاسمون الحزن داخل جحيم ذلك الكابوس ويشتركون جميعاً بستلاوة العزائم التي كانت تعدهم بالخروج من ضائقته. طوال الأيام التي تلت أحداث الاحتلال الأمريكي، أو ما يسمى بالتغيير، كانت الكيانات الاجتماعية والقيادات الدينية تحرص كل الحرص على رفع شعارات التلاحم الوطني، وتحاول أن تحاصر أي محاولة لبث الفتنة الطائفية، وكنت من بين آلاف الخائفين من أن تعصف رياح الفتنة بالبلد وتفتح على الناس دمار الاقتتال الطائفي. ولذلك فقد أخافني بيت الشعر ذاك وأوقفني على حافة اليقين بأن الحرب الطائفية قادمة لا محالة.

كانت هناك جملة من الأحداث هي التي حفزت بيت الشعر، أو ثقافة التحدي التي تكلم باسمها الشاعر، من أولها تفجير مرقد الإمام علي الذي استُهدف فيه محمد باقر الحكيم، ثم تلى ذلك الحدث حملة من التفجيرات التي استهدفت المكون الشيعي بما هو شيعي والتي عبّرت عن ذلك الاستهداف بالتفجيرات التي تخللت أداء الطقوس الشيعية من (سيارات مفخخة وأحزمة ناسفة وقنابل هاون). والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة ومنذ بداية أحداث العنف الطائفي في العراق وحتى الآن، هو:

هل الصراع بين الشيعة والسنة مذهبي/ تأريخي أو أنه مجتمعي/ شعبي؟ ما طبيعة هذا الصراع؟ ما طبيعة القاعدة التي يتأسس عليها؟ ما الشرعية التي يستند إليها؟

ثانيا: لعنة التأريخ

هل فكّر أحد ما، بأن التأريخ لعنة؟ حسنا إذن اسمحوا لي أن أسمي التأريخ باسمه الحقيقي، (اللعنة) نعم التأريخ لعنة، وهذه اللعنة تجد ترجمتها بخصلتين مرضيتين لدى الكائن البشري هما:

أولا: خصلة الذاكرة الجماعية، التي تحتفظ من التأريخ بأحداث محددة فقط، ذلك أنها ذاكرة من جهة، وجماعية من جهة أخرى، وكونها جماعية يجعلها انتقائية باختيار الأحداث. بحسب ذوق وميول وحاجات الجماعة. فمن المؤكد أن سجلات تأريخ الجماعة ومهما كانت حافلة وكبيرة فإنها لن تستطيع أن تستوعب كل الأحداث التي وقعت طوال ماضيها، هناك أحداث محددة فقط، والسؤال المهم هو: ما طبيعة الآلية التي تتحكم بعملية انتقاء الأحداث؟

بعبارة أخرى: لماذا (مثلا) تحكي الطقوس الشيعية عن الحرب التي خاضها الحسين(ع) ولا تحكي عن الحرب التي خاضها الحسن(ع) مع أن كلا الحربين خاسرة بالمعايير العسكرية ورابحة بالمعنوية؟

ثانيا: خصلة الصراع الاجتماعي، وهذه الخصلة تتأسس على التمايز بين الجماعات، فجماعات البشر متمايزة دائما والتمايز هذا ينشأ عن أسباب كثيرة لكنه يصب بمحصلة واحدة هي تمييز الجماعة البشرية عن

الجماعات الأخرى. التمييز بحد ذاته مهم على صعيد بناء الذات الاجتماعية وتكريس خصوصيتها. لكنه سرعان ما يأخذ اتجاهاً إقصائياً فيتحول إلى مبرر تدمير للآخر. الصراع الاجتماعي الناشئ عن التمييز هو الذي يتحكم بعملية انتقاء الأحداث التأريخية. فذاكرة الجماعة تكون دائماً بحاجة لسبب يجعل حدثاً ما بعينه هو الراسخ في ذاكرتها دوناً عن سواه. ولو أننا بحثنا في التأريخ الإسلامي لوجدنا بأن معظمه تأريخ مذهبي، أي أنه معبأ مذهبياً، وهذ يشير لطبيعة اليد التي تولت كتابة أحداثه. التأريخ الشيعي شيعي بامتياز والسني كذلك، التأريخ السني يتجاهل مآثر رجالات الشيعة ولا يسجل حسنات الطائفة الشيعية، والحكم نفسه يصدق على التأريخ المقابل، والمشكلة تتعقد عندما يتم الانتقاء بأثر رجعي، بمعنى أن تذهب الذات المذهبية للتأريخ السابق على ظهورها فتشطب من سجلاته جميع الأحداث التي لا تتلاءم مع حاجاتها أو ميولها.

إذن التأريخ ليس أكثر من تعبير مباشر عن مرض مزمن تعانيه البشرية، التأريخ يأخذ وقوده من الحاضر والحاضر فقط، صحيح أنه سجل لتتالي الأحداث المهمة عبر الزمن. لكن هذه الأحداث المسجّلة لا تكفي وحدها لتبرير كل القتل الذي حصل بالعراق بسبب العنف الطائفي. وعندما نقول ان العداء المذهبي بين الشيعة والسنة ناشئ من التأريخ، من دون أن نلاحظ خصوصية الانتقاء الاجتماعي لأحداث التأريخ. فإننا نخطئ بتشخيص المرض الحقيقي. فكل المبررات المتعلقة بتأريخ الخلاف بين المذهبين والتي تسيل كما اللعاب من على ألسنة المتحاربين من كلا الطرفين ما هي إلا أعراض مرض (اجتماعي/ بشري) مزمن. عليه فهذا الذي وقف على المنصة وهتف بذلك البيت لم يكن الامتداد الصارخ والصريح لعلي ابن أبي طالب، أبداً، فعلياً انتهى من موضوع الخلافة برمته. والملف التأريخي لهذا الموضوع أغلق – بالنسبة للتأريخ – بعد

موت على وعمر. على، بالتأكيد ليس بحاجة ليعتبر كل هذا الزمن فقط من أجل أن يصرخ بوجه عمر ابن الخطاب، وهو لم يقرر أن ينام التاريخ كله ليستيقظ بساعة من نهار قائظ مطالبا بإرثه.. أبدا، ولا عمر باق كل هذا الامتداد الزمني.

الذاكرة الجماعية بحاجة لمحددات ترسم من خلالها ذاتها، والتأريخ أحد أهم المحددات التي تنفع بتمييز الجماعة وإعطائها طبيعتها النهائية، لذلك هي تعمد لانتقاء الاحداث التي تؤكد خصوصيتها فتثبتها وللأحداث التي تنفي هذه الخصوصية فتلغيها، التأثير متبادل إذن بين التأريخ والملامح الخاصّة بالجماعة.

ثالثا: نرجسية الجماعة

من أجل أن ينجح الكيان الاجتماعي بعملية احتضان مجموعة الأفراد المنتمين إليه ويشبع حاجاتهم يتوجب عليه أن يميز الحدود التي ترسم شخصيته الاجتماعية، إذ لا بد من وجود جملة من المحددات تسهل للكيان معرفة المنتمين إليه من غيرهم، وهذه المحددات تتوزع بين كونها اجتماعية(3) أو تأريخية(4). وكأن الكيان الاجتماعي عندما يمارس عملية تشخيص محددات شخصيته المعنوية يجيب عن أسئلة معينة مثل: من نحن، لماذا نحن، كيف نحن...الخ؟

وفي الوقت الذي تكون فيه الجماعة مشغولة برسم ملامحها فإنها وبصورة غير مباشرة تكون قد أفرزت المختلف عنها. وهكذا وعندما تجيب الجماعة الشيعية عن الأسئلة السالفة، فإنها ستقول في الجواب عن سؤال: من نحن، بالآتي:

نحن جماعة عربية مسلمة تتعبد وفق مذهب الإمام جعفر الصادق.

من هنا تكون الجماعة قد أفرزت كل من لا يتبع هذا المذهب من المسلمين، ثم كل من لا يتبع الإسلام من العرب، ثم كل من ليس عربياً. وبالمقابل احتفظت بأبواب مشرعة للاشتراك الجزئي مع الهويات الأخرى، فهناك مشترك إسلامي مع كل مسلمي العالم، ومشترك عربي مع كل عربي من غير المسلمين، ومشترك مذهبي مع كل من ليس بعربي من أتباع المذهب الجعفري.

بالتأكيد فإن الذات وهي ترسم ملامحها غير معنية بعملية إقصاء الآخر. لكنها تسميه آخر وتعتبره مختلفا، ومن ثم فإنها تنتج التراث الخاص بها انطلاقا من إختلافها، بمعنى أنها تريد – وهي ترسم ملامحها – أن تقسّم التأريخ الى طرفين: التأريخ الخاص بـ(نحن) من جهة، والتأريخ الخاص بـ(هم) من جهة أخرى. وهكذا يكون التأريخ ضحية من ضحايا الحاضر وليس العكس(5).

عندما ينشطر المجتمع الواحد الى شطرين فإن بذرة التنافس بينهما تكون قد بذرت، وهذه البذرة تبقى رهن تطورات الأحداث التي يمكن لها أن تجعل التنافس بين الشطرين تنافسا شرسا، حيث يصبح من الصعب عند ذاك جمع المجتمع على غاية واحدة. وهذا ما حصل في العراق، بعد التغيير، فبعد سقوط نظام صدام أصبح سوال الحكم مشاعا لدرجة كبيرة، من سيحكم العراق، وهذا السوال كان كفيلا بأن يطلق عنان التنافس الاجتماعي من أسارة، هذا التنافس أيقظ النائم من تأريخ الصراع حول الحكم بين الطرفين، منذ احداث السقيفة وحتى سقوط صدام. بالتأكيد كان يمكن لأحداث التغيير أن لا توقظ النائم التأريخي، فهذه الأحداث لم تأت بسبب ثورة شيعية على الحكم السني، بل بسبب المصالح الأمريكية. لكن مصالح الجماعة شاءت أن يتم تعبئة التأريخ "تم استدعاء أحداثه لذاكرة الجماعة. وهكذا انقسم المجتمع الى شريحتين كبيرتين، وبالنتيجة صارت الأحداث لا تقرأ قراءات بريئة بل تقرأ من منطلقات تمييزية. فعندما يتبنى الشيعة موقفا اتجاه قضية ما يصبح لزاماً على الجماعة السنية أن تقف موقفا معارضا منه. والعكس صحيح. هذا ما حصل بالنسبة للموقف من حل الجيش، واجتثاث البعث ومجلس الحكم والحكومة المؤقتة والانتقالية والتصويت على الدستور والانتخابات....الخ.

رابعاً: حرب العراقيين على وطنهم

إذن كانت الحرب على العراق في حقيقتها حرب عراقية عراقية، ومتن هذه الحرب كان عبارة عن أمراض اجتماعية. أما التأريخ فكان بالنسبة لها هامشا فقط. والتأريخ بالنسبة للحرب الاجتماعية لا يكون أكثر من مبرر تحتج به على تساولات الضمير المشاكس بين ظهرانيها. صحيح أن الحرب أمريكية في أصلها،

وصحيح أن أمريكا بادرت إلى خوض غمار مغامرة لم تحسب حسابها بشكل دقيق وكاف. لكن النيران التي أكلت آلاف العراقيين لم يشعلها الأمريكان، بل العراقيون. والعراقيون وحدهم من قرروا أن يجعلوها حرباً ضروساً، ومن أول مفخخة انفجرت في مدينة النجف كان القرار عراقيا والتنفيذ أيضاً عراقيا، ومهما كانت الأيدي الأجنبية والأقليمية حاضرة فإن حضورها لا يبرئ ساحة العراقيين، الذي أشركوا حتى الغرباء بدماء بعضهم البعض.

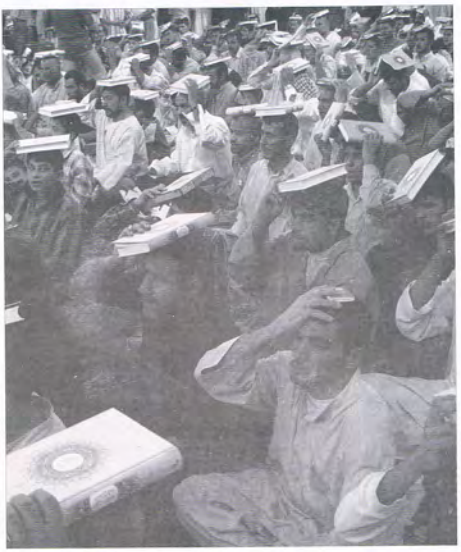

لا أعتقد بأن الحرب على العراق بحاجة لأن نقرأ باعتبارها أمريكية عراقية، بل باعتبارها عراقية عراقية. فهذه الحرب كشفت النقاب عن الحرب الباردة التي كانت تأكل من كلا الطرفين خلال تأريخ كامل وممتد. وأعود للتأكيد بأن التأريخ لا يجب أن يعتبر هو المسؤول عن تلك الحرب، بل انقسام المجتمع لذاتين، هو المسؤول، ومن الطبيعي أن هذا الانقسام يتأسس على مبررات وقواعد كثيرة يشكل التأريخ أهم ركائزها لكن لا يكون هو المسؤول الوحيد عنها.

التأريخ لم يقرر شكل الصراع وحجمه ولا حتى نوعه، بل الجماعة هي التي فعلت، الجماعة أيضاً هي التي قررت أن تستدعي إرثها التأريخي لتوظفه في سبيل صراعها مع المختلف. وعندما قررت الجماعة إن المنافسة يجب أن تكون شرسة وجدت إنها بحاجة لمبررات وشرعية، وهذا الأمر حدا بها لإستدعاء التأريخ والدين والتراث، وكل ما يمكنها من جعل التنافس غير الشريف شريفاً. لكن كيف تمت عمليات الاستدعاء والشرعنة؟

كان هناك قطبان في حرب العراقيين على وطنهم، قطب من القادة تولوا عملية التجييش والتعبئة والتسليح، وتولوا بالتأكيد عملية تأويل الممارسات وتفسير القرارات والمواقف، هذان القطبان كلاهما مسؤول من جهته عن تعبئة التأريخ، وكلاهما مسؤول من جهته عن

استيراد العبوات والأحزمة الناسفة والمفخخات من دول الجوار. كان التأريخ بريئاً من حرب العراقيين على وطنهم طوال الفترة التي كانت فيها الحرب بين محتل أمريكي من جهة، وعراقي يعيش تناقض الاستفادة من الاحتلال ومقاومته، من جهة أخرى. كان هذا هو الحال حتى تدخل أقطاب المعارضة وقادة الكتل والكيانات، وعندها فقط اشترك التأريخ بالجريمة، وعندما تم توظيفه تحول الى فيل شرس يدوس على أجساد العراقيين في حرب لا يعرف هو أسبابها ولا يستطيع أن يقيم نتائجها، فقيل المعارك الذي يدهس أجساد المقاتلين لا يعد مشتركاً بجريمة قتلهم.

لقد وثق علي الوردي تأريخ الصراع الاجتماعي بين الشيعة والسنة في العراق، على صفحات كتابه المعروف (لمحات اجتماعية من تأريخ العراق المعاصر). هذا الصراع الذي وجد مبررات كثيرة، كما أنه وجد دعماً كافياً له، وعلى امتداد تأريخه، من دول الجوار. وبالتأكيد هو يتحمل مسؤولية كبيرة عن فتح الباب واسعاً أمام التدخل الأجنبي في شؤون العراق الداخلية، فسنة العراق كانوا دائماً ــ بحسب علي الوردي ــ مع تدخلات الدولة العثمانية، وشيعته كانوا دائماً مع تدخلات الدولة الصفوية. وهذه الدعوى وجدت صداها الأن عندما استورد الشيعة والسنة المعونة على بعضهم البعض من امتداداتهم الطائفية.

كان أقطاب المعارضة وقادة الكتل من كلا طرفي النزاع (الشيعة والسنة) يتولون عملية تفسير الأفعال والمواقف، وبالتالي كانوا ينوبون عن الجماهير بعملية اتخاذ القرارات الخاصة بسلوكها. أو بعبارة أخرى كانوا يتولون بصورة مباشرة وفعلية عملية توجيه الرأي العام العراقي وتوجيه السلوكيات العامة اتجاهات لم تزد الكثير منها لغير مصلحة أعداء الشعب العراقي.

حتى اليوم الذي تمت فيه عملية تفجير قبة سامراء لم يكن الشيعة قد تعبوا بشكل كاف لمقاتلة السنة، وحتى ذلك الوقت كان قادة المكون السني في العراق قد أوغلوا بتجييش أبناء طائفتهم ضد المكون الشيعي، كان الخطاب تحريضياً بشكل لافت وكانت المواقف تفسر بتطرف غير قابل للفهم، وقد دخل هذه الحرب ومنذ لحظاتها الأولى الإعلام العربي الموجه، والذي حاول بصورة مباشرة أن يكرس العداء بين الكيانات الاجتماعية ويبرر انشقاقها.

في يوم تفجيرات سامراء دخلتُ مدينة الصدر عصراً، وبوهلة أتأكد لي أن تلك التفجيرات نجحت بتشكيل انعطافة حادة جداً في تأريخ العراق الحديث، فقد كان الشباب المدججون بالسلاح يملؤون أحواض السيارات ويهتفون بغضب وهم لا يلوون على شيء، غير الثأر لذاتهم المنتهكة.

وبدا على الموقف ومنذ لحظاته الأولى أنه غير قابل للإحاطة، وهكذا انطلق مسلسل التصفيات الجسدية، وكرد فعل على عمليات تفخيخ السيارات والأحزمة الناسفة تشكلت في الجبهة الشيعية جماعات أقل ما يقال عنها أنها شرسة ودموية، وراحت تبحث بشكل مسعور عن كل من يمكن أن تلصق به تهمة كافية لقتله، وبالتأكيد شكلت هذه العملية فرصة مناسبة لعمليات التسليب والسرقة لتستغل الموقف وتضفي على فعلياتها اللصوصية، شرعية كافية تنقذها من أي مساءلة اجتماعية أو قانونية.

خامساً: طبيعة الصراع (اجتماعي/ سياسي)

تحول الصراع من كونه سياسيا إلى كونه اجتماعيا قلب معادلة الدولة العراقية رأساً على عقب، فقد استولى على عملية التحكم بمقاليد الأمور الصعاليك من الناس، وصار المد جماهيريا والفعل جماهيريا، والإعلام جماهيريا، وكان من نتائج هذا التحول أن رضخ السياسي أمام الجماهيري. وصار من الطبيعي أن تتغير الأيديولوجيات بل وتنقلب معادلاتها، فصار قائد الحزب العلماني يرجع بقراراته للديني. ثم وصل الحد أن وجدت عمليات القتل على الهوية مبرراتها السياسية، عندما تجرأ السياسي على احتضان الجماعات المسلحة أولاً، وعلى حمايتها ثانيا وعلى الدفاع عنها بصراحة من خلال وسائل الإعلام ثالثاً. وهكذا اتخذ تشابك الأحداث وتعقدها صيغة تصاعدية حتى وصل الأمر أن وجد القائد السياسي نفسه مفلساً إزاء (القائد) الجماهيري، فهذا الأخير لديه قوة مسلحة، ولديه قاعدة شعبية ولديه مرجعية سياسية ولديه امتداد إقليمي. أما السياسي فقد وجد نفسه محاصراً من كل هذه الجهات.

بالتأكيد فإن أزمة السياسي هذه بدأت بسببه هو. وكانت بداياتها الفعلية يوم حاول قادة المكونات السياسية والدينية العراقيين استثمار من يمكن تسميتهم بالطبقات

المسحوقة من الشعب، ففي بداية التغيير كانت هذه الطبقات محايدة إزاء الكثير من المواقف، وكانت طموحاتها لا تتعدى انتظار الفرصة المناسبة لجني ثمار التغيير. لكن هذه الطبقات تم استدراجها شيئاً فشيئاً. وكانت عمليات تجييش هذه الجماهير المسحوقة تتم ـ في كثير من الأحيان ـ بصورة غير مباشرة وتحت شعارات شتى. لكن غلب على معظمها استخدام ما يمكن تسميته بالـ(تخويف الموجه) كآلية لتجييش الجماهير. فكانت عمليات إثارة مخاوف الناس على أشدها. تخويفهم على الوطن وتخويفهم على المذهب وتخويفهم على الهوية، والتخويف من إسرائيل ومن السعودية ومن إيران وسوريا و..و..و..الخ. صحيح أن سوريا تورطت، وإيران والسعودية وحتى المخابرات الإسرائيلية كانت قد ركبت ومنذ وقت مبكر حصان الجيش الأمريكي ودخلت إلى العراق. لكن ما يحدث على الواقع من هذه الأشياء شيء، والعمليات ـ التي بدا على الكثير منها أنها مدروسة ـ التي استهدفت استثمار هذا الذي يقع على الواقع لإخافة الجمهور شيء آخر. أن يدخل المقاتلون العرب عن طريق الحدود السورية، وبمباركة الحكومة السورية شيء. وأن يصار إلى التهويل من شأن الشراكة الواقعة بين الحكومة السورية والعرب السنة العراقيين في عملية إدخال المقاتلين العرب واحتضانهم، شيء آخر.

عمليات تخويف الشيعة العرب من المكون السني العربي كانت مضللة إذ أوحى لهم بأن هذا الكيان يعد العدة لاجتثاثهم من أصولهم ويمكن اعتبار أن هذه الفعاليات أخطر ما أدى بالعراق نحو هاوية الحرب الأهلية. كما أن العمليات التي استهدفت تخويف السنة العراقيين من أن عملية بيع العراق لإيران تتم بمباركت كل الشيعة العراقيين، هي الأخرى كانت موغلة بالخطورة(6).

في حرب استثمار الجماهير المسحوقة كان القادة الشيعة أكثر حذراً وروية، إذ أنهم لم يستخدموا الإعلام بشكل فج ومكشوف كما فعل القادة السنة، القادة الشيعة لم يتهموا المكون السني بالعمالة بشكل مؤلم كما فعل القادة السنة وهم يصفون الشيعة، كل الشيعة، بأنهم صفويون إيرانيون. من جهة أخرى فإن القادة الشيعة ـ والذين جعلتهم ظروف التغيير يتعاملون مع الأحداث بمنطق الحكومة ـ أحسنوا استخدام لغة الدفاع. بالمقابل فإن القادة السنة ـ والذين دفعتهم ظروف التغيير للعمل بمنطق المعارضة ـ لم يحسنوا استخدام لغة الهجوم. بل هناك من القادة السنة من حمل كل بضاعته على جمال قافلة القاعدة، واختار خطابها التحريضي العنيف مما جعله يصطف بصف الإرهاب ويصبح تحت طائلة القوانين التي تطارده. وهذا سلوك ارتجالي لا يليق بقادة مرحلة يعملون وفق استراتيجيات يجب أن تكون مدروسة وطويلة الأمد.

سادساً: أكاذيب القديسين

عندما يدعي إنسان ما بأنه قديس، فهذا يعني انه كاذب أكثر مما يعني انه بلا ذنوب. وهذا ما كان ولم يزل

يحصل بالنسبة لقديسيينا، وهم يصفون الحرب في العراق بجميع الصفات باستثناء صفتها الطائفية. مع أن الطائفية هي صفتها الأبرز. إن الإقرار بالصفة الطائفية يوقع الجميع بدائرة المؤامرة ويلطخهم بأقذار الجريمة، الجريمة المنظمة والموجهة ضد الشعب الأعزل.

بدأت الحرب في العراق طائفية، وستبقى لوقت طويل كذلك. لكنها ستعود حرباً باردة، كما كانت عليه في سابق عهدها الطويل. حربنا على بعضنا طائفية وقادتنا الذين أوقدوا نيرانها كلهم طائفيون، وليس هناك أدل على طائفيتهم من نكرانهم لهذه الطائفية وبراءتهم منها، مع إن كل خطاباتهم وخطواتهم وسياساتهم طائفية.

بدأت الحرب الطائفية بالمفخخات، تلك التي تفجرت بين الشباب والأطفال والنساء والتي كانت طائفية، فهي أبداً لم تستهدف الأمريكان إلا بشكل خجول ومخجل. إذن الجهد الحربي الأكبر الموجه من قبل العراقيين كان يستهدف العراقيين، لا الأمريكان، وكان هذا الجهد سنيا بشكل واضح وجلي وصريح، وكان يستهدف الشيعة بلا مواربة. وهذا الجهد وجد دعمه من قبل الساسة السنة وعلماء الدين السنة والعمق العربي السني.

بمقابل هذا الجهد وكرد فعل عليه جاءت عمليات التصفية على الهوية التي شنها شيعة العراق على سنته، ولو إن هذا الجهد الدموي الذي إتهم آلاف العراقيين توجه للأمريكان لما بقي هؤلاء ساعة من نهار في العراق. إذن الجهد الحربي الشيعي الأكبر توجه هو الآخر توجهات طائفية. صحيح أن الجرائم بدأت سنية، وصحيح أن المكون الشيعي بقي لفترة طويلة ساكتاً عن انتهاكات أخوته وهدرهم لدمائه بشكل غير معقول. غير إن ذلك لا يلغي بشاعة ردة الفعل وطائفيتها. ففي نهاية المطاف لم يأت رد الفعل ليحاسب الجناة فقط، بل شمل الجميع، وهذا ما جعله رد فعل طائفي وليس مجرد رد فعل.

حربنا الطائفية ضد بعضنا البعض توشك أن تضع أوزارها ونحن مخيرون بين أن ننهيها بصورة جذرية وحقيقية، وبين أن نغطي عليها فقط ونعيدها باردة كما كان حالها فيما مضى. أعتقد أن تركنا للنفاق واعترافنا بالطائفية سبيل من مجموعة سبل يمكننا أن ننهي نزاعنا الطائفي. إذ الاعتراف بالخطأ يمهد السبيل لتحمل مسؤولية التكفير عنه.

الهوامش

1 – عندما تكون القاجعة كبيرة لهذه الدرجة، يتوجب على عقل المحلل أن يخلي الساحة لقلم السارد، فقلم السارد وحده من يستطيع أن يصف القاجعة بلا رتوش أو أكاذيب.

2 – من الواضح أن الشاعر يتحدث بلسان الشيعة وهو يقصد بأنهم أخذوا الحكم ولن يتركوه بعد الآن. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال جوهري هو: ما الذي جعل الشاعر الشعبي يقول هذا البيت؟

3 – كل ما تختص به الجماعة دوناً عن الجماعات الأخرى هو مميز من مميزاتها، والأمثلة على ذلك كثيرة، حتى الملابس تتحول لمميز، فمثلاً ملابس رجال الدين الشيعة تختلف عن ملابس رجال الدين السنة، والملابس الشعبية الخاصة بأهل الأنبار تختلف عن مثيلاتها الخاصة بأهل النجف، عن تلك الخاصة بأهل نينوى وهكذا. الأمر ذاته ينسحب على العلاقات وأنماط السلوك واللهجة.. الخ.

4 – أي تأريخ الجماعة الذي هو تعبير مباشر عن عمليات الانتقاء التي تمارسها الجماعة بحق الأحداث الماضية.

5 – الأحكام هنا ليست أطلاقية بالتأكيد.

6 – لا بد من الإشارة هنا إلى أن عمليات التفجير اليومية والتي كانت تطال جميع المدن الشيعية في بغداد والتي استمرت من جهة واحدة طوال الفترة من أحداث التفجير وحتى أحداث سامراء، كانت تعطي الإيحاء الكافي للشيعة بأن السنة يستهدفون هويتهم الطائفية، خاصة مع الأخذ بنظر الاعتبار تقاعس المؤسسة الدينية السنية عن الإفتاء بحرمة استهداف الشيعة. بمعنى أن مخاوف الشيعة من السنة كانت مبررة على أرض الواقع أكثر من مخاوف السنة من الشيعة، فهذه الأخيرة لم تجد مبررها إلا بعد أحداث سامراء التي بدأت في شباط 2006.

"ما يستعصي على التنظير، ينبغي سرده"

أمبيرتو إيكو

قرابين عراقية

جمال العميدي

أ/

مشاهد الكارثة تأبى أن تفارق خيالي.

13كيساً من الأشلاء البشرية: رؤوس وأطراف ولحوم وعظام لعدد من الضحايا مجهولي الهوية، سقطوا في الاعتداءات الإرهابية بمائة وسبعون قتيلا، وأكثر من خمسمائة جريح، كي يكتمل المشهد.

برود المتقرّح سيّد الموقف، وقافلة الموتى تضمّ إليها كل يوم اسماً جديداً.

ب/

طغيان، وكراهية، وتعصّب...

هي ذي القيم الثلاث التي قرّرت التحكّم بمصير العراقيين الآن. إنها القيم التي تتحرهم ــ كل يوم ــ على مذبحها المقدّس، أضاحي للعدالة والديمقراطية والحرية... أكباش فداء لقيم ثلاث مزعومة أخرى... قيم ثلاث تحصنّهم ــ كلهم ــ على أن يكونوا "جماعات خائفة ."

ج

/طغيان، وكراهية، وتعصّب...

هي ذي الرّوافد الثلاثة التي تغذّي نهر الجنون العظيم... الجنون الذي يُراد له أن يسمهر على العالم!!

[1]

اليوم هو الثلاثاء، الثاني من شباط/فبراير 2004، الموافق للعاشر من شهر محرّم. الساعة هي الثامنة والربع صباحاً.

أكمل – الآن – قراءة الكلمة التي ألقتها سوزان سونتاغ في كنيسة روثكو، بمدينة هيوستن – ولاية تكساس الأميركية، في الثالثين من آذار/مارس 2003. الكلمة بعنوان: عن الشجاعة والمقاومة.

يدعوني بعضهم – قبل انتهائي بقليل – إلى زيارة كربلاء، وحضور مراسيم إحياء تراجيديا العاشر من المحرّم.

أضع سونتاغ والشجاعة والمقاومة جانباً، وألبّي الدعوة.

[2]

الطريق إلى كربلاء يمرّ بالجماعات التي تُوفي بنذورها، لتوفر الماء والطعام للزوّار. عشرات الآلاف منهم يشتركون في طقس المسير إلى "الغاضرية"، وهم يردّدون "المستهلّات" والقصائد الحسينية، ويحملون الرايات المزركشة التي تعلن عن انتماءاتهم. العلم العراقي مرفوع بين الأوية... لا أجد، الآن، تفسيراً مقنعاً لذلك!

كنت أفكّر، حينذاك، بهذه الجموع البشرية الهائلة. ترى ما الذي يدفعها إلى ذلك؟!

الذاكرة... التشوّق الشيعي للتكفير عن الذنب التأريخي... الحب والولاء أم استعراض القوة؟! لكن ما لم يدُر في خلدي، هو أنني سأكون شاهداً على إحدى مجازر القرن الحادي والعشرين، التي لا يبدو أنها ستتوقف عند هذا الحد.

تفصلنا ساعتان – فقط – عن عودة "حرائق نينوى" من جديد. ساعة الصفر – إذن – ليست بعيدة...

ويدوي انفجار هائل يخدش هدأة الكريستال...

[3]

في كلمتها: عن الشجاعة والمقاومة، تدين سونتاغ الطغيان الأميركي والإسرائيلي. في كلمتها تعدّ العدّة لهذه المجازفة: مجازفة إدانة الطغيان. تعدّ العدّة – كما هي حال إدوارد سعيد، ونوم تشومسكي وسواهم – للعقوبة وللعزل وللازدراء. تعدُّ العدّة لأن تُجرح، أو تُقتل، أو، تمزّق. في كلمتها تختار سونتاغ المجازفة... المجازفة في أن تعلن انتماءها إلى أوسكار أرنولفو روميرو: رئيس أساقفة مدينة سان سلفادور، وإلى راشيل كوري: الشابة ذات الـ (23) ربيعاً، بسترتها البرتقالية المخطّطة التي تشعّ بالفلوريسنت. الأول قُتل وهو يرتدي مسوحه الدينية، بينما كان يتلو قدّاساً في الكاتدرائية، لأنه دافع عن قيمة السلام العادل والشامل، وعارض – علناً – قوى العنف والاضطهاد. والثانية مزّق جسدها المالنكي بلدوزر إسرائيلي في رفح، وهي تحاول أن تعيقه عن تهديم بيت أحد الأطباء الفلسطينيين:

"نحن لحم... يمكن أن نُثقب بحرية... أن نُمزّق مزقاً على يد انتحاري... يمكن أن نُسحق ببلدوزر. أن يُطلق الرصاص علينا في كاتدرائية، فنُسحق".

(سوزان سونتاغ)

إنها – إذن – تختار المقاومة بشجاعة من أجل السلام، في بلد لا يجلب فيه هذا الحديث، لها و لأمثالها، إلا السخرية والشتيمة وتهمة اللاوطنية. وإننا – بعد ذلك – ضحايا هذا الطغيان الذي تقاومه سونتاغ. إننا ضحايا طغيان أعمى كان همّه الأكبر أن يقنع الشعبين الأميركي والبريطاني بشرعية حرب استباقية تشن – وينبغي لها أن تشن – بأيّ ثمن... حرب تثبت للعالم سيادة أميركا عليه، من غير أيّة أهمية للتفكير في توفير معطيات دقيقة وواضحة، تخصّ الطبيعة المعقّدة للعراق، ومن غير وضع واضح للخطوات الكفيلة بالحيلولة من دون أن تتحول بلاد الرافدين إلى ساحة جديدة للإرهاب. هي ذي قوى الطغيان – إذن – تحصد زروعها فشلاً ذريعاً في كل صعيد، وها نحن نعيش – كل يوم – الطفح الجديد.

[4]

الذاكرة الشيعية تأريخ وجغرافيا...

إنها ابتكار مستمر لزمان ومكان: ابتكار مستمر لأزمنة تتصارع وتقاوم... لأمكنة تتأرجح بين الإسكات والصراخ... ابتكار مستمر لهوية تتعذب بين النفي

بالمكان: النجف ــ كربلاء ــ مشـــــهد ــ الكاظمية ــ سامراء...

إنها مدن... أفكار... تاريخ كامل. وهي ــ من جهة أخرى ــ أمكنة جغرافية معروفة ومحددة. لكنها تمارس قدراً كبيراً من السطوة، وتملك نمطاً مختلفاً من الرنين. إنها أمكنة وظيفية أكثر منها حقيقية. إنها رموز أريد لها أن تقف بوجه قسطة الجغرافيا، وتعلمهم إدراك سلطة المكان:

"الذاكرة الجمعية ليست شيئاً جامداً وسلبياً، بل هي حقل نشاط، يتم فيه انتقاء الأحداث الماضية وإعادة بنائها، والمحافظة عليها وتشكيلها وإفراغها في قالب سياسي".

إدوارد سعيد

الزمان والمكان الشيعيان، وبفعل الكراهية، كانا ــ دائماً ــ استعارة سياسية. هذه الكراهية قديمة، ولها وجوه وأقنعة أكثر من تلك التي يملكها نابو، إله الكتابة القديم. وهذه الكراهية ــ لذلك ــ تشرف اليوم على مذابح الكولسيوم العراقي، وتفتح أبوابها لقوى المسخ والإلغاء والتطرّف، كي ترتكب جرائمها في وطني.

نحن حمّام دماء... وهذي الكراهية تحتفل!!

[5]

هل تريد أن تصنع إرهابياً؟ الوصفة سهلة جداً:

ــ اهجمْ على عقائده ومقدّساته وسخّفها ــ مارسْ

الإثبات والتأريخ الشيعي هو ــ بعد ذلك كله ــ نتاج ثقافة الكراهية وإلغاء الآخر، نتاج الشيطنة والشيطنة المتبادلة، نتاج لنسبة المختلف إلى كل ما هو غير إنساني.

ثقافة الكراهية ــ إذن ــ أنتجت تاريخاً يقوم على ابتكار سرود طوال تقاوم القوى التي أرادت ــ دائماً ــ مسخها وإلغاءها. والجغرافيا الشيعية هي نتاج ثقافة الكراهية أيضاً. ثقافة الكراهية ــ إذن ــ أنتجت أحساساً عالياً

عليه سياسة التجهيل والإفقار.
ـ اجعلْ مستقبلَه ومستقبلَ أبنائه مجهولاً
ـ اقضِ على آماله في الرفاهية والعيش الرغيد ـ
حوِّلْ حياتَه إلى جحيم لا يُطاق ـ هذا أمْنُه.
ـ اجعلْ شبح الموت يحلِّقُ فوق رأسه، ويقف على عتبات بيته كل يوم وكل لحظة. سيترك الدنيا وينظر إلى الأخرة... سيشنّ حربه الانتقامية المقدّسة: حرب التعصّب، سيشنّ حربه التي ما إن تبدأ لن يستطيع أحد إيقافها.
ـ اخلقْ مريضاً، وسيحكُ كل جراثيمه إلى انتصارات عريضة ـ اصنعْ عدوّك وأعطه التكنولوجيا اللازمة، وانقلْ حربك إلى الخارج. نفّذْ هذه الوصية القديمة الرائعة، وسوف تسود العالم:
"إذا تعرّض أيّ منا لخلق حياته واستقراره: أن يحيا الأطفال في مساحة متضائلة، نعلم فيها ـ عن سابق تجربة ـ أن الجنود والدبّابات والجرّافات سيأتوننا في أيّ لحظة لتدمير مخازننا التي رعيناها لوقت طويل، وأنهم سيفعلون ذلك بينما البعض منا يضرب ويأسر، مع 149 شخصاً آخر ساعات عدّة. هل تعتقدين أننا لن نحاول استخدام وسائل عنيفة، نوعاً ما، لحماية الفتات التي بقيت لنا؟!). (راشيل كوري في رسالة إلى والدتها)

في 11 أيلول/سبتمبر جاء ردّ الفعل الغبيّ والبائس... والفجر شلال التعصّب الأعمى. شلال التعصّب الأعمى الذي انفجر بطول بلادي الآن.
شلال النار يحرق ويدمّر، يقتل ويمزّق، بلا أية استثناءات لكن التعصّب الأعمى الذي يريد أن يمحو كل شيء، وبلا رحمة، هو عدو افتراضي موسوم بـ MADE IN U.S.A

[6]

مشاهد الكارثة تأبى أن تفارق خيالي.
الجثث مُمزّقة تنتشر في الشارع، وقطع اللحم البشري منثورة حتى على الأبنية، وعلى مسافات بعيدة من موقع التفجيرات. قذائف مورتر، حقائب متفجّرة، أحزمة ناسفة يلفّها انتحاريون حول أجسادهم. الفرضيات متعدّدة والحقيقة الدامية واحدة.
كانت كربلاء حينها لا تعيش، كعادتها، طقساً سنوياً لإنعاش الذاكرة، بل تستعيد بشكل واقعي قاس ومروّع، تراجيديا العاشر من المحرّم. الحشود تُعيق عملية وصول المُسعفين، مثلما تُعيق محاولات نقل الشهداء والجرحى بعيداً عن موقع الحادث، باستعمال عربات الطماطم والقفّاه. المشاركون في إحياء الذكرى، في الجانب الآخر، يواصلون أداء طقوسهم وكأنّ شيئاً لم يحدث، من أجل أن "لا ينكسر العزاء"، في حين ينهال بعضهم بالضرب على أحدهم، لأنهم اعتقدوا أنه كان مسهماً في عملية التفجير، والشرطة تستنفد من الحشود بشقّ الأنفس. المحطات الفضائية تغطّي الكارثة نفسها من الكاظمية، مثلما غطّت بالأمس هجمات كردستان الإرهابية في صبيحة عيد الأضحى، وحملة الاغتيالات الإجرامية المتكرّرة التي تطول أئمة جوامع السنّة وعلماءهم، ودور عبادة المسيحيين والمندائيين والأيزيديين، هذا فضلاً عن تسليط أضوائها الخافتة على حملة شيطانية تستهدف العقول العراقية المفكّرة والمنتجة، من أجل الانقضاض على ما بقي للبلد من ثروة بشرية. الجرائم واحدة، وكل القرابين عراقية. لقد صار وطني وكرا للغالب، أو بلغة أخرى أكثر تقنية: "المختبر الجديد للإرهاب"، و"الساحة الرئيسة للإرهاب"، أو بلغتي أنا: أصبح العراق منطقة جذب مثالية للإرهاب، مما أفضى إلى أن تكون أميركا، ومع كل الاسيناريوهات الأمنية المتبعة، والتحليل الواسع المتعمّق لذهنية المتطرّفين، منطقة طرد للإرهاب.
إنه ثمن الخلاص من الديكتاتورية... وسأنتا كلوز الاتحاد المحافظ الأصولي الجديد يُخرج لنا من كيسه، كل يوم، سيارات مفخخة وقنابل موقوتة وألغام مزروعة، وقبل هذا وذاك: ديمقراطية بطعم الدم والبارود.

[7]

13 كيساً من الأشلاء البشرية: رؤوس وأطراف ولحوم وعظام تُعدد من الضحايا مجهولي الهوية سقطوا في الاعتداءات الإرهابية. مائة وسبعون شهيداً، وأكثر من خمسمائة جريح، كي يكتمل المشهد. برود المتفرّج سيّد الموقف، وقافلة الشهداء تضمّ إليها كل يوم اسماً جديداً..
ومشاهد الكارثة تأبى أن تفارق خيالي!

3 ـ 4 شباط/فبراير 2004

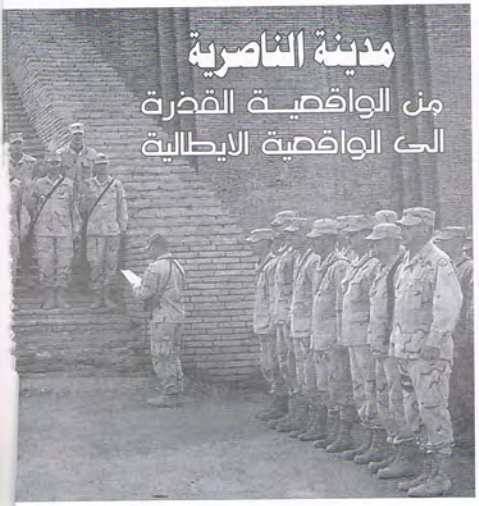

مدينة الناصرية
من الواقعية القذرة الى الواقعية الايطالية

وأنتَ تحاول ان تضع لنفسك مسافة ما، تفصلك حيناً عن دوامة الراهن الحياتي، سيبدو لك العام وما سبقه من أيام عراقية عصيبة حقلا مليئا بالتوقعات الفرحة والمفارقات المريرة والآلام الساخرة والفقدانات الموجعة. حياتنا كانت وما تزال نصا فريدا في مراوغة الذات لإشغالها عن سحب اليأس والانكسار والعدم.

احمد ناصر جهاد

دهشة الحرب

ربما لم يكن فعلا عقلانياً باي مقياس، سفري إلى بغداد وهي تعيش حينذاك احلك ظروفها واشد مغامراتها غموضا، لكن الطيش الذي يرجح إن اوصف به، خيّل لي انه لا يساوي شيئا امام ما يمكن لاي انسان تصور، حول ما ستجلبه هذه الحرب من ويلات ومآس محتملة قد تغيب رغما عنا صفا حميما من الأصدقاء والأحبة. بذلك الإحساس وحده بدت لي تلك السفرة الخاطفة لقراءة الناس والمكان والأصدقاء وتشبع هوانهم، وكأنها تجربة فريدة لقبول حزن مبكر، محتمل وفاصل .حتى الساعة ما زلت اشعر ان موعد عودتي من بغداد قبيل اندلاع الحرب الاخيرة بيومين فقط، ما

زال يوما قريبا جدا و استثنائيا. وكغيري من العراقيين المتابعين لتطورات الأزمة هجست ما سيحدث، وربما من بلاغة رسوخ هذا الاحساس حصرا، قررت الذهاب إلى بغداد للقاء الأصدقاء ومعاينة ما ستأخذه عجلة الحرب من اشيائنا العزيزة.. نظرة وداع اخيرة على المدينة التي تركنا فيها طيف مسرات وذكريات واحية لن تكون مستحيلة اذا بدت الاقدار حتمية هذه المرة ستكون ليلة الثلاثاء بالتأكيد موعد عودتي إلى مدينة الناصرية، وحربنا تلك شنت في ساعة متاخرة من منتصف ليلة 20 اذار 2003. وبالنسبة لمواطن عراقي ادمن متابعة الاخبار المتلاحقة لما سيؤول اليه غليان وطنه المحاصر بقلاع الدكتاتورية، ستكون غالبية من العراقيين نائمة بعيون مفتوحة تلك الليلة. لكني لم استطع النوم أبدا.. بانتظار ما سيحدث خلال ساعات معدودة .استرخى الجسد النحيف مخاتلا انقباض النفس القلقة بانتظار حلول المعجزة.

لوهلة، تناهت إلينا أولى أصوات الحرب بوقع خفيف، بعيد نسبيا، ليتصاعد عزفها الجنوني رغما عن اغفاءة المدينة وشخير نهرها الذابل. سيهرع الجسد بما يشبه قفزة عصلاقة لمتسابق طموح رهن حياته بفوز مستحيل. لا اعرف بالضبط كنه احساسي آنذاك، وان أمسكت من التباسه المكين خيط فرح حذر وقلقا حبيسا .إنها الحرب الفاصلة. وهذا صباحها الأول.. الغريب والموحش.

كائنات خرافية بلون رمادي

بضعة ايام انقضت، وزال إلى حد ما حمل الانتظار الثقيل .أطاحت واقعية الحرب الامريكية بقسوة المجهول العراقي، فيما تسيدت حوادثها المتسارعة المشهد الحياتي كله. بات المستحيل واقعا يوميا مألوفا. ثرثرات متواصلة وتحليلات ونكات هي ما نداوي به نهارات الحرب الطويلة .نحن من كم افواه قلوبنا ليل القذائف المهولة وظلامها القاسي .صباح اخر يطل، ويتساءل الناس : هل كلنا احياء ما زلنا ؟ يبدو ان الحدث الجسيم لن يمر من دون خسائر باهظة غير متوقعة. فذاك جارنا (ابو جواد) العسكري العتيق المتقاعد لم يكن في حسبانه ابدا ان رصاصة متوحشة ستخلع كتفه بعد ثوان من اطلاقة نصف جسده المتغضن من باب البيت وهو يهم ليرى بدافع الفضول وحده ما الذي يزلزل الارض حول منزله.

سقط الرجل بسرعة الكترونية تستعصي على الوصف. لوحدها العائلة سحبت جسد الاب الى داخل البيت ليغلق الباب العراقي مفجوعا بالواقعية القذرة لتلك الحرب، وبمرور الوقت تحدث المصاب كثيرا امام زواره عن مهارة القناص الذي اصطاده من دون ان يلمح وجهه حتى. كان الجريح سعيدا بعدم مماته وهو يشير الى خرافة الحرب الدائرة فيما يسهب بالحماس نفسه في توصيف حجم الطلقة التي اخترقت كتفه بلمح البصر مستذكرا خلال حديثه حكايا الحروب القاسية كلها التي خاضها تحت امرة الجيش العراقي .كانت المدينة حولنا تحتضر يوميا وهي تبصر أطرافها المقطوعة مشلولة مدماة، وبيوضها البشرية مرمية نيا

على طرقاتها بسكون ابدي .من المألوف القول ان الحس الجمعي في اوقات عصيبة كهذه يصبح دواء مجانيا يسيرا لرتق اغتراب الذات عن فداحة قبول واقعها المؤلم، فيضمد الجار جراح جاره، محاولا بايمان أليف استيعاب هول الواقعة .وفي الهواء الملوث ايضا يتفشى وباء الاسرار الكبيرة للناس عما يأملونه من هذه الحرب وما راهنوا عليه .ليس بعيدا استشفاف ان ثمة سعادة طاغية، حبيسة، تلف ارواحنا التي ما انفكت تتشد حياة افضل قد تأتي بها جيوش الغرب المجلجلة. لكن رؤية الجنود الغرباء كانت الرغبة الاعقد للجميع. قوافل مارينز امريكية بعجلات حديثة تتجول في مدينة الناصرية ؟ اية مزحة ثقيلة هذه !وكما الافلام الامريكية التي يحبها معظم العراقيين بدا هؤلاء الجنود بزيّ الرمادية الانيقة وكأنهم كائنات نزلت من سماء غريبة. ثلة جنود يقتحمون المدينة الخربة من جميع مداخلها، ويتحركون في مرمى البصر غير مكترثين لاحد. هكذا بدا التطويق العنيف للمدينة المحاصرة بوقع مدرعاتهم السريعة التي حرثت آثارها المعدنية خيالات الناس بعصا القدرة الكونية لامريكا كانت الناصرية، مثل سائر المدن العراقية، كرة سائبة في مرماهم الحصين، تنتظر ضربة اللاعب الاكثر مهارة.

كيف سيكون التفاهم يا ترى – يتساءل احدهم – إذا اعتبرنا ان ليس ثمة لغة متاحة يمكن لها ان تقرّب المسافة الخرافية لدهشة بادية بين هؤلاء الجنود وعامة الناس الذين – يوما ما – استغرب صحفي غربي من منظر ملابسهم الفلكلورية كان دافع الفضول لدى الطرفين عنيفا، لا يقاوم، حينها. وسنرى لاحقا ان الحال استتب نسبيا، واخذ الأمريكيون يتجولون في الشوارع بسحناتهم الوردية اللامعة تحت لهيب اشعة الشمس

السومرية، بعد ان استقر الوضع العسكري وبدا ان السلطة القديمة قد انهارت بالكامل، لتبدأ رحلة تلاقح وتصادم المفاهيم والأخلاقيات والمظاهر بأشكال متباينة في درجتها ونتائجها، لكنها تنسج بمهارة ملحوظة حكايات طريفة ذات مغزى .لاحقا ستتوالى الحكايات والأمال يوما تلو الاخر في اطلالة نادرة على الخرافي والواقعي والمدهش، وتتجدد في الغضون رغبة الوصول الى الحيوات الشائقة لابطال الواقعية القذرة .من يدري؟ ربما ستكون حياة ما بعد الحرب بخفة نهايات افلام هوليوود السعيدة.
هل تكون ؟

بقايا قصص دنيوية

اشياء جديدة ستدخل قاموس الحياة العراقية وبمعيتها على الدوام فذلكات ولذائذ واحتيالات وتمنيات واوهام جديدة ايضا .ثمة مترجم عراقي متوسط العمر توقع ان من اليسير له مضاجعة المجندة الامريكية الشقراء التي يعمل معها، طالما انه يؤيد التغيير الحاصل في البلاد ويقدم خدماته لقوات التحالف ! حاول بداية تقبيلها في فسحة انفراد لحظية، وبفعل حدة الصدمة الحضارية للعاشقين كاد ان ينتهي به الحال مطرودا بعد تلقيه صفعة من يد المجندة الحسناء انطبعت على سمار خده الخشن .لم يفكر ذاك المترجم الطموح، كما يُتوقع، بقراءة تراث الاستشراق لاعادة فهم صلة الشرق بالغرب، كما لم تعترف تلك المجندة بخطيئتها خلف شباك الاعتراف الكنسي، ولن تكون مضطرة لذلك.
ليس بعيدا عن فضول افواه الرواة ، قيل ان فتى مراهقا اجتهد كثيرا في مواصلة حلمه بالسفر الى امريكا اذا ما اقنع مجندة صغيرة – شقراء ايضا – بحبه المجنون لها. كان الفتى مواظبا على لقائها كل يوم قرب مبنى

المصرف الحكومي الذي كلفت هي بحمايته مع جنود اخرين. قال المراهق لاحدهم : هل تصدق انها قبلتني بقوة على شفتي واستسلم خصرها اللدن بين يدي هاتين ؟ وبحسرة ملحوظة يضيف قائلا : كانت فتاة صغيرة ذات ملامح ناعمة، تفعل ما تشاء من دون حياء، ربما لانها تشبه وينونا رايدر ؟ يا الهي.. لو انها تؤمن بولعي الدفين وتتقبلني بصدق مرة واحدة، ربما اكون امريكيا مثلها .في صباح احد الايام، حضر صاحبنا مسرعا، مرتديا كعادته بنطلونه الجنيز وقميصه الاسود المزخرف بعبارات انكليزية، تصور منذ البداية ان لهما تأثيرا ساحرا على قلب حبيبته التي بشكل مباغت كانت قد انتقلت مع رفاقها الى موقع أخر، قبل ان يبلغها بعزمه الزواج منها. وروي ايضا ان الفتى واظب لفترة طويلة على ارتداء زيه المزخرف على امل ان يجد فتاة بديلة يواصل معها حلمه الامريكي ! للحكايات مسارات غريبة كما الحرب ، تتفنن في تمرير جو من التقاطعات والتجاذبات الانسانية بين المدينة وزواها الجدد.

شباب روما وحمى السباكتي

توقفت الحرب بقرار رسمي معلن، مع ان الحرب الفعلية رفضت ان تتوقف. وبمرور الوقت انسحبت القوات الامريكية الى اقاصي المدينة، لتعسكر هناك متوارية حيث لا يطالها احد .اختار الامريكيون التمسك بلغتهم المتعالية والمكوث في الاقاصي بجوار شواخص

الحضارة السومرية ليشيدوا مملكتهم الكونكريتية الجديدة. بالنسبة لعالم اثار ، سيكون المشهد فنتازيا الى حد كبير وهو يمزج بقسوة فذة بين الكتل الصلدة العملاقة ورخاوة شواخص مدينة اور الهرمة .لكن المهم ان ندينا زوارا جددا الأن. ورثة امجاد اوروبا القديمة ، مثلما درجت تعريفات التأريخ المدرسية، يدخلون المدينة من ابواب عدة. انهم الطليان. جنود انيقون ببزات مختلفة ووسامة مشعة يلفها الهدوء الواثق. رشحت من التجربة فكرة ان الطليان اناس يبدون اشد مرحا من الامريكيين واكثر انزعاجا من مهمات هذه الحرب الطويلة .حاولوا مرارا مد جسور التواصل مع ابناء المدينة ورجالاتها فاصطدموا بمساوئ لم يكونوا يتوقعونها من أحفاد سلالة اورنمو العظيمة. صحافيون وخبراء واكاديميون ورؤساء منظمات وهيئات دولية توافدوا عبر هذه السنوات لرؤية المدينة التي لم يحظ بابا الفاتيكان ذاته بفرصة زيارتها عشية حلول الالفية، وهو ما لم يمنع اندفاع الطليان لمسح الارض السومرية بشبق حضاري يهيم بروائح الماضي، حتى وان لم يجدوا اثرا لامجاد الاسلاف في فوضى الحاضر وترديه المهول والمتسارع بر غم غرابتها سيعتاد البعض على الاسماء الجديدة، الثقيلة على مسامعهم: فرانشيسكو تيرانو، بوريني، فيماسو، ايلامبا، فيسكونتي، ولم يكن الاخير مخرجا سينمائيا كما تمنى البعض. وبذات الاستثقال الاجباري ستبدو اسماء العراقيين الفاظا محرفة هي الاخرى بايقاع صوتي محبب ينم عن رغبة الغرباء بفهم الحياة الغامضة حولهم، فك أسرارها ، وارتياد خفاياها عبر بوابة الاسماء الصعبة على النطق : علي، رزاق، عبد الحسين، جواد، عبد الامير ، تحسين ، جبار ، عباس، شناوة .كانت العشرة اللغوية هذه - مثلما وصفها احدهم - تتجلى باوضح صورها في وجبات الغداء في مطعم المعسكر الإيطالي مبتكا Mittica Camp حيث يصطف الجميع من مختلف الجنسيات في طابور طويل ومنظم : عمال، حرفيون، سواق شاحنات، جنود، ضباط برتب صغيرة وكبيرة، نساء ورجال، الكل يسير ببطء متوجها الى بوفيه كبير مفتوح تستقر عليه عشرات الاطباق الايطالية الشهية بروائحها الفواحة. اطباق ايطالية محببة او منفرة، وجدل يتمطى لا ينتهي حول مستوى جودتها وصنوفها، لكن الحكم بالحقيقة فيه يتراوح بين اعتماد مذاق الطبق او مذاق صاحبه. وفي النهاية يجمع الخبراء الميدانيون ان قلوب الغالبية كانت منجذبة لسحر الباستا الإيطالية، بصورها واشكالها المختلفة، خاصة مع استعادة مشهد اولئك الذين ما ينفكون في الظهيرة القاسية يعبون بطونهم بهذه الوجبة السريعة وكأنهم يتذوقونها للمرة الاخيرة، فيما تساعد خفة الملاعق البلاستيكة اليد الجائعة على التعجيل بانهاء وجبة السباكتي والتوجه صوب خيمة المشروبات،البـاردة والساخنة: القهوة الإيطالية مرصوفة إلى جوار قناني البيرة والكوكولا وشراب عصير الفواكه، لكنها تفترق عن الاخريات برائحتها النفاذة التي حفزت الرجل للنظر الى نفسه باحترام

بوصفه احد جنود الواقعية الايطالية، بناسها البسطاء، لكن الاسطوريين .ماذا تعني ايطاليا من دون السباكيتي وصوفيا لورين ؟ تساءل محمود السائق وهو يدس في فمه الهرم لقمة كبيرة من خيوط السباكيتي تركت اطرافها الثعبانية اللينة سابحة في فضاء حناصر ، نظرات الاخرين المزدرية .ذهل البعض للوهلة الاولى لرؤية هؤلاء الجنود الراجلين الذين يشبهون نجوم السينما وهم يرتدون قلائد غريبة متنوعة تزين اعناقهم ويضعون حليا من الذهب والفضة واساور جميلة على معاصمهم البيضاء، فيبدون بقصات شعورهم الحديثة صورة جذابة هي ابعد ما تكون عن الاقناع بكونهم مقاتلين حقيقيين بالنسبة لمواطن عراقي عشعشت في مخيلته صورة الرداءة المهينة لجنود الدكتاتور المهيب .

خطينة مونيكا بلوتشي

بمرور الوقت وبفعل وتيرة الاعتياد والاحتكاك اليومي تجسرت بين البشر صلات انسانية كافحت للاستمرار معافاة بر غم عديد الخصومات الكامنة في طرفي اللقاء،الأهالي والمحاربين، ناهيك عن شهوة المصالح التي يمكن ان تنشأ بين طرفين يخططان للافادة من حركة الاشياء لتعزيز مواقفهما وتوحيد خطابيهما حول الواقع نفسه. سيخلق هذا المعطى المتغير حقائق غريبة على الأرض تشي بزيف الادعاءات الفارغة وتوحد الجمع المتصارع في حلبة تخادم المصالح المعلنة والخفية، وبكل الطرق المجربة والمبتكرة .ان اشخاصا حاذقين من النوع الوافر، هم وحدهم من يستطيعون المزاوجة بين عناصر متباينة، متقنين سبل الافادة من كل الفرص، تحقيق بعض الرغبات المكبوتة. صديقنا ابن الناصرية الوديع ربما يضحك في سره لواقعة نشوء سوق شعبي لبيع البضائع الرخيصة أسميته سوق التحالف، تختلط على رصيفه المتواضع حمى اكتشاء عالم جذاب غير مكتشف و الثأر المبطن من كل ما هو محلي، مثلما يتأمل مغزى ان يقيم رهبان الكنيسة

الايطالية حظهم الديني الكبير اواخر العام 2004 على درجات سلم الزقورة السومرية في مشهد تأريخي نادر. لكن ما يثير قلب صاحبنا المرهف هو ما سمعه وتأكد منه لاحقا من ان الجندي المدعو فابريسيو هو قريب حميم للممثلة مونيكا بلوتشي كان يخدم كجندي مع بقية الطليان في مدينة الناصرية، مقاتل غير ملحوظ، يتفاخر عند الحاجة بصورها الجذابة امام زملائه حتى وان جعل منه ادعاءه الساذج هذا مستودعا للسخرية التي تلامس الشرف الشرقي القديم لرجل فلورنسي يخجل قلبه لرؤية عهر مونيكا بلوتشي على الشاشة، وكأن مشاعره الحزينة تتقزم امام فتنتها الداعرة. الم يلمح يوما لاعز اصدقائه بكرهه الدفين لقوله مالينا، فهو بسببه لا يقوى باي حال على طرد مونيكا المغرية من خياله حينما يختلي بنفسه؟ ويسأل العراقي صاحبه الإيطالي في غمرة سرديانه

-لماذا لا تتوسط مونيكا لدى البابا من اجل عودتك الى ديارك ؟

-لا ادري، ربما يسر البابا انك تحبها أيضا.. يجيب الآخر.

المزابل وسحر التراث المجيد

عبر نافذة الاستقرار الظاهر للمدينة كانت ثمة فسحة كافية لعقد صداقات سريعة مع جيوش الغرب الوافدة أو هكذا خيل للبعض بتكرار فرص اللقاء والحديث المتناوب عن شؤون الحياة وهمومها وتحريك مديات الاهتمام المتبادل. وقد ينحرف المسار قليلا صوب التقاتل والتحريض وخلق الفوضى في مدينة لا حكمة لها، يتقاتل بعض سعاتها شحنة اخبار اخرى وخيالات حسية مكبوتة عن عشاق ومجانين ومغامرين يتهتكون في حفلات ليلية تختلط فيها الاجناس وتغيب عنها الفوارق وتزال بها الحدود في مجون عبثي يجسد الميل الباطن لمدن تعيش لحظاتها الحاسمة تحت سماء طغيان التأريخ. مآدب فاخرة وحفلات طقسية غير مسموعة ستشكل تنوعا مثيرا ومحفزا لغزاة مهووسين بكشف أسرار الولوج إلى بلاد ألف ليلة وليلة وتشرب جبروت سحرها الخالد وفي الاندفاعات غير المطروقة للذات سيشعر اولئك الزوار بافاعيل الحنين الى الارض والوطن ونتسمع نحن يوما ما الانفاس البهيجة للاصدقاء الذين يعبرون بنبل سعيهم ومعارفهم حواجز الخرائط وشطآن الهويات ايما كانت ومهما تشابكت اصولها لينهلوا من اسفار الانسانية ويمسحوا بإرادة الحياة فصل التائهين والمنفيين في اصقاع شتى، يوسعهم اخيرا ركوب السفينة نفسها للدخول بأمان وكرامة الى ربيع المدن الشرقية الحكيمة التي تفتح ذراعيها بسلام لكل المحبين والسائرين الى ضفاف انهارها العالية.

هذه بعض سرود المدينة والناس التي لا تسر احدا في هول استباحة اخضرار الشجر ووداعة الطير... وتلك هي نصوص حيواتها التي لا تقود إلا إلى تلال المزابل العظيمة وقد اتت بلادتها على سحر التراث المجيد، ورؤى الاولين.

قطرات مطر خفيف

عن الغرباء وفيهم تتسع الاقاويل والاساطير في هذه المدينة وسواها، فتضيع الوقائع وتشتبك الأصول في ظلال اغبرة الحروب المتواصلة، لذر مرارا رياح المديح تشكك بنوايا رياح الذم، وتعاود الكلمات المتسهلكة حربها ضد مسالك التبصر، فيما ينسى الجميع معنى الهاوية وفزع الفراغ الموحش من غياب الوردة.

قد يستمر الرجل ذاته مستشهدا لوقت ما بحكاية من اقسم انه رأى بأم عينيه كيف اخفى ذلك الجندي الصغير ما بدا انه حجارة رافدينية ثمينة، خلال جولة روتينية لحماية المكان الاثري الشاسع، ولم يسعفه قسمه المجاني في تطمين السامع لحكايته او استبعاد اياد مألوفة تمتد خفية وعلنا لكل ما هو مقدس، وقد فقد الناس مرارا في غمرة البحث عن جنائن السلطة والمال مبالاتهم بالوطن والانسان والحضارة .تلك الحضارة الملهمة، النبع، الاسطورة، المجد، التاريخ، شموس الآلهة، الحكمة الساطعة.. لن تكون صماء في ابديتها لو انها استطاعت يوما توريث قيمها في ارحام الامهات الجائعات اللواتي ما انفكن يذرفن دموعهن لرحيل الابناء السائرين من دون وداع صوب السماء الأخيرة ..في ارض الأنبياء والأولياء تذرف الأمهات الدموع الماسية .

*****

وقد سأم مصائر سردياته، قال الرجل متمنيا الخلاص : (من ترفيه الحواس الى جز الاعناق، تتخاطف مرايا الذهول العراقي وجغرافيته).

في صيف 2003 انطلق بي الباص المزدحم من منطقة الكاظمية إلى الحرية. كان الباص مزدحماً والشوارع كذلك. دخان أسود يحوم في كل مكان، كذلك طائرات التحالف. دبابات على مفترق الطرق، جنود التحالف يتجولون أيضا، أصوات انفجارات بين حين وآخر، ضجيج وصراخ هنا وهناك، الشمس الحارقة تأكل ما تبقى من الشحوم في الجسد. على الرغم من هذا المنظر السريالي يضع سائق الباص شريط كاسيت في المسجل ويترك الأغاني الرومانسية تحلق في وسط هذا الخراب. كنت أقف بالقرب من باب الصعود وأراقب هذا السائق الذي ظهر لي وكأنه الطير الخاطئ في سرب بغداد وسرب الحرب الخفية في عراق ما بعد 2003. رومانسي ويدندن مع الأغاني وسط هذا الخراب؟ من أين جاء بهذه القدرة الخرافية؟ سألت نفسي وأنا أتابع هذا المنظر الهائل. لكن في لحظة تغيّر المنظر بأكمله.

هوامش أولية في الرومانسية السياسية والثقافية قبل وبعد نيسان 2003

عباس خضر

سائق سيارة أجرة يدخل بطريقة عرضية أمام الباص، ما أدى بالباص إلى أن يصعد على الرصيف ويتوقف. لم يحدث أي شيء يذكر لأي من الركاب سوى الفزع الذي دبّ في القلوب. لكن الفزع الأكبر جاء بعدها. وجه السائق الرومانسي تحول إلى وجه مخيف بسرعة البرق. أغلق المسجل بضربة قوية. سحب مسدساً كان مخفياً تحت مقعده ثم فتح باب السيارة وخرج إلى سائق سيارة الأجرة الذي خرج من سيارته ووقف خائفاً في مكانه. السائق الرومانسي بدأ بالسب والشتم ولم يترك الأم والعشيرة وحتى الربّ بحاله ثم ضرب سائق سيارة الأجرة بقدمه وأرداه على الأرض، ثم أطلق أكثر من خمس رصاصات على سيارة الأجرة، عاد إلى السائق المرمي على الأرض وركله أكثر من مرة وشتمه بما

لذا وطاب من فنون الشتائم. بعدها مضى مثل ديك رومي و صعد إلى البالص، شغل المحرك، فتح المسجل، جاء صوت فيروز : 'حبيتك في الصيف...' وأخذ صاحبنا يغني.

لليوم و أنا أسأل نفسي، كيف نحلل شخصية هذا الرومانسي العراقي؟ لماذا لم تقلع الأغاني العاطفية أن تصلح العنف الذي يختبئ فيه؟ ولماذا كان لديه كاسيت أغان عاطفية وبالوقت نفسه مسدس تحت مقعده؟ ولماذا تحول فجأة من رومانسي إلى وحش بلمح البصر؟ إن الجواب على مثل هذا السؤال يحتاج في تصوري إلى تفرغ مؤسساتي وليس إلى تفرغ فرد لدراسته ومعرفة الخلل الاجتماعي العميق في طبيعة الفرد العراقي. إن الماثل الرومانسي العنيف هو مجرد نموذج بسيط للسياسي والمثقف العراقي نفسه. كثيراً ما تصورت أن السياسي العراقي هو أكثر سياسي العالم رومانسية وبالوقت نفسه الأكثر عنفا. ولا يختلف الأمر مع فئة الكتاب والأدباء الذين نجد أغلبهم يتحدث بعشق عن مختلف القضايا ولكنه لا يتردد أن يقف بالوقت نفسه وراء الحرب أو وراء تصفية طائفة أخرى. تأريخ الكتابة في زمن البعث وما بعده شاهداً ما زال حيا في الواقع العراقي. لنعترف أولاً، أن السياسي العراقي فشل منذ بدء الدولة العراقية الحديثة وإلى هذه اللحظة التأريخية في مشاريعه بميناً ويساراً. أسباب فشله كثيرة ولا رغبة لي هنا أن أعرض تأريخ الانقلابات في العراق أو تأريخ التجمعات والتحالفات الحزبية الفاشلة أو المنتهية بأنهار من الدماء ولا تأريخ القمع السياسي في العراق وما أطوله. ولنتعرف ثانياً، أن المثقف العراقي كان يسير منذ بدء الدولة العراقية الحديثة وحتى اليوم مع مقولات السياسي ومصالحه، أي يغني على هوى السياسي وجمهوره مهما كان لونه خاكياً أو ملتحياً أو بربطة عنق. ولنعترف ثالثاً، أن المثقف والسياسي العراقي لم ينظرا أو يؤسسا لمقولات إنسانية عامة في الشارع العراقي، إنما لمقولات تحددها طبيعة الجمهور المسيس ومقولاته. أي كسب الجمهور المسيس على حساب المقولة الإنسانية. هذا ما فعلته الأحزاب اليسارية واليمينية ومثقفوها على السواء. الجمهور المسيس كان هو دائماً الهم الأساسي، حتى لو أفتقد هذا الجمهور للمقولة الإنسانية. ولأقل بصراحة كسب القطيع. ولنعترف ثالثاً، أن السائق الرومانسي هو عينة يومية للواقع الرومانسي العنيف داخل المجتمع العراقي، الذي اسهمت في تكوينه القوى السياسية والثقافية معرفياً أو فعلياً.

بعد 2003 كان لإقصاء العنف وتغيير مسار العراق عن المسار المتعارف عليه هو أهم المهمات العراقية في زمن ما بعد الدكتاتورية، ولكن لم ينظر إلى هذه الموضوعة سياسيا وثقافيا بشكل جدي وانعكست على الواقع العراقي مرة أخرى بشاعة لا تصدق. القتل على الهوية أصبح هو العنوان الرئيس للرومانسية السياسية العراقية السنية والشيعية والكردية. لقد فشلت التجربة العراقية الديمقراطية في وجهتها العميقة ونجحت سطحياً، والسبب يعود كذلك (إلى جانب أسباب عديدة أخرى) للسياسي والمثقف العراقي ورومانسيته العنيفة. ولهذا لم استغرب عندما قرأت لشاعر عراقي قصيدة يمدح فيها سيف علي ابن أبي طالب 'مرثية سيف علي' وكأن العراق بحاجة لسيف آخر ولمزيد من الدم. ولم أستغرب عندما قرأت قصيدة رومانسية بحب العراق ومواجهة الاحتلال لساسي مهدي وهو الذي وقف برومانسية خلف عسكر البعث وأجج الحروب بحباً لا يصدق. ولم أستغرب عندما استمعت إلى وزير ثقافة عراقي وهو يقول انه 'أنا أتبع سياسية حرق السفن' بعد أن أقيل من منصبه. وكذلك إلى برلماني أقيل من منصبه، وهو يقول' سنحرقها ونطرد الاحتلال' ولم أسمع أو أقرأ أي رد على هذا البرلماني مثل: 'أطرد يا أخي الاحتلال لكن لماذا الحرق؟' صحف تمجد هذه الطائفة وتذم الأخرى. فضائيات تلعب الدور الصحفي إياه بجدارة. الكل بلا استثناء يحب العراق برومانسية لا تصدق ومن خلال الرومانسية هذه يجد مبرراً لتصفية الآخر. الجيش العراقي يعود مرة أخرى وهذه المرة كذلك بأغان تلفازية عسكرية مشابهة لأغنية 'يا حوم أتبع لو جربنا' في زمن الحرب العراقية الإيرانية. لقد أطلقت اليد علانية لحركات إسلامية شيعية وسنية بتحطيم وتفجير محلات بيع الشرائط الموسيقية وكذلك صالونات الحلاقة باعتبارها 'مظاهر غير إسلامية' ولا تصلح لعراق رومانسي في مخيلة عشاقه. وغيرها من أمثلة هذه العنف بدأت في منذ عام 2003 كثيرة. جماعات سنية تصفي جماعات شيعية باسم حب الوطن. وأخرى شيعية تصفي سنية بحب الوطن. يا لهذا الوطن المعشوق من الجميع! أقدره أن يتقاتل

محبوه ويقتل بعضهم الأخر عشقاً فيه؟ الأمر في حقيقته يتجاوز مرحلة العشق ويدخل في مصالح أخرى وظروف سياسية ودولية لا مجال لذكرها. لكن الرومانسية العراقية ما زالت شاهداً كما قلت. لا أريد أن أكثر من الأمثلة هنا عن عراق ما بعد 2003. فهي ما زالت تحوم في البيوت العراقية وشوارع البلاد طولا بعرض. أمثلة مخيفة ولا تبشر إلا بخراب لا يصدق وسببه رومانسي! السؤال الأهم: هل انتهى زمن الدكتاتورية؟ وهل أستطاع العراق الجديد، أن يجد الطريق إلى السلام الروحي أولاً؟ الجواب من وجهة نظري: لا. لكن الباب ما زالت مفتوحة لتغيير حقيقي. وأظنه تغييراً ثقافياً بالدرجة الأولى وليس تغييراً سياسياً. لكن متى؟ هذا ما لا أستطيع التنبؤ به.

قبل الحرب

لم يكن يحلم أو يتخيل أي عراقي يوماً أن يتغير نظام الحكم في العراق في ليلة وضحاها، ولم يكن يحلم أو يتخيل أن يكون هذا التغيير عن طريق الولايات المتحدة الأميركية. هذه الدولة التي كان يتصورها العراقيون دائما، وكانوا على يقين كذلك، بأن وجود الدكتاتور في العراق كان يشكل أحد أهم أركان مصالحها في المنطقة، تحركه كلما شاءت، لكي تثبت للحكومات الخليجية أن وجودها في المنطقة مهماً لإيقاف هذا الوحش القادم من العراق. لكن أحداث 11 سبتمبر غيرت ليس فقط السياسة الأميركية الخارجية إنما خارطة الكرة الأرض وخلايا البشر وجيناتهم. فجأة تعلن أميركا أن مصالحها القومية تدعو إلى تغيير نظام الحكم في العراق. لقد وقع هذا الخبر على العراقيين كالصاعقة. لم يكن هناك من يمكنه أن يتصور أو يتخيل للحظة أن الدكتاتور الذي ظهر في الشعور الشعبي العراقي وكأنه أزليا وأبدياً يمكن أن تكون نهايته قريبة. في الوقت نفسه كان الرعب من حرب أخرى محتملة يدب في مسامات الكثير من العراقيين. مع هذا الحدث أصبح العالم بأكمله فجأة يتحدث عن بشاعة النظام العراقي، عن انتفاضة 1991، عن السجون والمعتقلات والأنفال وغيرها، هذه المعلومات الإخبارية التي كانت شبه مفقودة في الإعلام العالمي. فجأة تحول صدام إلى غول في نظر العالم، هذا الدكتاتور الذي كان العراقيون في المنفى يؤلفون الكتب

والمجلدات في بشاعة نظامه ولا أحد يستمع لهم أو يصدق ما يقولونه. إنها ـ كما يبدو ـ عصا أميركا السحرية التي فتحت الأبواب أمام العالم ليشاهد ما حدث ولكن بعد أكثر من عقد من الزمان! في أوروبا لم يسمع الشارع الشعبي مثلاً بانتفاضة 1991 إلا قبل حرب 2003، عندما بدأت القنوات التلفازية فجأة بعرض وثائق مصورة عن ذلك العام وتلك الانتفاضة. كم غريب أمر هذا العالم، كنت أقول في نفسي يومها وأنا أتابع في التلفاز الألماني الأفلام والبرامج الوثائقية التي تدون مرحلة الجريمة البعثية في العراق. لكن هذا هو عالمنا. كلما قرر صاحب الماكنة الإعلامية الكبيرة في العالم (الولايات المتحدة) أن يعرض للعالم صورة ما سيئة أو حسنة عن دولة أو نظام ما يتبعها العالم بأسره، فيتغير كل شيء في ليلة وضحاها. في ألمانيا كان العراقيون يتصارعون بين مؤيد للحرب ورافض لها. كل هذا كان يدور في المقاهي أو في النوادي العربية المنتشرة في المدن الألمانية. في كل جلسة في الملتقى الثقافي العراقي في مدينة ميونيخ، حيث كنت أسكن يومها، كان ينتهي لقاء الجالية العراقية بخلاف وأحيانا بالكلمات والضرب بالكراسي. أتذكر أن البروفسور العراقي عصام الخفاجي كان مرة أحد المدعوين للحديث عن مستقبل العراق بعد الدكتاتورية في هذا النادي الثقافي. الرجل لم يكن متفائلا يومها وتحدث عن مشاكل مستقبلية عويصة، سببها الدكتاتورية ومؤثرات الحروب. ربع الحاضرين تركوا المحاضرة وخرجوا غاضبين، وهم يقولون، هذا الرجل مجنون ولا يتمنى الخير للعراقيين. هكذا كانت هي الأمور يومها. الكثيرون كانوا يتصورون أن هذه الحرب ستنهي على تأريخ البشاعة في العراق. كانت هذه الحرب أشبه بحرب مقدسة عند بعض العراقيين. لا شيء في حياتنا غير خير الحرب وموقفنا منه، موقفنا الذي كان حربيا بكل ما للكلمة من معنى. لقد كان يتصارع الجميع، في الصحافة والإعلام كذلك، العربي أو الغربي، حوارات كثيرة تجمع بين مثقفين عراقيين وآخرين من مختلف الدول الغربية. التلفاز الغربي حاله حال العربي لا شغل شاغل له سوى الحرب. بين مؤيد للحرب وبين رافض. لقد انقسمت الأرض. العراقيون المنفيون قاطبة كانوا يعيشون حيرة حقيقية. انقسموا إلى قسمين. الأول مع سقوط النظام البعثي، أي مع الحرب، والآخر مع النظام البعثي، أي ضد الحرب. هكذا كانت الثنائية الغرائبية تشكل نفسها من دون رغبة الجميع. لم يكن الموقف الذي أتخذه البعض برفض الحرب ورفض الدكتاتور معا إلا مجرد أصوات هامشية في وسط دوي الحرب. الروائي العراقي (ح.) أصبح يحتسي كل ليلة زجاجة نبيذ ويتصل بي ليحدثني عن هواجسه. أحيانا كان يسرد لي تأريخ منفاه الطويل الذي استمر 25 عاما. حفظت تأريخه وحكايته خلال تلك الفترة عن ظهر غيب. وحفظ هو الآخر تأريخي. كل واحد منا كان يبحث عن مهرب في الآخر عبر الهاتف، أي بالضبط شحاذ يشحذ من شحاذ. بعد كل مكالمة كنا ننتهي بخلاف في وجهات النظر. لماذا؟ ببساطة لأنه كان يظن، أن الحرب ستكون سببا لسقوط النظام، وهذا كان يعني عودته للعراق بعد سنوات طوال في المنفى، أي أن يحقق حلم عمره الوحيد وهو العودة إلى شوارع مدينته الحلم. بالنسبة لي كنت أرغب من كل قلبي أن أشاهد سقوط النظام البعثي ولكن كان هذا لا يعني أنني كنت أوافق على الحرب. فهذه كانت وظلت بالنسبة لي وحشية لا تغتفر. عموما ربما لأني هجرت العراق منتصف التسعينيات، أي عشت حربين وانتفاضة وحصار وأعرف بالضبط ما معنى كل هذا وما معنى بشاعته. ما معنى أن يقتل أحدنا الآخر. أما صديقي الروائي فكان ممن هاجروا العراق نهاية السبعينيات، أي ما زال يحلم بعراق ما قبل الحروب ومجتمع ما قبل الحروب وشتان ما بين الاثنين، ما بين قبل 1980 وما بعدها! كان يظن أن أميركا لديها مصباح علاء الدين الذي سيعيد الزمن إلى الوراء، إلى ما قبل الدكتاتورية، متناسياً أن كل دكتاتوريات العالم تركت وراءها خرابا طويل الأمد، ولا أقصد خراب الأبنية إنما النفوس. في وسط هذا الصخب الإنساني تصدر مجلة الثقافة الجديدة في المنفى عام 2002 عدداً خاصاً بعنوان "مثقفون ومواقف، الأزمة العراقية، السلطة والحرب" والعدد هو استطلاع لآراء المثقفين العراقيين حول موضوعة الحرب والسلطة. لقد أشترك في العدد 25 كاتبا عراقيا، أغلبهم من الأجيال القديمة، أي بالأصح من الجيل اليساري العراقي. في تصوري أن هذا العدد يصور لنا مدى الحيرة التي كان يعيشها المثقف العراقي المنفي يومها. أغلب كتاب هذا الملف كانوا يرفضون الحرب والدكتاتور معا. لكن هنا سأقدم نموذجا لكاتب (ا.) من

هذا الملف، وهو من النماذج التي نجد مثلها من الملف نفسه ومن غيرة بكثرة. (إ.) كتب يومها: "تعد القوى الإمبريالية نفسها للقدوم إلى المنطقة ... لكي تستبدل عملاءها المباشرين وغير المباشرين، فمتى وأين ظهر رئيس عربي لم يصل إلى كرسيه من دون علم وموافقة ومساعدة المخابرات الإمبريالية الصهيونية؟" هذا الكاتب الذي كان موقفه رافضاً للحرب، مضى بالضبط بعد أشهر قليلة من كتابة مقاله هذا مع القوات الأميركية، مع "القوى الإمبريالية" حسب تعبيره، إلى العراق كمستشار لهذه القوات! ما سر هذا التحول المريع؟ وما سبب أن يكتب هذا الكاتب اليساري مثل هذا الكلام ثم يغيّر مساره في ليلة وضحاها؟ الجواب ليس سهلاً حتماً. ولو نظرنا إلى موقف الحزب الشيوعي الذي ينتمي إليه هذا الكاتب فكرياً، لوجدنا الجواب ليس بمنتهى السهولة كذلك. هذا الحزب كان رافضاً للحرب منذ البدء ورافضاً للدكتاتور كذلك ولكن بعد الحرب البرية وعندما قررت الولايات المتحدة تشكيل مجلس الحكم كان أحد المتصادر عين على مقعد في هذا المجلس. فهل تغيرات هذا المثقف كانت وفق تغيرات هذا الحزب، وفق هوى السياسي ومتطلباته؟ أما أن هناك ما هو بين السطور، ما هو أعظم؟ ما أريد أن أشير له، أن الموقف من الحرب بالرفض أو الموافقة لم يكن بالأمر البسيط والسهل كما قد يتصور البعض. الخلط كان كبيراً فكرياً وشعورياً. الأمر لم يكن مقتصراً على العراقيين فقط. إنما تعدى ذلك إلى اليسار العالمي عموماً. في ألمانيا وبعد تظاهرة نظمها اليسار الألماني، تقام أحدى الحوارات مع بعض اليساريين الألمان في وسط مدينة ميونيخ وعلى الهواء الطلق. كان الجمهور يومها غفيراً. قام أحد المشتركين بعرض الدور الأميركي في العراق منذ الحرب الباردة وإلى ما قبل حرب 2003 وكان المشتركون ينظرون له بفرح عارم، فهو جمهور يساري عموماً، وعندما تحول من أميركا لنقد صدام والبعث ونظامه قامت أحدى النسوة من الجمهور قائلة ما معناه (حتى لو كان البعث نظاماً قمعياً يجب أن ندافع عنه لأنه يقف الآن في وجه أميركا)... مثل هذه الآراء تسيطر للأسف على العقل اليساري العالمي. المهم هو أن يقف "القائد" في وجه أمريكا حتى لو حرق أو قتل شعبه بأكمله، فهو بموقفه المعلن عنه هذا قد تحول إلى بطل في العقل اليساري! هذا الصخب كان خارج الأراضي العراقية. داخل العراق كان الموقف رسمياً واضحاً. "الموت لأميركا" هو العنوان الرئيس وكل الصحافة العراقية عليها أن تروج لهذا الشعار. المثقفون العراقيون داخل أسوار العراق لم يكن لديهم أي خيار غير الخيار الرسمي. أما في أعماقهم وأعماق أغلب العراقيين فالمسألة مختلفة شكلاً ومضموناً. الشعب العراقي عامة كان يعيش في سجن كبير، ويعيش الويلات

الرحمة، إضافة إلى جوع الحصار وذله. كان شعباً شحاذاً أعمى، لا يفكر بأهمية من يضع درهما في يده، أميركا أو جزر الكناري أو موزنبيق. الكثيرون كانوا ينظرون لهذه الحرب على أنها الأمل الوحيد بإنقاذهم مما هم فيه. أو كما قال لي أحد الأدباء عبر الهاتف(س.م.) قبل بدء الحرب بأيام قليلة لقد خسرنا الملايين بسبب الحروب والإعدامات والانتفاضات والسجون و.و.و.. الآن لنخسر مليوناً وبعدها لنستريح!

استغربت لجرأته، فمن كان يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام في الهاتف ومن بغداد نفسها قبل هذا التأريخ؟ لكن صديقي هذا كان يتكلم حسب تصوره عن بشر وليس عن نعاج، ولكنه كان يتصور أن هذا هو الحل، ولم يفكر للحظة بأن تكون عائلته ضمن هذا المليون مثلاً! لقد كانت مرحلة اضطراب فكري وشعوري حقيقي، أدى بالبعض إلى ارتباكات لا تحصى. هنا قد يقول القارئ: ماذا يريد هذا الكاتب بتذكيرنا بما نحاول نسيانه؟ هذه ليست محاولة للتذكير بقدر ما هي محاولة في الفهم. أشعر لليوم بأني أعيش في حيرة حقيقية وعدم القدرة على إنكار مواقف الاثنين معاً، فلا أنكر موقف أولئك الذين فرحوا للقرار الأميركي بإسقاط النظام لأنهم نسوا الجزء الثاني وهو القتل والدمار. ولا أنكر على الذين رفضوا الحرب ونسوا الجزء الثاني وهو الدكتاتور ودماره في البلاد. ولا أنظر للذين رفضوا الاثنين على أنهم قدموا شيئاً يذكر. اللهم فقط راحة البال والشعور بعدم المشاركة فكرياً وشعورياً بإتمام الخراب. من كان مع الحرب كان لديه مشروعاً واضحاً، وهو إسقاط النظام وتشكيل نظام جديد تحت الوصاية الأميركية. من كان ضد الحرب لم يكن لديه أي مشروع واضح، وحتى المؤتمرات المعلنة يومها تحت وصايا دول أوروبية كمؤتمر "تشكيل حكومة إنقاذ وطني" وغيرها، مرت عابرة ولم يسمع بها إلا القلة القليلة. الثالث لم يكن لديه أي مشروع أطلاقاً، سوى انتظار اللحظة التأريخية للتغيير. كل واحد من هؤلاء كانت لديه أسباب مقنعة. من كان يوافق على الحرب، كان يقول، إن الجيران العرب لم يسمحوا عبر تأريخ الدكتاتورية في العراق بتشكيل قوى عراقية على أراضيها، يمكنها أن تسعى للتغيير. المعارضة أغلبها كانت تعيش خارج العالم العربي عموماً، إلا البعض في إيران وعمان وسوريا والكويت وكل هؤلاء كانت تحددهم ضرورات الدولة المضيفة والتي لم تكن تسمح بأي عمل معارض مباشر عبر أراضيها إلى داخل العراق. من كان ضد الحرب، كان يحلم بمشروع تغيير يعتمد على موافقة دولية وبقيادة دولية وليس أميركية تودي لإسقاط النظام وترك الأمر للعراقيين فيما بعد وهذا كان أشبه بمقطع من فيلم من أفلام الخيال العلمي في سياسة دولية قائمة أصلاً على منطق العلاقات التجارية والمصالح القومية. الجزء الذي كان يرفض الاثنين كان أقرب للحالم منه إلى البرجماتي، لا برنامج واضح سوى الرغبة بإنهاء الدكتاتور ولكن بلا حرب تقودها دول خارجية، إنما عبر التحولات الداخلية التي تودي لمثل هكذا تغيير. معادلات عويصة حيرت الكثيرين وجعلتهم يشكون بصحة المنطق الأرسطي وكل منطق محتمل. برغم ذلك كانت الحرب قائمة، برفض أو بموافقة. السياسي العراقي المعارض كان موقفه واضحاً من قضية الحرب. أغلبهم كان مع الحرب، والتعليل الوحيد هو "لا نستطيع أن نغير النظام بأيدينا، لم لا نترك الآخرين ليساعدونا"... والكثيرون كانوا يجدون في دول عديدة في العالم مثلاً لمثل تحولات كهذه كألمانيا مثلاً بعد الحرب العالمية الثانية. البعض الآخر قرر أن يتجه إلى دول أخرى أوروبية للحصول منها على دعم لتغيير لا تقوده أميركا. الثلة القليلة فررت فجأة أن تعود للعراق وتحاور الدكتاتور نفسه أو وزراءه للوصول إلى حل وانتهوا في نهاية المطاف إلى أن يتحولوا إلى أداة إعلامية للسلطة في العراق. الملتقى العراقي في الجانب الآخر لم يخرج كثيراً عن مسار السياسي. الكثيرون كانوا يرددون ويجدون المبررات للسياسي الذي ينتمون لحزبه أو اتجاهه الفكري، إلا القلة القليلة التي انتقدت الجميع وكانت وكأنها تحارب طواحين الهواء وأصبحت منفية في منفاها هذه المرة، تغرد خارج السرب. أسئلة مثل من الملتقى وما الثقافة؟ طرحت خلال هذه المرحلة بقوة في إعلام المنفى العراقي. الكل كان يتفق تقريباً، على أن الملتقى لا يرتبط بمصالح القوى الكبرى ومصالحها ولا بالسياسي ومصالحه، لكن الكل كان لا يعرف تقريباً، ما دور الملتقى بمثل هذه المرحلة التأريخية الخطيرة في تأريخ العراق ثقافة وشعباً. لقد كانت الأغلبية رومانسية بطريقة ما، والقلة القليلة لم تكن رومانسية بعنف.

لم تكنْ هناك إيتاكا
بين دجلة والفرات

في البحث عن الوطن الضائع

إلى عبد الحسن الشذر، خلاصة جيلي...خلاصة الوطن الضائع

نجم والي

قبل 23 عاماً، بالضبط في 28 أكتوبر 1980، عندما مست قدماي بعد انتصاف الليل بدقائق سلم باب الباص المغادر من محطة سيارات النقل في منطقة الصالحية ببغداد، باتجاه أسطنبول، فكرت وبمرارة: كيف ستكون العودة، إذاما حدث وعدت، إلى المكان نفسه؟ وإذا ما امتلكت بعض الشك في تلك اللحظة، بأن من الممكن أن تكون رحلتي قصيرة، بسبب التباس الأوراق التي في حوزتي، بعد تزويري لدفتر الخدمة العسكرية، وبعد دعوة موالي لخدمة الاحتياط وسحبها للجبهة (كانت اسابيع مرت على الحرب الإيرانية العراقية)، باستثناء القسم الصغير منها التابع لصنف الرادار، وانني وبعد نجاحي بتضليل رجال الحدود، عند جسر زاخو الفاصل بين كردستان العراق وكردستان تركيا، عرفت أنني أدرت ظهري إلى تلك البلاد التي عشت فيها 23 عاما، وودعتها إلى الأبد. لأنني، حتى وإن عدت ذات يوم، لن أجد البلاد نفسها التي تركتها في تلك الساعة. كنت أعرف أنني لست أول منفي يعرف ذلك.

منذ أن وُجدت الحضارات، ووُجد المنفى، منذ أن وُجدت الحدود، ووُجدت البلدان الغريبة، تُحدثنا

الحكايات والقصص والأساطير، ان رجوع المنفيين إلى بلادهم التي طُردوا منها، لن يكون إلا منفى جديداً، وان طريق العودة لا يشبه طريق النفي. عودة المنفي تختلف عن عودة المهاجر طلباً للعمل، والذي انتهى عقد عمله، لأن من غادر البلاد مكرهاً، ومن أقتلعت جذوره، سيصبح من الصعب عليه العثور على مكان جديد، يُلقي به جذوره شجرة الحياة الكبيرة التي نمت بين يديه، في سنوات نفيه الطوال. ليس من الغريب إذن أن يشعر المنفي في طريق العودة، وللمرة الأولى، بأنه إنسان ينتمي للماضي، لأن الزمن توقف عند ساعة مغادرته، وبأن الوطن يقف أمام عينيه مثل وجه حبيب له، ظل ملتصقاً على الصورة التي رآه فيها للمرة الأخيرة، ولا يمكن له تخيل تغيّره.

ذلك ما يفسر أيضاً حجم الحنين الذي سيستحوذ على المنفي وهو يعود للمكان الذي طُرد منه، يتقصص كل شيء: كل زاوية فيه، كل عطفة شارع، وكل واجهة بيت، وكل انحناءة لبناية، تذكره بالماضي، بما كان، وكلما بحث عبثاً عن بقايا قديمة، كلما رجع أكثر للطفولة. هكذا يتحول في أحيان كثيرة، المنفي، إلى كائن غريب في المحيط. وإلا كيف عليه أن يفهم أن البلاد قُسمت الآن في قبائل دينية وقومية؟ حتى مجلس الحكم المُعين من الأميركان وأهم المناصب الوزارية والمستشارون قُسموا على الانتماء الأثني وليس على أساس الكفاءات؟ وكيف عليه أن يبدأ مع الاصطلاحات الجغرافية الدينية الجديدة، التي ستواجهه مباشرة بعد عبوره الحدود؟ هناك قيل له، عليه الحذر تماماً، لأن طريق اللصوص وقطاع الطرق والقراصنة يبدأ منذ الآن: "المثلث السني". بينما يتعلق الأمر هنا، بالمنطقة التي تسيطر عليها العشائر التي انتفعت وأثرت في زمن السفاح صدام حسين. هناك نشأت طبقة أرستقراطية جديدة "بدوية"، يُطلق عليها "سكان ضفاف الأنهار"، لأنهم استحوذوا على كل الأراضي المحيطة بنهري وادي الرافدين، وبنوا قصورهم الكريهة هناك.

حتى أهله، سينظرون إليه بعين أخرى، يتذمرون من بطره، يتساءلون عن سبب سذاجته، لماذا يعتقد أن كل شيء ظل على حاله؟ بأن الأصدقاء ما زالوا على طيبتهم هناك، وسيأخذونه بالأحضان، بعبث الطفولة، وكأن الزمن توقف عندهم هو الآخر. وكأن الكل هناك، بقي على حاله، كما في الحلم. لماذا لا يشعر بالخطر عندما يسأل عن الكحول في مدينته؟ ألا يرى كيف أغلقت الأحزاب الدينية السينمات، محلات بيع المشروبات وكل أماكن الترفيه والتي كانت هناك منذ القدم، بالقوة وتحت أنظار الجيش البريطاني؟ ألا يرى، كيف أن هذه الأماكن تخدم اليوم كمراكز دينية؟ ألا يرى كيف أن الكثير من الأحزاب الدينية تكاثرت هنا مثل الفطر؟ حتى هناك، حيث يكون الشيعة الأغلبية، يبدو أن أحزاباً جديدة نشأت بأعداد لا تحصى: الحوزة الناطقة (أنصار مقتدى الصدر)، الحوزة الصامتة (أنصار علي السيستاني)، الحوزة الشريفة (أنصار الحكيم)، حزب الله، ثأر الله وغيرها...

لماذا يعتقد المنفي، بأن شيئاً لم يتغير؟ ولماذا يظل يتحرك، يطالب الناس أن يكونوا بالصورة التي يريدها لهم، يتحاور معهم بحس الطفل، يحدثهم عن غربته التي طالت، ولن ينفع تحذير البعض له، من خطر ما يفعل، ويوصونه بأن يحتاط من النصوص وقطاع الطرق، الذين يجدون فيه غنيمة سهلة. لكن عبثاً، المنفي العائد مخدر برائحة الحنين وبالذاءات القادمة من زمن الطفولة، يتنفس هواءه الخاص، ولا يريد أن يصدق أنه محاط بهواء ملوث، وبخراب وبدمار. ليس للأمر علاقة بالبلاد التي تحولت إلى سجن، إلى قبر وإلى نفايات قمامة. الأمر له علاقة أكثر بحطام البشر، الذين لم يعرفوا غير دمار وحروب، يخرجون من حرب ليدخلوا في واحدة جديدة، بشر حولهم ليل الديكتاتور إلى مسخ وأشباح. سنوات طوال كانوا مفصولين عن العالم. كان محرما عليهم امتلاك وسائل الاتصال الحديثة. فمن يقرأ صحيفة أجنبية، أو يستخدم الفاكس، أو يبني صحن الدش، أو يملك الكومبيوتر أو الموبايل، سيجد طريقه الأكيد للسجن. السفاح صدام حسين سرق بمساعدة الغرب روح العراقي. اليوم يريد الأميركان والإنكليز تحطيم وجوده. لأنهم لا يقولون له، لماذا ومتى وكيف سيكون حراً؟

ربما لن يصحو العائد (كما في حالتي) من غفوته السحرية، إلا بعد شجاره الأول مع أهله، الذين يعيبون عليه براءته ويجدون فيه نزقاً طفولياً، أو على أبعد تقدير، عند انتهاء رحلة العودة التي تشبه الحلم، والعودة من جديد إلى البلد الذي يقيم فيه، والذي تحول إلى بلده "الثاني". فقط في مكان الإقامة، وخاصة عندما يكون كاتبا ويجلس عند طاولة الكتابة، ويشرع بترتيب قوه في

أفكاره، يعرف المنفى من جديد، أنه ما زال منفياً، وأنه لم يولد ليربط بجذع شجرة، وأن الهواء الذي يحيطه لا يحمل ملامح وطنية، وأن وطنه هو اللغة التي يكتب فيها. أيضاً، يعرف أنه لا يأتي بجديد، فهو مثل كل منفي يعيش التجربة نفسها: يذهب للمنفى ويعود للبلاد (من غير المهم إن كانت البلاد محتلة أم حرة)، ثم يعود للمنفى من جديد، مثلما بدأ رحلته قبل سنوات، يعود للنقطة الأولى، ولا يحمل معه غير العودة للمكان نفسه: المنفى، يكتب المرائي للمرائي، وأن عليه أن يكون فخوراً، في الحقيقة لانعتاقه من كل سلطة، غير سلطة اللغة التي يكتب فيها. فهو ومنذ القدم، مثله مثل أسلافه، الذين لا يمكن حصرهم بأسم أو مثال، وسلسلة الذين سبقوه في "امتياز" المنفى تضيع طريقها في مسافة زمنية بعيدة جديدة، يصعب قياسها أو حصرها بزمن معين. وأننا نراه في كل الأزمان، يمر كل مرة بالتجربة نفسها: يُنفى ويعود، ثم يعود إلى منفاه. لا نعرف الكثير عن طريق عودته، فقط رحلة الذهاب. ولأنه كاتب، يعرف أن معنى إيتاكا يكمن أكثر في رحلة 'يوليسيس' نفسها، وبالذات بالمعنى الذي أوحى لنا به كونستانتين كفافيس، عندما كتب:"رحلة جميلة، من دونها لن تكون عرفت الطريق، على رغم ذلك، ليس عليها أن تمنحك شيئاً".

هل يتذكر أحد عودة أحد المنفيين؟ شخصياً لا تستحضرني قصة في هذه اللحظة. أعرف فقط قصص المنفى. إذن أنا مثلهم، مثل زملائي في كل الأزمان، أمامي فقط الرحلة – الطريق، المهم هو الطريق إلى البلاد التي تركتها وراءي، والتي أحاول الآن الكتابة عنها بعين المسافر الحيادية، والتي أرغب بتحريرها من كل عبء، إذ ليس عليها أن تمنحني شيئاً. يكفيها الخراب الذي عاشته، والذي رأيته في كل مكان، منذ أن وصلت بغداد وطفت في مدن الجنوب، الخراب الذي رأيته في هيئات وملامح سكانها الذين خرجوا للتو من حريق سدوم وعامورة، وبدوا مثل طائر الفينيق، يحاولون السير بقدمين جديدين، يرتبون أوضاعهم من

جديد، وخاصة أولئك الذين عرفوا أن حـــرية جديدة هبطت عليهم من السماء، وأنهم مُنحوا فرصة فريدة من نوعها، عليهم القبض عليها بأيديهم.

"السماء فوقنا قبة زرقاء، الذاكرة خلقنا أعصدة من ملح، ملتهمة من اللهب، تحترق سادوم، بيت أبينا المحبوب". أردد، أنا المنفى الذي يعود بعد 23 عاماً، والذي يشعر بأن الجموع المخربة التي يمر بها وتمر بـــه تردد معه النشيد نفسه. فقط بهذه الطريقة أمنح نفسي العزاء، مهما كانت رحلة العودة خائبة. فقط بهذا الشـكل، أســتطيع تحويل طريق العودة المرســوم بـــالخراب إلى طريق جميل، مظلل بأشجار إيثاكا، وليس بالبـــيوت المبـــنية بشكل واحد، من الشمال حـــتى الجنوب Double Value كما يطلق الناس على طراز بناء البيوت القادم من تكريت والذي غزا العراق كله، تلك البـــيوت التي بُنيت بشكل كريه، وصُبغت كلها بـــلون واحـــد: اللون الكاكي، عكس البيوت القديمة الملونة للعراقيين، قبـــل مجيء حزب البـــعث وصدام حســـين الذي جلب معه انحطاط 'حضارة' قرية العوجة. إذن عليّ أن أشـــارك الناس هناك، ســـكان 'أرض الخراب'، فرحـــهم الذي يصنعونه بالقوة، لكي لا تتحول الرحلة إلى مجرد رحلة عودة لمكان قـــديم تركته منذ ســـنوات طوال، وأساكن طفولة اختفت وبيت ما عاد هناك، وعائلة شاخت وهي تنتظر رجوع ابنها كل هذه السنوات، وأصدقاء ذهبـــوا وآخرون ما زالوا هناك مصرّين على الحياة، يعيشـــون على حـــلم أكيد؛ ولكي لا تتحـــول البـــلاد إلى أطلال وخرائب ذكرى تصلح للشكوى.

ها أنا أعرف أنني منذ اليوم أستطيع أن أزور هذه البلاد بحرية وأكتب عنها بحرية، أن أحبها بحـــرية واكرهها بحرية، مثلما أعرف أن عليّ أن أنسى تلك الصورة التي شـــكلتها عنها كل ســـنوات المنفى هذه. فأنا ومنذ أن غادرت العراق، وكلما جلست إلى طاولة الكتابة، وفي كل عمل كتبته، كنت أستحـــضر البـــلاد. وكان يختلط عندي، الوهم مع الواقع، الحقيقة مع الخيال، لكن شعورا ثابـــتا كان يستحـــوذ عليّ في كل ما كنت أفعله، انني لا أقـــوم بشـــيء غير استحـــضار صورتها، كما رأيتها وعشتها، أو كما حاولت تخيلها، لحـــظة الكتابـــة. الآن أعرف، وبعد رحلة العودة الخائبـــة، أنني وكلّ ما كنت أفعله في تلك السنوات، كنت أشكل البلاد، وكل مرة من جديد، على هواي. كل هذه السنوات، وأنا أحمل البلاد تحت الإبط، لكي أجعلها تكتسب رئة أخرى، غير الرئة الوحيدة الثالثة التي امتلكتها، أجعلها تـــتـــنفس هواء آخر غير الهواء العفن الذي كانت تبـــثه الديكتاتورية، هواء السجون والحروب والغازات السامة والأســـلحـــة الكيمياوية.

أعرف أن طريق العودة لا يشبـــه طريق المنفى. لكني وخلال تجوّلي عبر البلاد، حاولت وفي كل اللحـــظات، جلب البلاد إليّ من جديد، البلاد التي ابـــتعدت عني كل هذه السنوات، البلاد التي كانت تعتقد، مثلما كنت أعتقد أنا أيضاً، بأننا من غير الممكن أن نلتقي من جديد، بأننا عاشقين ذهب كل واحد منا في طريقه: أنا الذي تحول له حلم العودة أشبه بالمستحيل، ليس لأن المكان الجديد بدأ يسحبني باتجاهه، وليس لأن المنفى تحـــول إلى روتين يومي، إنما لأن البلاد ذاتها، سحبت نفسها باتجاه آخر، رمت نفسها في حروب متتالية، وأقامت حـــولها جداراً عالياً، عزلها عن باقي البشرية، وجعل سكانها ســـجناء وغربـــاء عن العالم، جعلهم يتحـــولون إلى كائنات ممسوخة، تنظر للعالم بـــعين واحـــدة: عين الديكتاتور الذي حول البلاد إلى سجن ومقابر ومزابل.

وها أنا الآن، وبـــعد كل ما حـــصل لي وللبـــلاد هناك، أحاول أن أنسى، أنني تجولت 23 يوماً، يوم لكل ســـنة مرت، في بلاد غريبة عني، وأنني اكتفيت من رحـــلة العودة بالعودة فقط، أحاول أن ارسمها من جديد، حيث يختلط عندي ثانية الوهم مع الواقع، الحقيقة مع الخيال، وسأحاول، كما كنت أفعل دائما، أن اقنع نفسي بأن البلاد ستتغيّر، بـــأن اصدق ما تريد أن تقـــنعني بـــه، بـــأنها ستستأصل الورم السرطاني الأكبر، بقايا السفاح، وبأنها ستغسل كل أدران الماضي، وبـــأنها ما عادت ســـجناً ومقابر ومزابل ومستودع لأسلحـــة كيمياوية وأسلحـــة دمار شامل، بأنها ما عادت مختبـــراً للتعذيب وللقـــتل وإبادة كل ما له علاقة بالحياة، بأنها الآن بـــلاد حـــرة، تتنفس هواء نقياً، ويكفي أن أنظر إلى بريق عيون بناتها وشبابها، أن أنظر إلى ضحكات أطفالها، وخفقان أجنحة الطيور العائدة من بعيد، بـــعد أن افتقـــدت زمناً طويلاً الأهوار التي جففها الدايناصور، لكي أعرف أن الحياة ستمير قدماً، وأنها لن تعود إلى ما قبل يوم الأربـــعاء، التاسع من أبريل 2003. وهكذا أحـــلم: إذن أنا أعيش، يقول المنفى.

العراق والجنس والميديا

إعداد وترجمة : أمير دوشي

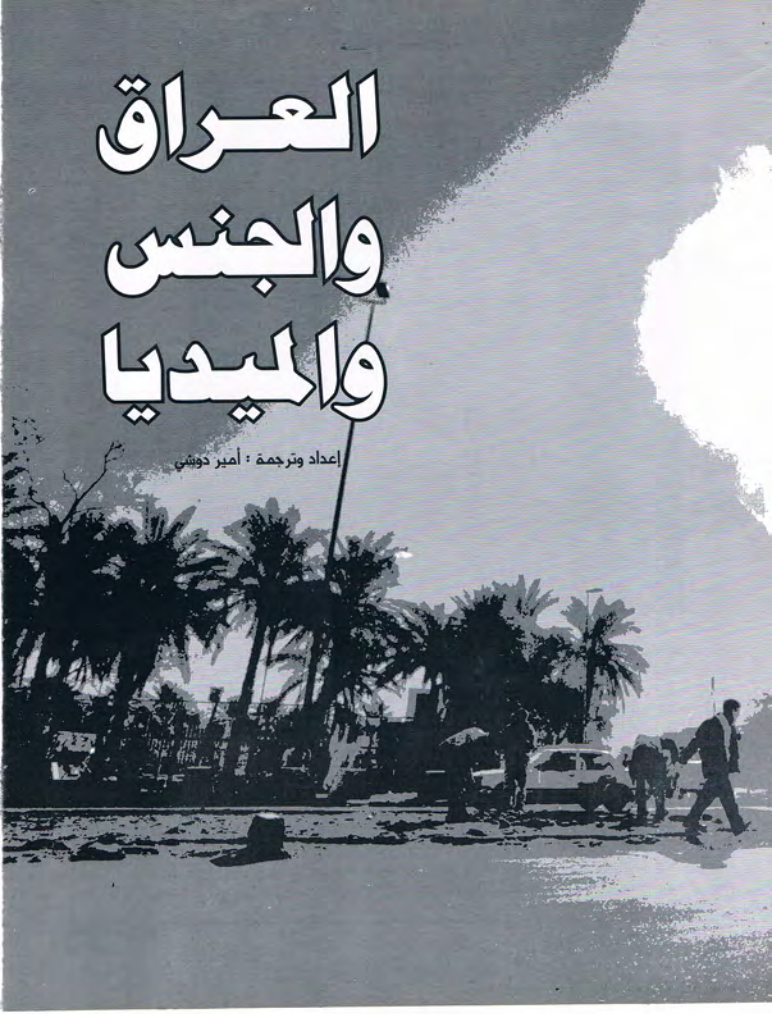

لندي انكلاند في طريقها الى قاعة المحكمة

النساء كأسلحة حرب

يعرفُ روبن آرثر براور في كتابه "حقول النور"، القراءة النقدية على أنها أحدى أدوات الثقافة الحرة لاكتشاف علاقات وأنظمة التجربة. والكتاب موضوع العرض (النساء كأسلحة حرب) للفيلسوفة كيلي اولفر، نموذج باذخ للقراءة النقدية. (صدر الكتاب في تشرين الثاني 2007، عن جامعة كولومبيا، الولايات المتحدة الأمريكية، بـ 224 صفحة). يحاول هذا الكتاب ان يقرأ العلاقة بين الجنس والعنف في الثقافة المعاصرة، وبالتحديد، كيف تقدم هذه العلاقة المتخيلة نفسها على مسرح الحرب الجارية حاليا في الشرق الأوسط.

فبالرغم من ان موت المجندات يولي القليل من الاهتمام في الميديا، إلا أن تقارير العنف والانتهاك الذي أشتركن به المجندات قد استحوذت على مخيلة الجمهور . لماذا ولدت صور انتهاكات المجندات في سجن ابو غريب الكثير من التقارير الصحفية والتأويلات الإعلامية ؟ تسعى المولفة للإجابة على هذا السؤال عبر تحليل كل من التغطية الإعلامية والأحداث نفسها ضمن سياق النظرة الإباحية للجنس والعنف اللذين جعلتهما وسائل الدعاية الشعبية أمرين طبيعيين. فالنظرة الإباحية للموضوع تحدق وتتفرس فيه من أجل متعتها، أو تتأمل فيه من أجل المتعة حسب، من دون الأخذ بنظر الاعتبار (الذات) أو ذاتية أولئك الذين ينظر إليهم. وبذلك فأنها تعزز قوة الناظر بينما تمحي أو تحط من قوة المنظور إليه. تستغل مثل هذه النظرة، النظرة الإباحية، على المستويين الحرفي والمجازي: فالجنس والعنف قد أصبحا مشهدين للنظر ، الجنس والعنف قد ربطا ضمن الثقافة المتخيلة المعاصرة، كما هو حاصل لحقيقة أن عبارة "الجنس والعنف" قد أصبحت جزءا من مفردات الحياة اليومية. كما في لغة أفلام هوليوود، فمن الصعب التفكير بإحداهما من دون الأخرى. يبحث هذا الكتاب عن الكيفية التي لعبت فيها النظرة الإباحية دورا جوهريا في إشعال الحرب، وكيف استخدمت تأريخيا وطورت ضمن سياق العنف الكولونيالي. وبهذا الخصوص كما يتضح في صفحات الكتاب، فان الاحتلال الأمريكي للعراق يتبع مسارا طويلا من المغامرات الكولونيالية الغربية في الشرق.

سنرى ان وضع التغطية الإعلامية لأحداث ابو غريب ضمن السياق التأريخي للعنف الغربي يكشف كيف أنها جاءت في سياق الممارسات العسكرية المستمرة التي قد جعلت العنف أمرا طبيعيا، خصوصا في علاقة المرأة والجنس. فقد صاحب الظهور الأول للصور اضطراب وغضب واتهام. وعدت الصور صادمة ومربكة للعقل. واعتبر البعض ان الصور نفسها مشكلة. برغم ذلك كان هنالك نوع من الألفة الغريبة بشأن هذه الصور . ان ما يسعى الكتاب إلى فهمه هو ذلك الربط بين الصدمة والألفة. إذ ان وجوه مرتكبي هذه الانتهاكات تشير إلى أنهم يمكن أن يكونوا مواضيع لصور في كتاب مدرسي في مدرسة عليا، فيما تشير تعابير وجوههم وإيماءاتهم إلى أنها صور انتحار وظفر، صور ابتسامات وعلامات نصر ورضا. وبهذا الخصوص تقول المولفة:((ان هذه الصور تذكار لانتصار في حرب، تشير إلى اننا ضمن حربنا ضدهم قد فزنا. نظرة الغنيمة أو رؤية تذكار الانتصار في صور هذه الحرب هي فقط جانب واحد من النظرة الإباحية. شخوص هذه الصور قد انتهكوا وحط من قدرهم،أذلوا وعروا، وفيما كانت أجسادهم المستهدفة والمرتجفة تصور إلى جانب أفراد الجيش الأمريكي المنتصرين، فان الرسالة الواضحة كانت: ان بإمكان الأمريكان أن يفعلوا ما يشاؤون لهؤلاء الغرباء، لأنهم مقاتلون أعداء)).

ما تذهب إليه المولفة في هذا الكتاب هو أن هذه الصور "الصادمة" مألوفة ليس فقط من خلال تأريخ طويل من العنف المقترن بالجنس، بل كذلك عبر تأريخ صلات بنيوية تربط بين المرأة والجنس والعنف. وفي الحقيقة فان هذا الاقتران يتأجر بالصور النمطية للنساء المهلكات والمهددات، تلك الصور التي صاغتها وحافظت عليها ثقافة الغرب. فطالما جرى الربط بين سقوط الإنسان الأول و المرأة، منذ أن أغوت حواء ادم بالتفاحة المحرمة. وفي هذا الخصوص، تحاول الكاتبة تحليل صورة المرأة، الواقعية والمفاهيمية القادمة من الحرب في الشرق الأوسط، ويشمل ذلك أفغانستان والعراق وفلسطين، عبر قراءة ميراث الكولونيالية وميراث العلاقات البطريركية بين المرأة والجنس والموت.

تحاول المولفة، عبر فصول الكتاب، أن تعري طبقات من المعنى البصري والبلاغي في محاولة للوصول إلى الدلالة الأعمق للجوانب المتنوعة " للحرب على الإرهاب" ــ استخدام المرأة من قبل الجيش لكسر "شوكة العدو"، صور النساء المبرقعات المتسوقات في أفغانستان، دفاع مرتكبي انتهاكات سجن أبو غريب على انهم فقط كانوا يمارسون "تسلية خفيفة" والتقنية

المجندة البريطانية تيني على شاشة فضائية العالم

الجديدة باستخدام الصحفيين الملحقين بالقوات العسكرية، بالإضافة إلى الربط بين الجنس والعنف في أفلام هوليوود الحالية.

ان تأويل هذه الإحداث والصور كما هي فاعلة ضمن السياق الأكبر للثقافة، التي ترتكز أشكالها الأولية للمتعة حول الجنس والعنف، سوف يعلمنا الكثير عن وظيفة المرأة في اقتصاد العنف. وبالإضافة إلى ذلك، عبر تأويل هذه الإحداث والصور ضمن سياق المخيال الثقافي المأسور بالجنس والعنف، نستطيع البدء في فهم استشار الفرد المعاصر في محيط العنف نفسه. تأمل الكاتبة، عبر فهم هذا الاستشار في العنف، أن نستطيع قصر دائرة حوافز العنف وأن توقف تحويل الأوهام العنيفة إلى حقيقة. كما يهدف منهجها متعدد الأوجه الى التعامل مع بعض العلاقات المتداخلة بين الأوهام والرغبات والمخاوف المرضية، من جانب، ولغة الميديا، (البصرية والسردية) المنمقة، من جانب آخر. بكلمات أخرى، احدى الأسئلة الدافعة لمثل هذا التحليل مفاده: ما العلاقة بين الحيوات النفسية أو العاطفية منا والأفعال أو الحيوات العامة للفرد المعاصر؟ حاولت الكاتبة عبر فصول كتابها تحديد المعنى الاعمق للغة البصرية والسردية المنمقة للحرب على الإرهاب. وكانت بؤرة انشغالات تحليلها هو كيف قدمت وأدركت الحرب: قراءة عرض الأحداث في وسائل الميديا الشعبية يمكن أن يخبرنا شيئا عن ذاتنا وكيف ننظر إلى الآخر، بمعنى ان القراءة النقدية للميديا يمكنها أن تعلمنا شيئا عن مخاوفنا عميقة الغور، الرغبات التي تحضر في تفكيرنا وسلوكنا. فقد نكون غير واعين بمخاوفنا ورغباتنا التي تكمن خلف مفاهيمنا عن ذاتنا والآخرين وكذلك خلف أفعالنا اتجاه أنفسنا أو الآخرين. وباستخدامها لأدوات نظرية مستقاة من الفلسفة والتحليل النفسي وعلم الاجتماع، تحاول المولفة قراءة الاستشارات النفسية والسياسية في الحرب على الإرهاب عبر التفتيش بدقة وشمول في تقديم الميديا للنساء المشتركات في العنف ومقارنة المناقشات بشأن تحرير المرأة هنا وهناك، وفحص دور التقنيات البصرية في توثيق هذه الحرب، وكذلك بتحديد الطرق

التي تم بها تبرير العنف لجانب معين وإدانته عند آخر، ومن ضمن ذلك تصوير اشتراك المرأة على انه "يخفف الصدمة ."وفي قضية انتهاكات أبو غريب- فان حقيقة إجبار المجندات، كما يظهر، للرجال على القيام بأوضاع جنسية قد أربكت منظمات حقوق الإنسان عندما حاولت تصنيفها، أو ببساطة تعريف هذه الأفعال على أنها سوء معاملة. إذ إن الطبيعة الجنسية للصور قد جعلت الجميع قلقين، متململين ومتوجسين. فمن جانب، الابتسامات العرضية المبتهجة على وجوه تلك الفتيات تبدو خارج المكان في مسرح الحرب. لكن كما تذهب الكاتبة في الفصل الأول، فان الفكرة نفسها "أن تكون النساء أدوات للتحقيق قد لعبت على المخاوف القديمة من المرأة و أوهام الشبق الأنثوي كسلاح مهدد". الألفة المصطنعة لهذا الرابط بين المرأة والجنس والسلاح جعلت الصور غير معهودة- غريبة وكأنها أمر مسل ودنيوي. وإذا كانت النساء قد صورت في الماضي كـ(قابل) وصور جنسهن كسلاح فتاك، فان الظهور الفعلي لهن على مسرح الحرب اليوم يجب أن لا يكون مفاجئة. ومن مجندات أبو غريب وغوانتنامو إلى إنقاذ جيكا لانج وصور الانتحاريات الفلسطينيات، فان التغطية الإعلامية قد حولتهن إلى "أسلحة" حرب. وكما يظهر في فصول الكتاب، فان الاستعارة المجازية "أسلحة " قد استخدمت في كل حالة لتصف النساء والشبق الأنثوي.

***

في الفصل الأول، تحلل المؤلفة افتتان الجمهور بما تخيله كسلاح فتاك لتلك النسوة. وتسبر الكاتبة في الفصلين الأول والثاني اللغة المنمقة التي أحاطت بـ(الحركة النسوية) و(تحرير) المرأة كما استخدمت مرتبطة في الحرب في الشرق الأوسط، من جانب آخر فأن الحركة النسوية قد طالها النقد متهمة بعنف المرأة ضد الرجل، فقد أعطت الحركة للمرأة فرصة افتراضية مساوية للرجل في القتل والانتهاك. وعلى الجانب الأخر، نرى ان اهتمام الحركة النسوية بتحرير المرأة في الشرق الأوسط قد استخدم لتبرير الأعمال العسكرية هناك، وبالتحديد في أفغانستان.

تظهر المؤلفة، في الفصل الثاني، كيف أن اللغة المنمقة لإدارة بوش بشأن (تحرير المرأة من الحجاب) في أماكن أخرى قد دعمت صور الحرية وامتيازات المرأة داخل أمريكا. وأكثر من ذلك أنها حجبت حقيقة أن هذه الحرب قد جلبت معها أشكالا جديدة من التروبض والضبط داخل أمريكا وخارجها. أحد الأمثلة على هذه القيود الانضباطية التي وقعت على المرأة في الولايات المتحدة هي المقاييس العالية والمتزايدة حول (الأمومة المهنية): يتوقع من الأم أن تملكها كلها، العائلة والوظيفة، حتى ان كان ذلك يعني أن تطيب نفسها بالكافيين أو الحبوب المنومة لإدامة جدول العمل. وفي هذا الفصل تربط الكاتبة بين اللغة المنمقة الحالية لتحرير المرأة في الشرق الأوسط مع مثيلاتها من اللغات البلاغية التي استخدمت في الحملات الكولونيالية المبكرة لتبرير الأفعال العسكرية ضد الأخر وإنكار حقوق المرأة في الداخل.

تمضي الكاتبة لتظهر كيف أن الحرية التي تم جلبها إلى نساء الشرق الأوسط قد تم تصويرها كحرية للتسوق، وهو ما يوحي بأن فكرة الحرية الأمريكية المقدمة إلى بقية العالم من خلال الحرب قد تم تقليصها إلى حرية السوق. وضمن هذه اللغة، فان حرية المرأة في التسوق وليس ما يحلو لها قد أصبحت العلامة المميزة لحرية العولمة. فيما نظر إلى حريتها باستخدام السلاح على أنها علامة للحرية والتقدم.

وفي الفصل الثالث تحلل الكاتبة اللغة المنمقة كما يتم استخدامها من قبل إدارة بوش لتبرير الحرب. وفي فحصها لخطابات بوش فأنها تكشف عن رابط جوهري بين الحرية والملكية. أمريكا تقاتل لحماية ممتلكاتها وحريتها بالامتلاك مرة أخرى، وقد تم تقليص الحرية إلى حرية السوق. وفي هذه الخطابات، تعمل اللغة المنمقة للحرية في ترادف مع اللغة المنمقة للخير والشر. وأكثر من ذلك، فان حماية الخير قد تم تقليصها لتعني حماية بضائع أمريكا، حيث معاني الحرية والعدالة والخير قد أصبحت مرنة ومتغيرة وفقا لسياسات السوق المستخدمة لتبرير الأفعال العسكرية الهادفة لحصول أمريكا على منابع الثروة وضمانها. ن العالم كله تحت تصرفها تسير جنب إلى جنب مع فكرة

وهكذا فان صرخة الخير والحرية قد أصبحت صرخة الرأسمالية العالمية بمشيئة افتتاح الأسواق الجديدة وضمان عقود الشركات الأمريكية والتي باتت هي بعينها العلامة المميزة للنجاح في الحرب على الإرهاب. لكن، كما سيتضح في هذا الفصل، فان الخوف من فقدان الثروة، والتصميم على حمايتها بأي ثمن يقود إلى روح وطنية مصابة بالفوبيا، حيث الإحساس بأن الثروة مهددة من كل جانب. وان الوجه الآخر لهذه الفوبيا هو الوهم بالعظمة الذي يؤكد بالحديث عن "حرية العلم كله" و"جلب الديمقراطية إلى الكون"، فكرة ان أمريكا مركز الكون وان العالم كله تحت تصرفها تسير جنب إلى جنب مع فكرة أنها محاطة بقوى الشر القادمة لأجل تدميرها. وبلغة التحليل النفسي، فان تلك هي الأعراض الكلاسيكية للذهان الارتيابي. حتى ان إحساس الأمريكان بأنفسهم كأمة يعتزز بإيجاد عدو مشترك، برؤية أنفسهم يقاتلون من أجل الخير ضد قوى الشر التي تحيط بهم. إحساسهم بأنفسهم كأحرار يشجع بمقارنة أنفسهم بالآخرين، خصوصا النساء، في أماكن أخرى حيث يتخيلونهن كمستعبدات. ان اللغة المنمقة المنتفخة للخير ضد الشر، هم ضد الآخرين، تغذي الوطنية ذات الذهان الارتيابي التي تتحرك من دون تفكير. من دون شك فان ما يبعث القلق أكثر من أي شيء آخر السهل التي تربط، في خطابات الرئيس بوش، هذه اللغة المنمقة الأبدية بالرب: نحن نقاتل من اجل الأبدية لان الرب يقف معنا. لنتذكر هنا ان الرئيس بوش أنهى خطابه في 11 سبتمبر 2006 بالكلمات الآتية: نتقدم إلى الأمام، واثقين من هذه الروح (روح الشعب الأمريكي) ومن أهدافها، ومن إيماننا بالرب الذي جعلنا أحرارا.. "ان كان الأمريكان يقاتلون في (حرب بلا نهاية، حرب مستديمة من دون أي إمكانية للسلام) فان الجانب الآخر الخطر الذي تشير إليه الكاتبة بشأن هذه اللغة المنمقة للأبدية هو أنها تحاول أخذ الحرب خارج سياقها الاجتماعي والتأريخي، حينئذ تصبح الحرب باحثة لا عن النفط أو الأسلحة النووية، أو الدكتاتوريات، أو تعزيز موقع أمريكا كقوى كبرى أو

انقاذ المجندة جسيكا لانج

استقبالها كبطلة قومية

إعادة بناء العراق أو حتى لإجراء انتخابات حـرة في العراق، بل عن الخير الأبدي والإيمان بالرب. خطورة رفع الأحداث عن سياقها الاجتماعي والتاريخي هو انه لا يعطي المعلومات الواقعية المطلوبة لتأويل وفهم تلك الأحداث. وبذلك يقدم صورة مبالغة تثير الأحاسيس، وغالبا ما تكون أحاسيس الكره والانتقام ويغيب التفكير التأملي بشأنها. كذلك ما يشجع الإحساس بالعنف وطلب العنف، من دون التفكير بشأن الاستثمار في العنف أو بشأن عواقبه.

برغم ذلك، ليست فقط الإدارة الأمريكية هي من ينسف القدرة على التفكير النقدي بشأن السياسة العامة أو الحرب، بل كذلك، وسائل الميديا، خصوصا تغطيتها لأحداث 11 سبتمبر وحرب العراق، لانها تسهم بخلق هذا التشويش والحيرة. وهكذا، تحلل الكاتبة في الفصل الثالث الطرق التي يعمل بها الصحفيون الملحقون بالقوات العسكرية والشرائط الإخبارية التي تظهر في أسفل شاشات التلفاز والأحداث المصطنعة في نشرات الأخبار، وتظهر كيف انها لا تعمل على رفع الأحداث عن سياقها فقط، بل كذلك تمحي الفرق الواضح بين الحقيقة والوهم. وهو ما يفضي إلى خلق أحداث مصطنعة وسيناريوهات متخيلة وبارانويا وطنية. وفي أفضل الأحوال، فان الصحفيين الملحقين يقدمون نظرة مختلسة وميتصرة عن حياة الجنود والمدنيين في زمن الحرب وبالتالي يثيرون التعاطف معهم. لكن مثل هذه التقارير الشرائحية تقدم خارج السياق وتثر مع الأحداث المصطنعة والإعلانات التجارية والبرامج الترفيهية، ويكون مثل هذا التعاطف أجوف لا قيمة له، ولا يساعد في فهم الموقف أو العمل وفقا لأحاسيس ومعرفة المرء. وفي أسوء الأحوال، فان الصورة البصرية القادمة من العراق وأفغانستان تواصل تمرير تأريخ طويل من استخدام التقنية البصرية في المطاردات الكولونيالية.

تقرأ الكاتبة في هذا الفصل الرغبة بالتغطية الحية والصحافة الملحقة بالجيش وفقا لتأثيرهما على فهم الفرد للزمان والواقع، حيث تصب التغطية الحية والصحافة الملحقة الماء في طاحونة هذه المغامرة الكولونيالية. وتذهب الكاتبة إلى أن تقارير الصحفيين الملحقين تخلق راهنا (حاضر) سرمدي يخرج الأحداث من سياقها ويجعلها طبيعية. وبالتالي يغلق إمكانية اقع، التأويل النقدي الضروري للتفكر في معنى تلك الأحداث. الحاضر السرمدي لميديا الانترنت والبث الإذاعي والتلفازي سيسهم في تهشيم الحد الفاصل بين الوهم والحقيقة. وتصف المؤلفة كيف أن أحاسيس الانكشاف (قابلية التعرض للأذى) وفقدان الأمن قد أفضت إلى نوع من البارانويا الوطنية. فعندما يحل الوهم محل الواقع، ويصبح الواقع قابلا للتسويق، عندها يكون العنف أكثر تطرفا .وتشرح الكاتبة كيف أن أكثر الكلمات تكرارا بعد هجمات 11 سبتمبر قد كانت (الانكشاف) وفي ذلك ما يدفعها للتفكير في معنى وتأثير الانكشاف ومديات ارتباطه بالعنف، خاصة ان الكلمة التي غالبا ما تلصق بها كانت كلمة (الحرب). وفي الفصل الأخير تكشف الكاتبة العلاقة بين الانكشاف والعنف بغية الوصول إلى فهم: لماذا وفر سريعا الإحساس بالانكشاف ممسارا نحو الحرب. عد الكثير من الفلاسفة الانكشاف (قابلية الجرح أو العطب أو السقوط بيد الأعداء) على أنه من المكونات الجوهرية للشخصية الإنسانية. مثلا، جوديت بتلر وجوليا كرستيفا، وبسبل مختلفة، قد تصدتا لفكرة الانكشاف لتوحيا بأننا بحاجة لقبول انكشافنا بدلا من محاولة نكرانه، لان التبرز من الانكشاف هو بذاته ما يقود إلى الحرب. وبالتأكيد فان أوهام المرء بأنه منيع لا يقهر وغير منكشف يمكن أن يقود إلى الحرب. برغم ذلك، كما يظهر في صفحات هذا الفصل، فأن فكرة الانكشاف تشمل سلفا في داخلها العنف: فالقابلية للجرح أو العطب تعني الجرح والانجراح. وحيث تذهب الكاتبة إلى أن فكرة العنف هي من مقومات الشخصية الإنسانية تقترح بدلا من ذلك تحريك القدرة على تجاوز العنف بالمضي إلى ما وراءه، وذلك هو خيار الإنسانية النهائي والحاسم.

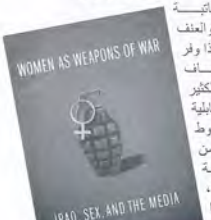

بدأ تأمل الكاتبة في (الانكشاف) مع تحليلها للبراءة التي وفي حدها الأقصى تعاقب الجسد، لكنها لا تعطي المعنى الواقي للمتع الجسدية والألام. احدى نتائج هذه

والانشقاق بين البراءة الأخلاقية والقانونية، وفقا للانشقاق الاعمق بين الأحاسيس الجسدية والقانون أو المعنى في حضارتنا. فتحلل الكاتبة بعض الطرق التي يكون فيها مرتكبو انتهاكات أبو غريب أعراضا لجزء من ثقافة مجتمعهم، تلك التي ثبتت أسعار البراءة والجهل والعنف كان دليل ومحفز تحليلها السؤال الآتي: ما مقومات الثقافة التي يمكن أن تنشئ المجندين الشباب الذين يسيئون المعاملة، بل حتى تعذيب الآخرين من أجل "التسلية والمرح"؟ تجيب المؤلفة على هذا السؤال عبر التركيز على السبل التي تكون فيها مدنية المجتمع وقوانينه الأخلاقية غير قادرة على إعطاء معنى لحيوات العاطفة والوجود المجسد. فقد أختصر القانون إلى شفرات انضباطية وتشريعات جامدة لا تعطي جزالة ومتانة لمعنى الحياة. فهي تنظم وتضبط وفي حدها الأقصى تعاقب الجسد، لكنها لا تعطي المعنى الوافي للمتع الجسدية والآلام. احدى نتائج هذه هي ما تسميها الكاتبة "أفراد لا قعر لهم"، أفراد فصلت حياتهم العاطفية عن أي فصاحة ذات معنى، أو بلغة التحليل النفسي، أفراد فصلت متعهم وآلامهم الجسدية عن أي تهذيب ذي معنى للدوافع البدائية وترقيتها. ويلعب هذا الانشقاق بين الجسد والمعنى أو بين العاطفة والقانون دورا في موقف الأمريكان اتجاه القوة المشروعة أو غير المشروعة، خصوصا رؤيتهم لـ "المجرين الانتحاريين" أو "مفجري الأجساد" كما يدعوهم الفيلسوف اندريا كافاريرو.

***

حفزها عليها دفاع متهمي أبو غريب عند محاكمتهم على أنهم كانوا يمزحون. فبعيدا عن الأوامر وموقفهم في مسرح الحرب، ان هؤلاء المجندون الشباب، على مستوى آخر، قد أساؤوا إلى المساجين ليمتعوا أنفسهم. وادعوا انهم جاهلون بالممارسات الدينية الإسلامية، وأنهم بريئون أخلاقيا حتى وان كانوا مذنبين قانونيا. وهكذا تناقش الكاتبة في الفصل الرابع الصدع

الفصل الأخير من الكتاب يتأمل في المعنى الثقافي أو في انعدام وجود المعنى، الذي أنتج (البريء الجذل) في انتهاكات سجن أبو غريب، من جانب، والتزام الانتحاريين العميق بالموت، على الجانب الآخر. وتتساءل الكاتبة: ما السياقات الثقافية التي تجعل من الممكن للرجال والنساء أن يسيئوا التعامل مع السجناء لمجرد (التسلية والمرح)؟ وما السياقات الثقافية التي تجعل من الممكن للشابات الانتحاريات تكريس حياتهن لقتل أنفسهن والآخرين؟ وأكثر من ذلك، لماذا تأسرنا جدا صور النساء الانتحاريات أو صور مقترفات انتهاكات أبو غريب؟

عقب ذلك تتحول الكاتبة من تحليل اللغة المنمقة المستخدمة في وصف أولئك النسوة المشتركات في الأحداث إلى تحليل دورهن ودلالاتهن الثقافية، فتقر المتعة في العنف وعاطفة الموت التي تعرضها تلك النسوة ورفاقهن في سياق الثقافات والتقنيات التي انتجتهن.

وفيما تختلف الانتحاريات عن مسيئات أبو غريب في عدة أوجه، إلا أن كلاهما يسهمن في ويعتمدن على الطرق الإباحية للرؤية ونظرة الغنيمة لإدامة العنف. وهنا يعتمد الإرهابيون الانتحاريون على الميديا لإيقاع الرعب في النفوس، مثلما يعتمد نظراؤهم على النظرة الإباحية لصدم أعدائهم، اولئك يوزعون شهاداتهم المصورة فديويا عن طلبهم لنيل " الشهادة " كأمارة ظفر في هذه الحرب،فيما يتباهى الآخرون بانتهاك الأجساد الغريبة منزوعة الكرامة. يصور الإرهابيون قطع الرؤوس لتعرض على شاشات التلفاز ومواقع الانترنت، كتذكار لعنفهم ويستخدمون التلفاز والانترنت لنشر صور عنفهم تلك، التي هي على ما يبدو برهان نصرهم في حرب الخير على الشر، أو ما هو إلهي على ما هو مارق. وفي كلا الجانبين، أصبح العنف والحرب مشاهد متطلبة تقدمها وسائل الميديا باشتهاء، إلى جوار الممارسات السياسية ضمن حراك الاقتصاد العالمي داخل تأريخ العالم. هنا حيث يؤخذ العنف والحرب خارج سياقهما ويستغلا من أجل تبضيعهما في عجلة الميديا العملاقة،المسموعة والمرئية والانترنت.

تمضي المؤلفة في تأملاتها قائلة:لقد جعلنا من أنفسنا أبطالا لقصصنا بتقديمنا الأفراد المغلوبين لكي نحدق ونتفرس بهم، وهم قد فعلوا بنا المثل). وتقترح المؤلفة بديلا للنظرة الإباحية هذه ما تسميه نظرة " الشهادة ". وهنا تطور الكاتبة ما طرحته في كتبها السابقة، موضحة كيف للمعنى المزدوج لهذه الكلمة أن يساعد في إخفاء ما يمكن لنا أن نراه بسبلاتنا الاهتمام للتركيز على التباسات الحياة، بدلا من التبرؤ من تلك الالتباسات. وللشهادة معنى مزدوج : الرؤية بالعين كما في شاهد عيان، والشهادة على شيء ما لا يمكن لنا أن نراه، على شي يمكن لنا فقط أن نعانيه، كما في الشهادة على فضائح الحرب. التباس الشهادة هذا يساعد على استرجاع التباسات المعاناة، نوع من بث الحياة ثانية في الفهم والإدراك. وهنا تركز المؤلفة بشكل رئيس على الأخذ بنظر الاعتبار موقف الأفراد الاجتماعي والسياسي مع فعلهم الذاتي، بل يمكن لنا القول حتى تجربتهم الروحية. اذن الشهادة تتطلب رؤية الموقف التأريخي والاجتماعي، ذلك الذي يترك الفرد حيث هو، وكذلك رؤية روحه أو فعله الذي يسمح له أن يغير الموقف. وفي هذا، تتضمن الشهادة الاهتمام بالماضي والمستقبل كما هما مرتبطان بظروف الحاضر، بدلا من السقوط في حاضر أبدي كما في أغلب صور البث التلفزيوني والانترنت.

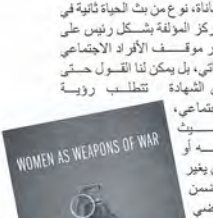

***

وفي الخاتمة، تؤكد الكاتبة بأن "الشهادة" يمكن أن تعني مفهومنا عن الحرية. الحرية كما اختزلت إلى حرية السوق ليست كاملة،حتى الحرية التي اختزلت إلى غياب المحرمات ليست كاملة أيضا. من دون الحرية لخلق معنى لحياة المرء الخاصة، خصوصا جندة، فان تلك الحرية تبقى فارغة. وذلك هو السبب الذي يدفع الكثير من مواطني أمريكا إلى تعاطي المخدرات لملئ الفراغ الناتج عن إفراغ حياتهم من المعنى. وهو ما يفسر لماذا يلعب الكثير من أبناء الطبقة المتوسطة "لعبة الإعدام" من أجل الإحساس بأنهم بين الشباب، وهي كلها علامات على الحضور القوي للعواطف الكامنة تحت

أحياء، وفي حالات متطرفة، يندفعون في هياج وذعر لإطلاق النار في مدارسهم المحلية. وتتفشى الكآبة واستخدام العقاقير الطبية المتنوعة، وصرعات إيذاء النفس، والعنف بين الشباب، وهي كلها علامات على الحضور القوي للعواطف الكامنة تحت سطح الثروة والرفاهية، العواطف أصبحت منمرة عندما لم تملك منافذ أو بدائل صحية. لقد خلقت ضغوط السوق الحر المخاوف والرغبات التي ظلت مكتومة وخفية بسبب أن تأويل المعنى الحقيقي مناقض للفكرة المسطحة لهذه الحرية. وتسمح حرية السوق بالتأويل فقط ما دام السوق يبيع، فقد تقلص المعنى داخل الديمقراطيات الغربية إلى معنى الثروة المادية وليس ثراء الروح وازدهار حريتها ومعناها. ان الروح تختفي عبر عملية التأويل التي تحي المعنى. أمر لا ينكر أن الجسد الجائع يجد صعوبة في إطعام الروح الجائعة، وتشتعل الحرب في العالم الطبيعي حول الأجساد، لكنها كذلك تشتعل في العالم الرمزي حول المعنى. ولفهم الحرب على الإرهاب يجب فهم وتأويل معناها. هناك حاجة دائمة لتفسير معنى الاستثمار في هذه الحرب. فلكي يكون المرء حرا عليه أن يفهم ويزول مخاوفه ورغباته قبل العمل عليها. بالإضافة إلى أن المخاطر السياسية والاقتصادية للعنف اتجاه الذات والآخر هي مخاطر أخلاقية لخلق معنى للحياة.

***

يأخذنا هذا الكتاب إلى ما وراء حرب العراق او صور النساء المحاربات، نحو الاعتبارات الأخلاقية والسياسية الأكثر عمومية. بمعنى أن تمثيل الميديا لحرب العراق هو حالة دراسة من خلالها تضيء المؤلفة المخاطر السياسية والأخلاقية لأفكار المرء بشأن علاقة الفرد بذاته والآخرين. وتوضح المؤلفة ذلك عبر تأكيدها على أن الطرق التي يشخص (يصف) بها المرء ذاته ويشخص (يصف) أعداءه يمكن لها أن تحدد كيف يرد على مواقف العالم الواقعي السياسية. ثم تمضي في تحليل كلمة (Ethics) مبادئ الأخلاق أو فلسفة الأخلاق التي أتت من الكلمة اليونانية (Ethos)خلق] وتعني شخصية أو طريقة حياة. وتوضح ان أخلاق الأمريكان هي ما اخبروا به وهم تحت هجمات الإرهابيين، ولكن ما هذه الأخلاق؟ وما طرق الحياة الأمريكان، كما هي مرتبطة بمبادئ الأخلاق؟ اليوم سيسمعون الكثير عن "الأغلبية الأخلاقية" والأمريكان المحافظين أخلاقيا. برغم ذلك، فأن فكرة مبادئ الأخلاق التي تعمل من خلال غايات الخير ضد الشر، تلك التي تقسم الناس والأفعال إلى مناسب وغير مناسب، نقي وملوث، خير وشرير...، وكما توضح المؤلفة عبر فصول الكتاب فان الكولونيالية والاضطهاد والحرب تبرر نفسها باستخدام المبادئ الأخلاقية التي تملأ الخلق بالعدوان والعنف. وفي الحقيقة، فإن أمريكا تستخدم المبادئ الأخلاقية لتبرير اشد أشكال العنف تطرفا وتبرز نفسها في الوقت نفسه من أي مسؤولية عن أفعالها: فهي تعتقد بأنها تملك حقا مقدسا للحفاظ على نمط حياتها وان

انقاذ جسيكا لانج يتحول الى فيلم هوليوودي

تعتقد بأنها تملك حقا مقدسا للحفاظ على نمط حياتها و ان العناية الإلهية تقضي بالتخلص من أي احد يمكن له ان يتحدى أمريكا. ثم تسأل الكاتبة : كيف يمكن أن يوجد هذا الكم الهائل من القتل باسم الفضيلة، و على كلا الجانبين ؟ و لإصلاح ذلك، تدعو الكاتبة إلى أخلاق ما وراء الخير و الشر، حيث المبادئ الأخلاقية ليست شفرات تقسم البشر بين خير وشرير، سيد و عبد. إنها الإقرار الحقيقي بأننا نعيش ونحيا فقط بسبب علاقتنا مع الآخرين، الكثير منهم لم نلتقيهم أبدا (الفلاحون الذين يزرعون الخضار، عمال المصانع الذين يصنعون الأحذية، عمال المواني الذين يفرغون السفن...). تلك العلاقات القريبة و البعيدة، هي ما تعطي معنى للحياة. حينها يكون المقوم الرئيس للسياسات الكونية هو، كيف لنا أن نتخيل وجود علاقات مع الآخرين القريب منهم و البعيد.

كيلي اوليفر : أستاذة الفلسفة في جامعة فاندربلت، الولايات المتحدة. كتبت أكثر من خمسين دراسة وخمسة عشر كتابا. منها: تأنيث نيتشه، قيم العائلة، استعمار الفضاء النفسي. وحررت كتابا عن جوليا كريستيفا بعنوان "قراءة كريستيفا".

*

الجسد الأنثوي بوصفه غواية وسلاح

حوار مع المفكرة كيلي اوليفر

- ماذا تقصدين بالنساء سلاح للحرب ؟

كيلي: ما ألهمني لتأليف هذا الكتاب هو مراقبتي للتغطية الإعلامية المتكررة التي تصف المجندات كأسلحة. مثلا، المعلق الصحفي في جريدة نيويورك تايمز يصف المجندات بأنهن "السلاح الحديث الأكثر إدهاشا في الترسانة الغربية" وكان العنوان الرئيس لمجلة التايمز بعد انتشار أخبار المحققات في السجون الأمريكية في ابو غريب وخليج غوانتنامو "الشبق الأنثوي يستخدم كسلاح"، وتصف التايمز اللندنية الانتحاريات الفلسطينيات كـ- "أسلحة سرية" و"قنابل بشرية دقيقة" وحتى المجندة الأمريكية جسيكا لانج، التي أسرت وأنقذت في بداية الغزو الأمريكي للعراق، قد سميت "الدرع البشري"، وسلاحا في الحرب الدعائية. تعرض الميديا ردود الفعل الشعبية على اختطاف وإطلاق

سراح المجندة البحرية البريطانية، فأي تيني بعضا من ذات التوجيهات. فقد اتهمت الميديا البريطانية الرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد باستخدام تيني كسلاح في الحرب الدعائية، وفي الوقت نفسه، فان المحافظين في بريطانيا، استخدموا صورة أم الأسيرة في الجدال المثار ضد تجنيد النساء في الجيش-.

هل هذه ظاهرة جديدة؟

كيلي: إني أقدم حجا على أن الأمثلة الأخيرة للمرأة المصورة كسلاح هي استمرار للصور النمطية للنساء اللواتي يستخدمن شبقهن كسلاح مميت لخداع الرجال وأسرهم. وفي الحرب العالمية الثانية، كان الجنود يسمون الطائرات القاصفة والقنابل التي تلقيها على غرار أفلام هوليوود، مثلا، القاصفة التي ألقت القنبلة الذرية وأنهت الحرب العالمية الثانية قد سميت باسم أم الطيار، و القنبلة نفسها قد سميت باسم أشهر نساء هوليوود ذوات السحر الذي لا يقاوم حينها، كيلدا.

ومن الشخصيات الميثولوجية مثل ميدوزا وجوكاستا إلى الشخصيات الإنجيلية مثل حواء ودليلة أو جوديث، إلى نساء هوليوود ذوات السحر الذي يقاوم، صوّر الشبق الأنثوي كخطر، بل أكثر من ذلك لأننا نتخيل أنه يمكن ان يستخدم كسلاح من قبل النساء ضد الرجال. ربما المثال الأكثر تطرفا في هذا الوهم، كما ظهر في الاشغال العسكري الراهن، هو على ما يبدو الاستخدام القصدي للشبق الأنثوي كتقنية استجواب (سرية جدا) في سجن خليج غوانتنامو، حيث نقل أن المحققات قد تجردن من ملابسهن العسكرية وتحرشن بالسجناء، بادعاء طمث كاذب. استخدام النساء هنا وفي سجن ابو غريب قد وصف كتقنية لـ-" كسر شوكة" الأسرى.

وأجادل في هذه الكتاب بأن استخدام النساء في هذه الحالات يعمل كذلك على "أضعاف" [تخنيث] إدراك الجمهور للانتهاك والتعذيب. وتقدم برامج تلفزيونات آخر الليل ذروة التقارير بشأن استخدام النساء للجنس لغرض إساءة معاملة السجناء. وسرعان ما أدرك الجمهور في هذه الصور صورة المرأة المهينة المألوفة في الثقافة الشعبية والفن الإباحي. فصورة المجندة لندي انكلاند وهي تمسك بسير ملفوف حول عنق معتقل عراقي، والسيجارة تتدلى من فمها، سببت صدمة ورعبا دوليا، و أشعلت مجددا الجدال بشأن حضور المرأة في الجيش.

- هل تنال المرأة اهتماما إعلاميا أكثر من نظيرها الرجل ؟

كيلي: كما ذكرت مسبقا، فقد اختطف خمسة عشر بحارا بريطانيا، لكن الميديا ركزت بشكل حصري على المرأة الوحيدة بينهم. وبرغم أن الكثير من الرجال قد اشتركوا

اغلفة كتب المفكرة كيلي اوليفر

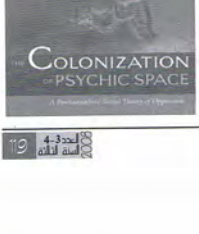

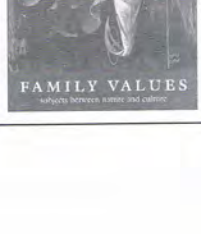

في انتهاكات ابو غريب، إلا أن صور النساء (لندي انكلاند وصابرينا هارمان) قد جرى تداولها عبر العالم. مقارنة مع لندي انكلاند فان ما سمي برأس العصابة جاركس كارنر بالكاد قد ذكر في الصحافة. بدلا من ذلك، فان الصحافة والجمهور قد فتن بالفتيات المراهقات المبتسمات وهن يظهرن علامات المرح والظفر على أكوام العراقيين العرايا أو السجناء الذي اجبروا على أداء أفعال جنسية، ونادرا ما نسمع عن جندي قد أساء التعامل مع سجينات، وكان الأمر عملا طبيعيا.

كذلك لم نسمع عن المجندات اللواتي اغتصبن و أسيء إليهن جنسيا داخل الجيش، برغم أن الدراسات الأخيرة قد أظهرت بأن نسبة إساءة المعاملة عالية. لذا، فان الإجابة عن السؤال، هي، نعم وكلا: هناك تركيز إعلامي أكثر على المجندات عندما يكن عنيفات ويسئن التعامل، وبالتحديد جنسيا أو عندما يفسر حضورهن على أنه علامة على الضعف أو الانكشاف كما في قضية البحارة البريطانية فايا تيني أو جيمكا لانج، حيث قال أحد المعلقين أن اختطاف فايا تيني قد جعل البحرية البريطانية تبدوا مثل "إمعة، شخص ضعيف وعديم الفعالية" ذلك الذي "يضع الأمهات في قوارب مع رجال أوغاد" بينما "الرجال المسلمون ينقذون، النساء ويلبسوهن حجابا مزهرا". لكن هناك القليل من الاهتمام الإعلامي بالأوضاع اليومية للنساء في الجيش. فهن لا يخاطرن بحياتهن في جبهات القتال حسب، بل كذلك يعرضن أنفسهن للأذى الجسدي داخل وحداتهن.

لماذا تقولين أن الحركة النسوية تلعب دورا إشكاليا في غزو العراق وأفغانستان؟

كيلي : الحركة النسوية قضية معقدة، فبينما يسعى مناصرو الحركة النسوية لتحرير النساء في عموم العالم، ادرك الكثيرون بأن الاختلافات الثقافية بين النساء في العالم تعني أن الحرية ستأخذ أشكالا مختلفة. وبينما قد يؤول لبس الحجاب على أنه شكل من أشكال الاضطهاد، فأن النساء في البلدان المسلمة قد يرين في مراسي الحركة النسوية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة اضطهادا مبطنا. وفي الحقيقة بالإشارة إلى غياب حريات المرأة في أماكن أخرى، نحسن نتكر الطرق التي تحجم فيها النساء في البيت، حيث مراسي الحركة النسوية تقود المراهقات إلى اختلال النظام الغذائي، يحاول رجال الدين المحافظين منع الفتيات الشابات من استخدام وسائل تحديد النسل ويقيدون الإجهاض، وتستمر النساء في تحمل حصة الأسد في رعاية الأطفال، فيما تستعين الأمهات بالكافيين وأقراص النوم لإدامة جداول أعمالهن المزدحم. الذي يستر عي اهتمام هاهنا، أن المحافظين السياسيين يستخدمون أهداف الحركة النسوية عندما يجدون ذلك ملائما لهم. مثلا، تتحدث إدارة بوش عن تحرير ما تسميه "النساء من ستار " في أفغانستان. وكانت حقوق المرأة جزء مهما من الخطاب الذي يبرر غزوي العراق وأفغانستان. كما نعرف الآن، فان النساء في العراق أقل حرية في الحركة عما كنّ عليه في زمن حكم صدام حسين. فقد أجبرت الكثيرات منهن على ترك أعمالهن ووظائفهن أو الذهاب إلى المدارس خشية الأذى الجسدي أو الاختطاف.وكذلك المثير في الأمر أن الحجاب قد أصبح في الغرب رمزا لاضطهاد المرأة، حيث بات أكثر أهمية من التعليم أو الموقع الوظيفي لقياس حقوق المرأة. وأصبحت حرية المرأة تقاس بحقها بحمل السلاح وحرية السوق. والأمر الجدير بالملاحظة في قضية اختطاف البحارة فايا تيني أن الكثير من الغضب الشعبي والإعلامي كان على خلفية أنها قد أجبرت على لبس حجاب عندما كانت في الاحتجاز . والصور التي تم تداولها بعد إطلاق سراحها تظهرها تحمل حجابا مزهرا بين الإبهام والسبابة كما لو أنه خرقة قذرة.

كتبت إحدى المؤرخات النسويات البريطانيات أن "الثوب السيئ المظهر والحجاب" جعل تيني تبدو "امرأة صغيرة، نكرة، مكشوفة وعزلاء". من جانب آخر، فان البعض من عضوات الحركات النسوية في أفغانستان والعراق يرتدين الحجاب كبيان احتجاج ضد الغزو الأمريكي. ان الوشاح والحجاب رموز قوية تحفز ناشطات الحركة النسوية على كلا الجانبين.

-هل المهجرات الانتحاريين ضحايا للأديان البطريركية أو هن قاتلات شريرات؟ كيلي: هذا سؤال معقد. فبعض مناصري الحركة النسوية يذهب إلى أن الثقافات البطريركية الجائرة التي لا تترك خيارا آخر تدفع المهجرات الانتحاريات إلى تلك المواقف. مثلا، في كتابها "جيش الزهور" تشير بربارة فكتور إلى أن الانتحاريات الفلسطينيات متبوذات في ثقافتهن التقليدية بسبب الزيجات الفاشلة والطلاق وعدم القدرة على إنجاب الأطفال وغيرها من "الكوارث الغرامية" كما تدعوها المحللة النفسية الفرنسية جوليا كريستيفا. وتتساءل بربارة كيف يمكن أن تتحول "حالمات الحياة" إلى "ماكنات قتل"، لكن تأويل أفعالهن العنيفة فقط كنتيجة لوضعهن الهامشي داخل مجتمعاتهن ينكر قوتهن الفردية ويصورهن كضحايا مجردة. وكذلك من المهم أن نعترف بأن تفجيراتهن هي أفعال سياسية في مسرح الحرب.

مرة أخرى، أشير إلى أن التغطية الإعلامية للمفجرات الانتحاريات قد ركزت انتباه الميديا عليهن مقارنة بستفجيرات نظرائهن الرجال. وذلك ليس فقط لقلة عددهن بل بوجه من الوجوه يعود ذلك لحقيقة إنهن شابات وأمهات ويبدو تفجيرهن لأنفسهن ولآخرين أكثر صدمة لنا من عنف الرجال.

البعض من قيادات الجهاد الإسلامي قد بدأ بتجنيد النساء تحديدا بسبب يسر عبورهن نقاط التفتيش بتسريحة ذيل الحصان أو بابتسامات عابرة أو التظاهر بالحمل. وتناقش تقارير الميديا بشكل متكرر قضية الشابات على إنهن يوظفن أنوثتهن كغطاء لخططهن الإجرامية. وبسبب هذا، فأنهن يصورن كحالات أكثر خطورة من المفجرين الأنتحارين. وكما أوضحت في هذا الكتاب، فان جزء كبيرا من هذه النظرة هو نتاج الأفكار المسبقة المبسطة القديمة عن أجساد النساء والأنوثة كمخاطر متأصلة وطعوم إغواء أو أسلحة سرية. لذا، يجب أن لا يكون مدهشا استمرار النساء في احتلال الموقع الذي بنيناه لهن باستطراد. النساء أصبحن أسلحة، حرفيا يفجرن، وذلك "الشيء الصاعق" أصبح القنبلة...

فوضى اللغة
والبواعث النفسية للعنف الثقافي

nitemare.blogspot.com

اللحظة الراهنة، وسبل وأشكال ظهور منتوج هذه اللحظة وخصوصياتها.

إن تطور الجدل في هذا الموضوع يقود في نهاية المطاف إلى حصر آفاق حركته وحدوده، شئنا أم أبينا، في ثلاثة تعابير لا رابعة لها: احتلال، تحرير، شراكة. وسواء كان الوجود الأجنبي يتجسد في الواقع العملي في صيغة احتلال أم تحرير أم شراكة فإنه يكوّن، بذاته، وجودا ماديا وروحيا متحققا، يلعب دور الضاغط أو المؤثر - سلبا أو إيجابا - على الهوية الوطنية ومكوناتها. وفي هذا الجانب لا نعني بهذا الوجود العراقيين (سياسيين ومثقفين) من مناصري مشروع الاحتلال أو التحرير أو الشراكة. فأولئك، بصرف النظر عن درجة قربهم أو بعدهم عن المشروع الأجنبي، يظلون كيانا غريبا على الذات الفاعلة. أي أنهم كيان يقع وجوده الموضوعي خارج الإرادة الأجنبية - ولا يعني خارج مناقعها وخططها - ولكن خارج إطارها كذات مقررة وصانعة لوجودها الخاص. سيقول قائل: مثل هذه الأسئلة لم يطرحها المواطن القطري وبلاده تعدّ مركزا قياديا للقوات الأجنبية؟! والجواب هنا هو أن المحتل، أو المحرر، أو الشريك، هو الذي يصوغ المعادلات الثقافية الخاصة به، لا نحن. وسواء امتلك المواطن القطري المقدرة على التساؤل أم لا فإن الذات المهيمنة هي التي تصوغ معادلات الوجود الخاصة بها. فهي لا تستطيع أن تتجاهل الموروث الثقافي للمجتمع المعني، الذي امتد تكوينه لآلاف السنين، فضلا عن تطور البنية النفسية - الاجتماعية وآليات بناء مراكز السلطة في المجتمع الذي تتعامل معه. فالعراق لم يكن مجتمعا سكونيّا قط، بل كان مركزا ومحركا وقائدا لحركة التوازن العالمي على مدى حقب طويلة، في الفترة السابقة لسقوط الحضارات القديمة وفي العصر الوسيط. أما تأريخه القريب فهو مشحون بالمقاومة، التي لا يستطيع نكرانها حتى أغلظ قادة الاحتلال. كان بمقدور الولايات المتحدة احتلال العراق، بتأييد من البشرية كلها، عقب هزيمة القوات العراقية في الكويت. لكنها لم تفعل ذلك لأسباب تتعلق بالدرجة الأساسية بموضوعنا: مقدار استجابة الجسد العراقي لوجود قوة جديدة وجودا مباشرا، قوة لها قيمها ومثلها ومصالحها وأساليبها ومزاجها أيضا. إن قوة جبارة بحجم الولايات المتحدة الأميركية قادرة على سحق العراق عسكريا، وقادرة على هصر وعصر واستحلاب إرادته السياسية، وتفكيك بنائه وإعادة تركيبها، لكنها غير قادرة على تجاهل العنصر التأريخي المكون لهوية المجتمع. إن أبسط عراقي يلهج يوميا بعبارة "العراق العظيم" الزائفة، وينطقها كحقيقة قائمة على الأرض. كيف يتقبل عقل كهذا أن يكون محكوما بإرادة أجنبية، وهو على هذه الدرجة من العظمة؟ هذا إشكال ثقافي، نستطيع تجاهله، لكننا سنصطدم بتناقضاته ونغدو جزءا من هذه التناقضات لو جرؤنا على مواصلة التجاهل. وهو ما لا تفعله القوة العظمى، بل تفيد منه سلبا وإيجابا. تفيد من جانبه الزائف ليبث مشاعر الرعب والتخويف وما يرافقها ويتبعها من تعامل بالغ الفظاظة بـ"ضمير مستريح"، وتفيد من هشاشته لزرع الإيمان الكاذب بالذات الفارغة، المتخاصمة مع نفسها، المستلبة من الداخل. كيف يتحالف الأميركي مع طيف سياسي إسلامي عراقي معين وينأصب دولة جارة العداء، وهما يحملان الفكر السياسي والمذهبي ذاته؟! إن الولايات المتحدة ليست قوة عبْية، يخدعها هذا الهاوي السياسي "الشاطر" أو ذاك، كما يشيع الإعلام الأميركي عند انكشاف كل فضيحة. إن الإرادة السياسية الأميركية هي إرادة أمة قائدة، وحيدة تحكمها العالمي، في أوج عظمتها وفي نشوة انتصارها على خصمها وندها الأشرس تأريخيا، عدوها الشيوعي. لذلك فهي تمثل إرادة واعية، متبلورة في نتوعها ووحدتها الداخلية، لا ينجو من تأثيرها مقاوم أو مناصر أو شريك. إنها قوة ثقافية ومنهج للقيم والمفاهيم والمعتقدات إلى جانب كونها قوة عسكرية واقتصادية. فما تأثير هذه القوة على الواقع الثقافي العراقي، سواء اعتبرنا هذه القوة محتلا أم محررا أم شريكا.

سنتوقف هنا على مشارف الجواب، ولا نتوغل في

الإجابة. سنتوقف عند موضوع العلاقة بين المرحلة الراهنة واللغة، ونصوغ الإشكال بالسؤال التالي: كيف أثرت هذه الحقبة على سبل وطرائق التعبير اللغوي والخطاب الثقافي، بصرف النظر عن صحة صواب أو خطأ هذا الخطاب سياسيا وأخلاقيا؟

إنه سؤال يتعلق، كما نرى، بمعرفة الهوية، وبمعرفة الذات، أي بمعرفة من نحن. فمن نحن حقا؟ وما خصائص هذه "النحنية" الثقافية التي نتمتع بها، وما أساليب التعبير عنها؟

إن الولادة القيصرية لنهج إسقاط السلطة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية لم تجلب للمجتمع العراقي ثقافة غريبة في هيئة مفاهيم وقيم سياسية وأخلاقية فحسب، بل صنعت أيضا نموذجها الثقافي الخاص والهجين، غير المألوف وطنيا. وهو نموذج تجميعي، مركب تركيبا فجّا، متعجلا، يضم في ثناياه مساوئ الكثير من الأيديولوجيات القائمة والمنقرضة. إن ولادة هذا النموذج تؤشر على نحو جلي إلى أن المجتمع العراقي أنتج ثقافيا ما كان يراد منه من قبل القوة (الذات) المهيمنة. وعلى الرغم من هشاشة، ووقتية، وشذوذ هذا النموذج، إلا أنه نموذج يستحق المعاينة والتفحص، لأسباب عديدة، أولا: لأنه، في ملامحه الخارجية وتنظيراته الدعائية الشكلية، جزء من ظاهرة جديدة على المجتمع العراقي. ثانيا، لأنه اقترن بتيارات سياسية محددة، حاول جاهدا أن يكون، زورا وصدقا، وجهها الدعائي الجديد. ثالثا، إن هذا النموذج، في محتواه وجوهره، جزء من بقايا ميل ساد المجتمع العراقي في فترات انكساره التأريخي كافة، وظهر بأوجه وأقنعة مختلفة على مر العصور. رابعا: إن الأخطار النفسية والأخلاقية التي يحدثها هذا التيار عظيمة. وعلى الرغم من خطورة هذا التيار فلا تكمن قوته الذاتية في طاقاته الخاصة، لأنه على درجة عالية من التهافت والضعف الداخلي كمكون، لكنه يغدو قويا ومؤثرا حينما يتحد بمؤسسات العنف المرتبطة بالإرادة الأجنبية وبالتيارات المحلية ذات المشاريع المعادية للمصالح الوطنية العراقية، فيصبح قوة قمع إضافية، محليّة، تستند عقليا وروحيا الخطط التدميرية للقوى المعادية لوحدة واستقلال القرار السياسي والثقافي العراقي، وينضح بشكل مدروس ومنهجي خطط تفكيك الهوية التأريخية الوطنية. إن تتبع خطى هذا النموذج منذ ولادته، ورسم ملامح واضحة، مجسمة، هي الوسيلة الوحيدة الممكنة، التي تجعله موضع رصد ودراسة وتحليل ونقد.

إن الترابط بين الظواهر السياسية وما يرافقها أو ينتج عنها من ميول ثقافية لا يأخذ دائما طابعا مباشرا. لأن الثقافة تتميز بمقدرتها العالية على التمويه والتقنيع، وقلما تظهر وجهها سافرا. بيد أن عنصر التكرار، والنتائج المترتبة على السلوك الثقافي، تشير دائما إلى اتجاهات الظواهر وتحدد مواقع ارتباطها بالأصل الذي نشأت منه. إن عنصر التكرار يؤكد أن ما يحدث لا ينحصر في الأفراد، بل هو جزء من ظاهرة أشمل، تتجاوز حدود المثقف، ككيان معزول، فما يحدث الآن هو تجديد لذروة العنف الروحي وما يلازمها من غطاء ثقافي، التي ولدت في رحم الأنظمة الاستبدادية كافة، يعاد بعثها بثوب جديد ويتم توظيفها ثقافيا لمصلحة مستبد جديد.

"في شارع السعدون
يسقط وجه الصنم البارد
يرشقه الصغار بالحجارة"
(فاضل العزاوي)

أية منفعة يجنيها المرء من إعادة قراءة كلمات فاضل العزاوي الشعرية المشاعة هذه؟ فمن لا يعرف حكاية الصنم الذي سقط في شارع السعدون ورشقه صغار وكبار بالحجارة! بيد أن مزيّة هذا النص تكمن في حقيقته التأريخية. فقد كتب قبل ما يقرب من أربعين عاما على سقوط الصنم الأكبر في ساحة الفردوس. ظهرت نجمة المجوس تلك ضمن نص اسمه "طيور في معطف الليل"، كتبه العزاوي بين عامي 1961و1965. إذاً، نحن على أرض العراقية! فمرحبا بنا في ربيع العراق!

حينما نقترب من التربة العراقية، تغدو علاقة اللغة بالعنف أكثر وضوحا، لكنها ليست أقل تعقيدا والتباسا. ففي العراق تتواجه قوتان عنفيّتان، معروفتان بشدة ميلهما إلى القسوة، وباستخدام الفظاظة كنهج سلوكي وأخلاقي، وأعني بهما: السلطات العراقية المتعاقبة والإدارات الأميركية المتعاقبة. لهذا السبب أخذ العنف في العراق طابعا وحشيا، مفرغا من القيم، فاق كل تصور. فالمجتمعان المتقابلان: الأميركي والعراقي، يستخدمان موروثهما التأريخي من العنف، وأكاد أجزم فأقول يتبادلانه، ويوظفانه، يستنافس أو تناغم خفي وعلني، ضد مصلحة المجتمع والإنسان العراقي، وضد المصلحة التأريخية الأميركية والإنسانية عامة، بعيدة المدى. لقد أثبتت السنوات المنصرمة إن المجتمع العراقي غير قادر بعد على قلب المعادلات الثقافية التي سادت لعقود طويلة، والتي لعب فيها الإعلام والأدب والفن دورا شاذا، من طريق تثبيت وتقوية الميل العنفي، بدلا من الوقوف ضده ومواجهته. ومن ينظر في سبل استخدام مفهوم الاحتلال في حقبتي صدام وحقبة الاحتلال الأميركي يصل إلى نتيجة غير سارة تؤكد أن السياسيين والمثقفين العراقيين يستخدمون، بابتذال تام، كلمات كبيرة كالتحرير والحرب والحرية والوطن والديموقراطية والإرهاب والإصار والاجتثاث، وحقوق الإنسان، والمجتمع المدني. وتبين المقارنة اللغوية التأريخية، ان الكلمات التي استخدمت في مرحلة الديكتاتورية يُعاد استخدامها الآن بالمعزى والمحتوى نفسه. أي ان هنالك تواصلا، في الثقافة والممارسة السياسية، لا انقطاع فيه، يستثمر ثقافة العنف وما يلازمها من لغة تقوم على الشحن العاطفي السلبي، لمصلحة مشروع العنف الدولي والمحلي. فالعنف لم يزل، كما كان في حقبة الديكتاتورية، يُستخدم كمرجعية ثقافية وأسلوب لإدارة الحياة، وكنمط للعلاقات القائمة بين الأفراد والجماعات وبين مؤسسة الحكم والمجتمع، بصرف النظر عن الشعارات والأماني والنيّات.

أوطان افتراضية: الوطن نحن!

كيف ترسم اللغة صورة الوطن؟ وكيف يتم بناء الأوطان بالكلمات؟

حينما تقوم اللغة بتقزيم واختزال الوطن إلى عبارة موجزة (وطن صدام) و (عراق صدام) كما فعل مريدو مشروع الحرب الأميركية، أو حينما نقوم بتزييف

وصلقة صورة الوطن، مثلما فعل أدب حقبة صدام حسينما روّج لفكرة "العراق العظيم!" و"عراق الحضارات" تنتفي الحاجة إلى وجود وطن حقيقي، واقعي، وأرضي. فالوطن هنا يتجاذبه قطبان زائفان، متناقضان شكلا، متشابهان جوهرا، لا يرتبطان بواقع الحياة وحقيقتها.

مثل هذا الوطن يمكن استباحته من قبل كل من هب ودب، ويمكن التأثر منه بتعليقه علنا على أعلى مشنقة. تلك الأوطان زائفة، صنعتها إرادات مغشوشة. إن صورة الوطن تتشكل من اتحاد الجداول وهي تصب في النهر الكبير، ومن اتحاد قطرات المطر وهي تصب في الجدول، ومن أصغر ذرات البخار، التي تصنع بكثافتها غيمة الوطن الروحية. حينما انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة النازية تنادى مثقفو ألمانيا إلى إعادة إحياء الثقافة، ووضعوا شعارا أسموه "سنة الصفر"، أي عام البداية التأريخية الجديدة، كمحاولة لإعادة تأسيس الروح المعزق والوطن المحطم.

أما في العراق، فإن الصفر الثقافي بدأ على نحو غريب وشاذ، عكس حجم الدمار في الذات الوطنية، وحجم الاستباحات الروحية التي خضع لها المواطن. إن المقارنات الحسية مفيدة هنا، لأنها تعطينا صورة عن أنفسنا، وتجيب عن السؤال الذي نجيد إهماله: من نحن؟ ولكي تكون المقارنات أكثر عيانيّة، ندعو القارئ إلى قراءة هذا النص، وسنفترض أن كاتبا يابانيا كتبه عشية الهجوم الأميركي على ناكازاكي وهيروشيما:

"إعصفي بهم يا أميركا، واتركيهم غبارا عالقا بالتأريخ. وأعيدي اليابانيين من حيث أتوا. حيث البحار نسيان. دعي القنابل تدوي بين جماجمهم. والمدافع تثور. ولا تتصتي لأحد. اليابانيون يستمتعون. والشعراء مخانيث. وغو غاؤنا وجوه لا ترى إلا عند كل سوأة. عليك بهم يا أميركا. فصالتهم فحيح. وقبلتهم الخراب. إعصفي بهم يا أميركا. وأعيدهم من حيث أتوا. إلى الأخرة. من أجل بيرل هاربر. الآن قبل الأوان".

وهذا نص آخر لشاعر، سنفترض أنه ألماني، يكتب نصه عشية الدحار قوات هتلر:

"ليلة البارحة... انتابني شعور بالحقد والكراهية ضد هتلر وزمرته بعد أن تابعت على الشاشات صور أسرى الحرب الأميركان! حاولت أن أسأل نفسي لماذا لم ينتابني هذا الشعور وأنا أشاهد العديد من أبناء وطني الألمان وهم يقتلون أو يدفنون تحت أنقاض الصواريخ الأميركية" (النصان تمت استعارتهما من مقالة بعنوان العهر الأخلاقي والثقافي، بقلم علي رشيد) «وهذا نص لشاعر أميركي يصور مشاهد النهب والفرهود التي حدثت عقب إعصار اوكلاهوما: "ثقلت التلفزيونات الأميركية والأجنبية بصورة مباشرة، وبالألوان مشاعر الشعب الأميركي، ولكن المراسلين لم يفوتوا الفرصة أيضا للنكاية بالشعب الأميركي، فهذا يقول: نهب للمحلات والمتاجر، فيما الصورة من وراء ظهره، تظهر المواطنين الأميركيين يسلبون مبان حكومية بحتة".

وهذا شاعر فيتنامي يعيش في لندن يقول: "أن الأوان أن تتزين ساحات سايغون بنصب الجنود الأميركيين المحررين!".

يتساءل بعضهم: من صنع صدام؟ الجواب عن هذا السؤال يوجد في تلك النصوص. النص الأول قصيدة كتبها في 17-3-2003، عشية الهجوم الأميركي على وطنه، شاعر عراقي رقيق وحساس، أحب أن يرى وطنه حرا. والنص الثاني انطباعات عاطفية نثرية، نشرت في المناسبة ذاتها لشاعر حداثي. حينما نتساءل: من صنع صدام، وحينما نقول ان تلك النصوص تجيب عن ذلك، فهذا يعني أننا لا نقف عند حدود النص وقائله، وإنما نذهب إلى متلقيه في المقام الأول. فكم عدد الذين أحسوا بالخزي عند قراءة هذه النصوص المؤذية للمشاعر السويّة؟ هنا يوجد الجواب الأبدي عن السؤال الأزلي: من صنع صدام، ومن منح الغزاة والسياسيين حق العبث بدماء أبناء شعبنا؟ إضافة إلى السؤال الأهم: من نحن؟ فلو أن هؤلاء الشعراء كانوا حقا من اليابان وألمانيا وفيتنام وأميركا، لأودعوا أقرب محجر نفسي، ولتلقفتهم مدارس الأبحاث العلمية كعينات فريدة، غير قابلة للتكرار، وكشاهد حسي على حالة عاطفية تقف في تعارض تام مع نواميس الطبيعة: شاعر يطالب بتفجير جماجم أبناء جلدته، وآخر لا تنتابه مشاعر الحزن وهو يرى أبناء شعبه يحرقون بالصواريخ، وثالث يطالب أبناء وطنه المحتل أن يقيموا نصبا لمستعبديه، ورابع يمجد نهب ممتلكات الدولة، التي كان، قبل أشهر فحسب، يمجد حروبها وقادسياتها!

وإذا تركنا السياسة والحرب واتجهنا إلى الرياضة، وهي مجال خال من القسوة السياسية، نعثر على الخبر

الوطني الآتي": خبر رياضي- البديل العراقي 14-12-2006.

بعد فوز قطر على إيران هل سيفترس أسود الرافدين الذهب الأسيوي؟ فهل سيجترح أسود الرافدين المعجزة ويفترسون الذهب الكروي للدورة الآسيوية الخامسة عشر؟! ما حققه الأسود العراقيون حتى الآن من انجازات يعجل من الممكن تماما التفاؤل بنيل الفريسة الذهبية!!".

أما المدى الرياضي فتنقل لقارئها الخبر التالي: الأسود تفترس الأحمر العليل وتتأهب لموقعة (بوكيت جليل) السفاح يجمد الدماء في عروق الفيتناميين.. وفيرا ينزع أسلحة ريدل بالقطعة. (المدى 22 يوليو 2007). أسود تفترس، ونزع أسلحة، وتجميد دماء، وموقعة، وفريسة، وسفاحون. هذه الكلمات البربرية غدت أهم مفردات القاموس الرياضي، وأهم تعابير الفخر والمديح الوطني.

فالمباراة أضحت موقعة حربية، والمنافسة الرياضية نزع أسلحة، والرياضيون حيوانات مفترسة، وحتى بطل الكرة الوديع، يونس محمود، أرغموه على أن يحمل إسْم أسداء الدلو: السفاح!

ماذا أبقى شعرانا وكتابنا لمرتزقة الماء الأسود؟ وهل يعرف شعرانا وكتابنا أن جلادي أبي غريب ما كانوا يجهلون أننا نملك مثل هذه المشاعر الشاذة نحو أهلنا وأبناء وطننا. لذلك كان من المرجح أن يصبحوا حمقى، في نظر أنفسهم، لو أنهم لم يبادروا إلى التمتع بكرمنا البربري.

إن الآخر يرانا بعيوننا، ويرى وطننا من خلال الصورة التي نرسمها نحن لشعبنا، ويتعامل معنا على ضوء الصور التي نعلن بها مشاعرنا وأفكارنا. فالوطن هو نحن، نحن بخيرنا وشرنا.

مخيلة العنف: من النفسي إلى السياسي وبالعكس

حركة العنف الداخلي والخارجي، الجسدي والنفسي، الذاتي والاجتماعي، الآني والتاريخي، السلوكي والشعوري يحكمها في الحياة الاجتماعية والممارسة اليومية، قانون محدد، يقوم على تبادل التأثير، وتبادل الأدوار، والانتقال الدائم من النفسي إلى الاجتماعي، وبالعكس. فالنفسي يُوظف لخدمة الاجتماعي. والاجتماعي يتعهد النفسي والفردي بالرعاية والتهذيب والصقل والإعداد للممارسة العامة. أي يتولى مهمة تحويل الفعل من سلوك فردي وإحساس ذاتي إلى وظيفة عامة. وفي المقابل يقوم الفردي والخاص والشعوري باستغلال الحماية أو المدافع أو التطمينات العاطفية والمادية المقدمة من قبل الجماعة، ويجتهد ويتفنن في سبل عرض ووضع المؤهلات الفردية في خدمة الجماعة. هذا التبادل هو سر وقانون العلاقة التي تحكم، وفق آليات شديدة التعقيد، الصلة بين الفردي والاجتماعي، الخاص والعام، ومنها نشاط الأديب والفنان كمنتج للقيم والمؤسسة كحاضن ووسيط ومحتكر للملكية الثقافية. إن المؤسسة، التي تعد الطرف الأقوى في معادلة الواقع، تسعى، بكل ما أوتيت من قوة وحيلة، إلى احتكار شراء المؤهلات النفسية، كسلعة، ثم تقوم بعرضها للتداول اجتماعيا، عبر قنواتها المختلفة. والمؤسسة لا تهتم بالتفاصيل والفروقات الفردية، بقدر اهتمامها بالأهداف الأساسية. ويتعاظم غض الطرف عن الفردي والخاص كلما كانت القوة المحتكرة أكثر ميلا إلى النفعية السياسية، أو ما يعرف بـ"البراغماتية". أما النظم الشمولية، فتعنى بالتفاصيل وبالجزئيات، التي تعتقد أنها رموز إشارية، حسية وعاطفية، دالة على الهدف الأساسي، فتميل إلى التطابق والتماثل الشكلي. وهي لذلك أقل مقدرة على الحركة الحرة، لأنها تهدر جزءا كبيرا من طاقاتها في سبيل خلق التماثل والوحدة الخارجية المظهرية. تبين لنا الكثير من النصوص التي تناولت موضوع العنف من وجهة نظر معادية للعنف، كما يعتقد أصحابها، أن هذا التيار، على الرغم من عدائه الظاهري للعنف، إلا أنه لم يزل من حيث الجوهر جزءا من مكونات ثقافة العنف والميل العنفي السياسي، ولكن بأقنعة جديدة. إن إرادة العنف تنقسم إلى قسمين رئيسين، الأول: العنف المادي (الجسدي) ممثلا في

القتل والتدمير المباشر، والثاني: العنف المعنوي ممثلا في أمثيات العنف ومخيلة العنف ومشـــاعر العنف وطرائق التعبير اللفظي عن العنف. ومثل هذا التقسيم كان قائما أيضا في ثقافة العنف الديكتاتورية، وإن بدا أكثر وضوحا وسفورا حينذاك. لأنه ارتبط، في الأغلب، بأدب رسمي، هو أدب التعبئة الحكومي أو الحزبي، المسايرلحروب السلطة. وهي حروب تمت بصورة نظامية أو شبه نظامية أو بصورة قمع منهجي، وجرى تبنيها علنا كمشروع "وطني" أو حرب "وطنية". لذلك سهلت على الناظر رؤية الارتباط والعلاقة القائمة بين العنف المادي والمعنوي، الثقافي منه خاصة. أما في زمن الحروب الأهلية وتفكك مركزية الدولة يغدو العنف والتعبير عنه أكثر تمويها واللوحة أشد اضطرابا، لكنه لا يقل قسوة وبربرية واغتلالا عن سابقه. وفي الأحوال جميعها يقيم الفردي مع المؤسسة علاقة قوامها عبادة القيم، لا عبادة حائز القيم. وعبادة القيم، كبديل لعبادة الفرد الممثل للقيم (المستبد)، أليق بمرحلة تفتت مركزية وواحدية القرار السياسي. فمنتج القيم العنفية، وإن كان يبيع منتجه إلى كيانات حسية محددة: قائد، حزب، زعيم، إلا أنه يخدم العنف والشر كقيمة مطلقة. إن بائع العنف الثقافي، يبيع منتجه حسيا إلى دولة أو حزب أو جماعة، أو قوة اجتماعية، لأنها المشتري الأول للبضاعة. لكنه ينتج بهدف واحد: بيع منتجه إلى المؤسسة كقيمة رمزية، وليس كقيمة مادية. فهذا النموذج ينتج من أجل الشر لا من أجل سواد عيون الشرير، من أجل الطغيان لا الطاغية. ولهذا فالمنتج الثقافي هنا عبد للشر والطغيان والعنف. أما القائمون بالشر عمليا فيمتهنون حرفة بيع منتوجهم إلى كل مشتر، يفيد من منتجهم، ويجد فيه نفعا. وقد أدرك صدام حسين، في مدة إقامته في سجنه، هذه المفارقة القاتلة. فالذين اصطفاهم ليكونوا عيونه الشخصية وعيون أبنائه وكاتمي سر هم، هم الذين وشوا به وبأبنائه. والذين كالوا له المديح ولمشروعه السياسي والحربي لم يتورعوا في إظهار مشاعر الولاء للقوي الذي خلفه. وحينما يضعف المشروع الأميركي والعراقي والطائفي، سيقوم هؤلاء ببيع منتجهم إلى أشرار جدد. هؤلاء عبدة الشر المثقفين، وعبيده.

وإذا كان أصحاب الفريق الأول، العنف المادي، يتمتعون بصفات التحدي، والتهور، والمهارة والقسوة الجسدية، والجرأة، فإن الفريق الثاني، الذين لا تتوافر فيهم هذه الصفات كاملة، يملكون ما يعوضهم عن ذلك: مشاعر العنف، الخيال العنفي، أحلام العنف، والأهم من هذا الرغبة في إشهار هذه المشاعر من طريق التأليف الفني والأدبي أو الإشاعة والوشاية وغيرها من وسائل الاتصال. هذان الوجهان هما وجها ثقافة العنف وقواسمها، أي العنف المادي وغطاؤه الروحي، أو الفعل العنفي (الممارسة العنفية) والتأويل والتخريج الأدبي والفني والعاطفي للعنف.

إن النص العنفي والتعبوي يقوم بإعادة رسم مشهد عنف متحقق، من طريق إضافة لقطات فنية تقوي وتعمق قسوة العنف المادي. أو يقوم بإكمال مشهد عنف ناقص، لم يتم التأكد منه، ويتولى مهمة استكماله بنفسه، من طريق افتراض عنف تكميلي ينجز به صورة العنف المادي الناقصة. وفي المشهدين يقود النصان سلسلة الأفعال المتحققة إلى غايات أبعد من حدود الحدث والواقعة، ويسير ان بها إلى تأويل أيديولوجي لا صلة له بالمشهد نفسه، كحقيقة قائمة على الأرض، وكخصوصية تميز هذا أو ذلك. أي يتم تأسيس تأويل مفترض، قائم على العنف، ومخصص للنيل من جهة أخرى، لا ترتبط مباشرة بواقعة العنف المصورة. فهذه النصوص تحتوي، من الناحية الفنية، على مشهدين عنفيين، لا على مشهد واحد. المشهد العنفي الواقعي والمشهد أو اللقطات المضافة. ولهذه الأسباب يحتوي هذا الضرب من العنف على أعداد إضافيين، لم يظهروا في المشهد الواقعي. فهو عنف مضاعف ومضخم، يفوق في سعته المعنوية وحجم أذاه حجم العنف المادي، المحدود زمانيا ومكانيا وحسيا. فهذا الخيال ملكة تعويضية، سببها خلل ما في التكوين النفسي والعاطفي، ناشئ عن اتحاد سلسلة من الميول الداخلية، الفردية، بالميول الاجتماعية العامة (سياسية أو مهنية أو تربوية أو غيرها). لذلك فهو خيال عصابي، مرضي، يرتبط بمشاعر انتقامية، ويستخدم هذه المشاعر للنيل من آخرين، لا يستطيع الوصول إليهم بالعنف المادي، الذي يفتقده. إن مثل هذه الدوافع المركبة والمعقدة تشكل المحتوى الداخلي، الشعوري، لهذا الفريق، وتمنحه باستحقاق تام صفة السادية المازوخية الثقافية، التي هي مزيج من رغبات عنفية، وتلذذ بالعنف، مقرونة بإحساس بالعجز، والاستمتاع، الأدبي أو الفني، بهذا

العجز. ولهذا تغلب على هذا الفريق نزعة إشـــهار الأفكار والمشاعر، والتباهي بإظهارها، كتعويض عن نقص في الفعل، وتأكيد على صفة الاستمتاع بـالمنجز العاطفي، أي بمكونات الذات الناقصة. وعلى الرغم من إن هذه النماذج البشـرية تبـدو للناظر مجموعة من الأفراد المتفرقين والمبعثرين والمشتتين مكانيا وفكريا وسياسيا، إلا أنهم، كمحتوى معبـر عن ظاهرة، تكوين ونسيج جماعي مقنن. فهذه النماذج الثقافية، في محتواها العام، تشكيلة تأريخية، لها بنيتها غير المترابـطة دائما حسيا، يتم إعدادها وانجازها في أروقة المشغل البشري الكبـير، المجتمع، وتجري الإفادة من مواهبـها في اللحظات التأريخية المناسبة. أما هي فتظل كامنة، مثل البذور البريّة، تحت طبقات التربة، ولا تتفتق إلا حينما تتوافر لها ظروف الإنبات الطبيعية. فربما تكون زخة عنف واحدة كافية لإطلاق آلاف البراعم الوحشية دفعة واحدة، إن هذا الفريق هو التجسيد الحسي لما أسـميناه بنزعة العنف والخضوع. فهو وحدة منسجمة تجمع بين نقيضين في ذات واحدة.

اللغة والواقع من منظور الطير

اضطراب مدلولات اللغة، انحرافها الدائم عن مقاصدها الحقيقية، التواءها ومكرها المفضوح، علامات أساسية من علامات الاستخدام اللغوي في المرحـلة الراهنة. لماذا تفقد اللغة حساسيتها الطبـيعية كوسـيلة اتصال وتصبح وسيلة مبهمة، غامضة، مزورة؟! سبب ذلك يعود إلى علاقـة اللغة بالواقـع. فاللغة كأداة للاتصال تفقد حساسيتها المدلول، حينما يفقد الاتصال مع الآخر معناه الواقعي. لقـد أخذ التعارض بـين الكلمة ومدلولها مسارات عظيمة الشذوذ، لم يشـهدها تأريخ العراق من قبل، وربما لم يشـهدها مجتمع آخر قـط. فحينما نتأمل حركة الواقع، أي فوضاه، نجد أنها فوضى منظمة، كما يقول أصحاب المشروع الأميركي نفسـه. وأنا أتفق معهم في ذلك تماما، خلافا لما يعتقده، طيبة أو نفاقا، بعض الناس، الذين يرون أن الأميركيين مغفلون وقاصرون عقـليا، لأنهم ارتكبـوا أخطاء شـنيعة في مجتمع ممزق لم يخرج بعد من أكبر حرب في التأريخ المعاصر، مجتمع محـاط بـــالأعداء، كما يدعي المحررون أنفسهم. ومن هذه الأخطاء المفترضة ما هو سياسي وتحاصص السلطة، وبـعث وإذكاء النزعات الطائفية والعشائرية والمناطقية وعسكرتها، وتسـييس الطوائف، ومنها ما هو فني وإجرائي خالص، كحـل الجيش، وفتح الحـدود، وعدم إعلان حـالة طوارئ، وإهمال السيطرة على مستودعات الأسلحـة والذخيرة والمعسكرات، والسماح باستيراد السـيارات من دون تراخيص وتسجيل، والسماح بدخول الأجانب، وغيرها من الأمور التنفيذية البـــديهية الملازمة لإدارة فن الحرب. إن اضطرابات الواقع العراقي، تبـدو كما لو أنها بـــعثرة للفعل الاجتماعي، وتشـــتيت للإرادات، وتمزيق للمواقـــف، في نظر من ينظر إلى الوقـــائع كجزئيات منفصلة عن بعضها: سني مقابل شيعي، عربـي مقابـل كردي، تركماني مقابـل كردي، علماني مقابل ديني، مقاومة شريفة مقابل مقاومة غير شـريفة، وفي النهاية: عملية سياسية مقابـل عدم الانخراط في العملية السياسية. أما اللاعب الأكبـر، والراسـم الأساسي للوحة السياسية، فهو يرى الصورة من منظـور آخـر، مـن منظور الطير. فإذا كانـت العمليـة السياسية تعني المشاركة في سياسة السلطة، في نظر مؤيدي الحكومة، فإن هذه العملية السياسية تعني شيئا آخر في منظور اللاعب الأساسـي، مصمم المشـروع كله. فهي أكثر شمولا، تسري على جميع اللاعبين، الذين يقفون مع سياسة الســلطة أو الذين يقـفون خارجها وضدها. لأن العملية السياسـية وطنيا هي حـصيلة صراع وتنافس وتصادم مصالح بين حاكم ومحكوم، غالب ومغلوب، منتصر وخاسـر. بهذا الوضوح وبهذه العقلانية ينظر مهندسـو "الفوضى الخلاقة" إلى الواقع، الغامض في نظر مثقفينا. أي إنهم أكثر تبصرا بالشؤون الوطنية في نظرتهم للواقـع من السياسيين العراقيين أنفسهم وأكثر واقـعية من منظري الاحتلال والتحـرير. لذلك أصيب الجميع، بـمن فيهم حلفاء الأميركان، بدوار سياسـي خانق ومزمن، وهم

يشاهدون حركة الواقع المتداخلة والمضطربة: العلماني يختلط بالطائفي، والطائفي يختلط بالقومي، والإرهابي ينتقل بطرفة عين من صفوف المجرمين "الإرهابيين"، "المطلوبين" إلى صف الصحوة الوطنية في نظر السلطة والمحتلين، ومن "مقاوم شريف" إلى خائن في نظر خصومها. وينتقل المجتث من عضو في عصابة الـ55 إلى "عسكري محترف وحافظ للتوازن الوطني"، في نظر من حلّ الجيش بأكمله من دون أن يقيم حسابا للـ"التوازن الوطني". رئيس أعلى للنزاهة الوطنية يصبح "مطلوبا" في نظر خصومه، ومضطهدا في نظر أصدقائه، ووثيقة تُلعب بمصائر الجميع، بما فيه مصيره الشخصي، في نظر القوة التي تسير مشروع الفوضى. وهنا لا نود أن ننقل حركة التنقل بين الأفراد، كانتقال وزير بطرفة عين من السلطة إلى المقاومة الشريفة، أو بالعكس، أو انتقال صاحب مشروع ثقافي من قطب إلى قطب. مثل هذا لا يحصى. فذلك كله يشير إلى أمر واحد: تبعثر واضطراب وشذوذ حركة الواقع وفقدانها للمنطق الداخلي، الذي يربط نسيجها. لأنها كما أسلفنا لا تنتظم وفق مقياس داخلي، وإنما يتم تركيبها خارجيا من طريق منطق مفروض عليها من خارجها، تم تصميمه لمصلحة اللاعب الأكبر: الاحتلال ومشروع الفوضى الخلاقة.

إنها فوضى حقا، هذا أمر لا ينكره أحد، فحتى رئيس الوزراء يمكن أن يصبح أخطر من القاعدة، حينما يُراد ابتزازه سياسيا! لكنها فوضى خلاقة بحق: لأن الجميع، الحاكم والمحكوم، مجرد أجزاء في لعبة الفوضى. فهي إذاً خلاقة حقا، وربما أكثر من خلاقة.

في ظل هذه الفوضى، العميا داخليا، والخلاقة خارجيا، فقدت اللغة قوانينها الداخلية أيضا، وذهبت تستجدي المعاني، وتنحت التعابير الشاذة، المزورة، التي تعكس شذوذ حركة الواقع. وظهرت علامات هذه الظاهرة واضحة على نصوص الكتاب والمثقفين، أكثر من ظهورها لدى المواطن العادي، الذي مال في الغالب إلى طريقتين للتعبير: الصمت خرسا، أو التعبير عملا عن طريق الفعل.

الصمت خرساً، أو التعبير عنها عن طريق الفعل. وبذلك انفتحت الأبواب على مصاريعها أمام الكتّاب، فراحوا يتولون مهمة نقل وترجمة هذه اللحظة الفوضوية في تأريخنا. ولم تكن الحصيلة سوى إنتاج لغة فقدت كل رابط يربطها بالمنطق، وفقدت مقدرتها على أن تكون لغة اتصال، وأضحت لغواً يهدف إلى كسب لحظة آنية مفضوحة الأغراض، أو لغواً عبثياً يحاول تبرير ما لا يمكن تبريره. وفي أحوال كثيرة غدت أداة للاستجداء، والعنف الروحي، والتعبير عن النوازع الأنانية، الوضيعة. وكما ظهر أبطال عنفيون ينتقلون من صحوة إلى صحوة، ومن مقاومة إلى مقاومة، ومن سلطة إلى سلطة، ومن تحالف إلى تحالف، ظهرت نصوص تنتقل من مستنقع إلى مستنقع، ومن دهليز إلى دهليز، ومن رطانة إلى رطانة. وظهر معها فانون، ومتفنون في مجال الفصاحة، يتباهون علناً، بمهارتهم العقلية واللغوية الشاذة، ويعرضونها على الملأ، على أنها بضاعة الموسم الثقافي. فوضى الواقع أنتجت فوضى القيم، وفوضى المعايير، وفوضى الأحكام، وفوضى المنطق، وما يرتبط بالأخيرة من سبل للتعبير والاتصال، أي أنتجت فوضاها الخاصة: فوضى اللغة.

دور الكلمة في الخطاب الإعلامي

لا توجد كلمة بريئة وأخرى أقل براءة في علم اللغة. فالكلمة مجرد تتابع لصور الحروف عند الكتابة، وتتابع للأصوات عند النطق. لكن اللغة، كوسيلة إشارية متطورة، تشترط معنى الاتصال بالآخر، لأنها مرسلة دائماً إلى جهة ما، حتى لو كانت في هيئة خطاب داخلي موجه إلى النفس أو إلى ذات غير مرئية. وانتقاء القصدية المرتبطة بالاتصال يلغي وظيفة اللغة. لأن الاتصال هو الشرط الأول لوجودها. ويمكن لنا تسمية الدلالة القصدية للكلمة بالمعنى. وهو الجزء الذاتي المتعلق بوجود فكرة معينة تربط الكلمة بمفهوم دلالي محدد، يتصل بالمنفعة أو الفائدة المرجوة من الاستخدام. وبصرف النظر عن المعنى، لكل كلمة مرجعية تحدد موقعها في الواقع. فإذا كانت كلمة "نخلة" تستند مرجعيتها من أشجار النخيل الموجودة في الواقع، فإن كلمة "حورية" تستمد مرجعياتها من موضع آخر، من التجربة العقلية والنفسية والثقافية. ويعتقد علماء اللغة أن كلمة "حورية" خالية من المرجعية، لعدم وجود حوريات في الواقع. وهناك من يرى أن هذا الضرب من الكلمات تتعدم فيه المرجعية الحسية المباشرة، لكنه يستمد مرجعياته من المخيلة، التي ترسم شكلا حسيا ما، قد يختلف من شخص إلى آخر، أو من مكان إلى آخر، لكنه يصبح مع مرور الأيام شكلا مفترضا، يُجمع عليه قدر معين من الناس، أي يغدو مرجعا ذا شكل متخيل، لا أساس له في الواقع الحسي. كلمات جنّي، وعفريت، وشيطان تخلو من المرجعية، وقد تتخذ هيئات مختلفة يجمعها رابط أساسي واحد دائما: القدرات السحرية عند الجنّي، والقدرات الجسدية عند العفريت، وطاقات الشر عند الشيطان. بيد أن كلمات أخرى لا تملك ارتباطا بمرجعية حسية في الواقع، كحورية البحر أو عروس البحر، وجدت لها شكلا محددا، نصفه إنسان ونصفه الأخر سمكة. لذلك يمكن للمرء العودة إلى مرجعية حسية عند البحث عن شكل حورية البحر. لكن تلك الصفات التجميعيّة، التي تعود إلى عدد مركب من المرجعيات الواقعية المختلفة، لا تصنع مرجعية واقعية جديدة، أي لا تخلق حورية في الواقع، وإنما تكتفي بصناعة مدلول لغوي جديد، أي صناعة كلمة ذات معنى. فهنا ينتفي وجود المرجع الجامع للخصائص الأساسية. ومن المفيد هنا التفريق بين المرجعية والمعنى. فالكلمة تكتسب معناها من طريق تعميم الخصائص الجوهرية المشتركة للمرجعيات المتنوعة، الحسية أو الذهنية. فالمرجعية أساس ضروري لتحديد قيمة الكلمة في الخطاب. لكن المعنى لا يرتبط ارتباطا مباشرا بالأصل المرجعي، وإنما يرتبط بالتوظيف الذي يسبغه فكرنا على كلمة ما. وقد شبه القرآن طلع النخيل، الحسي، المدرك، برؤوس الشياطين، المتخيلة. وهدف التشبيه هنا إطلاق طاقة الخيال لدى المتلقي، استنادا إلى

المخيلة، وليس استنادا إلى المرجعية الحسية. وهذا التفسير لا يتعارض حتى مع من يؤمنون، لأسباب دينية، بأن الشيطان مخلوق. فهو "مخلوق" من غير شكل واقعي يحدد خصائصه الحسيّة، لكنه "موضوعٌ يعرف بالعقل، فهو علاقة بين أشياء. لذلك تكون الصور العقلية والتجريدية أرحب من حدود المرجعية الحسية، لكنها أقل انضباطا وصدقا منها، وأكثر استدعاء للغموض ولسوء الفهم وتعدد التأويل. إن المرجعية قيمة موضوعية، موجودة باستقلال عن وعينا.

ولكن، ما الذي يعطي للكلمة مدلولها الخاص في الاستعمال؟ حينما نتأمل طبيعة الكلمات (عدا الكلمات الدالة على مكانة وظيفيّة لغوية بحتة ضمن بناء الجملة) نجد انها تنقسم إلى فئتين: الأولى يمكن أن نسميها كلمات وصفية أو تصويرية، والثانية انفعالية أو عاطفية. فكلمة "نخلة" تندرج ضمن الكلمات الوصفية، التي تتميز بضعف الشحن العاطفي، فهي أكثر ميلاً إلى الحيادية. بينما تثير الكلمات الانفعالية، مثل كلمة "وباء" أو "مُل رئوي" وقعا سلبيا في النفس، في حين أن كلمتي "فرح" و"نجاح" تثيران وقعا مغايرا. ولكن هناك من الكلمات الوصفية والانفعالية ما يحمل معاني متناقضة، تبعا للمواقف المتناقضة واختلاف التجربة. فكلمة "صحة"، التي تبدو إيجابية قد تغدو سلبية حينما ينظر إليها شخص يعيش حالة فقدان كبيرة. وكلمة "نار" الوصفية قد تثير مشاعر مختلفة تبعا لطرق استخدامها، وتبعا للحالة التي يعيشها مستخدمها. فهي إيجابية حينما ترتبط بالدفء والطاقة، ولكنها سلبية حينما ترتبط بالحوادث المحزنة كالحرائق والموت والانتحار.

ولا يقتصر الاختلاف في الوظيفة اللغوية على دلالات الكلمة، فالجملة الإخبارية لها خصوصيات مختلفة في الأداء اللغوي. إن الجملة النظرية تحتمل الصحة والخطأ، أما الجمل "اللا نظرية" فلا تحتمل ذلك. ويميز علماء اللغة كذلك بين الجمل القائمة على الحقائق أو الجمل الموضوعية والجمل التي تسمى بـ"اللا موضوعية". فالفئة الأولى يمكن قياسها من طريق الإجابة بنعم أو لا، أما الثانية فهي لا تجيب عن ذلك. والفئة الثانية مصدر جيد للاستخدام الدعائي، لأنها غير قابلة للقياس التجريبي. أما كلمات الشحن العاطفي، السلبي والإيجابي، فهي المادة الأساسية لصناعة الخبر الموجّه دعائيًا.

الإعلام واللغة

أفاد الإعلام الغربي إفادة عظيمة من تطور علم وفلسفة اللغة، وجرى توظيفهما توظيفا متقنا وناجحا في السياسة والدعاية. وكان أول وأكبر ضحايا هذه الدعاية هو المتلقي عامة، والإعلامي الذي يعيش في المنطقة الإعلامية الأضعف، بصرف النظر عن مواقفه، المؤيدة أو المعارضة. فهو ضحية لسوء الفهم الإعلامي، وضحية لعدم المقدرة على مجاراة عملية التوظيف العلمي المنظم لمنجزات علم اللغة.

ولتوضيح هذه المسألة سنتوقف عند بحث أقامته جامعة إيّسالا السويدية بعد حرب الخليج الثانية. رصد البحث طائفة من الكلمات التي كررها الإعلام المؤيد للحرب عند وصف الجندي العراقي مقارنة بالجندي الأميركي وحلفائه. قسّم البحث التعابير إلى طائفتين، الأولى اسمها "نحن" والثانية اسمها "هم"، ووصل إلى النتيجة الآتية: "نحن لدينا جيش، اسطول، سلاح طيران، وهم لديهم آلة (ماكنة) حربية. نحن لدينا قواعد لتنظيم التقارير الإخبارية وهم لديهم جهاز رقابة. نحن نقوم بإخراجهم من جاهزيتهم (تعطيل فعاليتهم)، تحجيمهم، تحييدهم، قصفهم قصفا مركزا (موجها ومحددا)، وهم يقومون بأعمال إفناء وتدمير، قتل، إطلاق النار العشوائي الوحشي. نحن نملك المبادرة القتالية، نقاتل من أجل إعاقتهم (تحاشيهم)، وهم يضربون من غير تحذير، ومن دون أن يستفزوا. جنودنا فتيان، شباب، محترفو قتال، حذرون وحريصون، حازمون، شجعان، أما جنودهم فهم أفواج، جماعات، مغسولو الأدمغة، جبناء، عديمو الضمائر، متخلفون (متشبثون بالتقاليد والأفكار البالية). صواريخنا تسبب أضرارا جانبية (عرضية وغير مقصودة)، أما صواريخهم فتسبب سقوط الضحايا المدنيين. طائراتنا لم تتجح في العودة إلى قواعدها، أما طائراتهم فتم تدميرها".

نلاحظ هنا، ببسر تام، أن كل كلمة من الكلمات السابقة تنطوي على شحن عاطفي صريح سلبي أو إيجابي، لا يتطلب من السامع فهما سياسيا خاصا لكي ينحاز نفسيا، إلى جهة ما. وهذا الشحن يسري بالقدر نفسه على صفات البشر وعلى صفات الأشياء المادية، كالطائرة

والصاروخ.

استخدم الإعلام الإسرائيلي مزايا اللغة ببراعة فائقة، إلى الحد الذي جعل الإعلام العربي، بما فيه الإعلام المؤيد للفلسطينيين، يقع تحت براثنه ويغدو، من غير وعي، بوقا يردد ما تريده إسرائيل منه. وقد لوحظ أمر لا يخلو من طرافة تعبيرية، طرأ على مفردات الإعلام الغربي، في الفترة التي اشتد فيها الحصار الإسرائيلي على الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، في مقر حكومته في أريحا. حينذاك، أخذت تتكرر بقوة لافتة عبارة "قوات الـ17" في الصحف وفي نشرات الأخبار، ثم أخذت تظهر تقارير وتوضيحات إعلامية تفسر مضمون قوات الـ17، على أنها ميليشيات خاصة، سرية، ترتبط بأعمال تصفية الخصوم وبأفعال سلبية، سياسيا واجتماعيا. وحينما اكتمل إعلاميا رسم صورة المرجعية اللغوية، من طريق خلق مفردة انفعالية، ذات شحن سلبي، أخذ الإعلام يحشر التعبير في شتى كل عملية إسرائيلية تنفذ ضد الفلسطينيين، سواء أكانت موجهة إلى مدنيين أم إلى عسكريين. وفي اللحظات النادرة، التي كان الإعلام الفلسطيني يعثر على حجة يثبت فيها أن الموقع المستهدف كان مدرسة أطفال، يظهر فورا الخبر التكميلي، الذي يقول إن المدرسة (المسجد، المنزل، الملعب، المصنع) المذكورة كانت واجهة لقوات الـ17"، أو أن أطفالها كانوا دروعا بشرية لقوات الـ17". وحينما تسأل المتلقي الأوروبي: من هي قوات الـ17 "؟ لا تحصل على جواب واضح. لكن الأمر الوحيد الواضح هو "إحساس" المتلقي بأنه يتعامل مع عبارة مشحونة بالدلالات السلبية. ففي هذه المرحلة من مراحل تطور الاستخدام اللغوي، لا يكون المستمع أو القارئ معنيا بالعودة إلى الحقائق (المرجعيات) ومناقشة طبيعتها، بل يعود إلى التداعيات الذهنية التي زرعت في وعيه من خلال التعبير الانفعالي السلبي: "قوات الـ17". فقد غدا هذا التعبير مرجعيته الشخصية. وبذلك أصبحت القنبلة الإسرائيلية تنزل دائما على المكان الصحيح، الذي لا يثير أي تعاطف سياسي أو أخلاقي أو إنساني، فهناك تكمن عصابات الشر! ومن سخريات القدر أن تقوم هذه القوات بتغيير اسمها وزيّها وتصبح مصدر دعم مالي وسياسي أميركي، بعد أن فقدت فتح قيادة الحكومة الفلسطينية انتخابيا، فحلت محلها قوى جديدة، ألبسها الإعلام الأميركي والغربي زي الأشرار، فأضحت بديلا لقوات الـ17". ولذلك نشأت الحاجة إلى تطوير استخدام تعابير جديدة تحدد للمتلقين هوية القائمين بأعمال الشر الجدد. فتم تفعيل تعبير "ناشط"، الذي يمكن أن يجمع في ثناياه كل من يُراد قتله، من دون حاجة إلى توضيح سبب القتل، لأنه ناشط في حقل الشر (الإرهاب). أي أنه، طبقا لنظرية الشحن السلبي، في طريقه إلى تنفيذ عملية إرهابية لقتل الأطفال والنساء الأبرياء. وكلمة "ناشط" لها دلالات محددة ودقيقة في أغلب اللغات الأوروبية. فمعناها يتجاوز حدود كون المرء عضوا في جماعة ما (مسلحة أو غير مسلحة)، إلى كون الشخص المقصود جاهزا أو في طريقه إلى تنفيذ فعل يرتبط بنشاط الجماعة أيضا. لذلك فإن هذا التعبير لا يجوّز قتل "الناشط" فحسب، وإنما يمنح قاتله براءة قانونية وصفة الشجاعة والخبرة المهنية العالية والمبادرة الخيّرة. وهنا تكمن أخطر جوانب تعابير الشحن السلبي. فالرصاصة الإسرائيلية تميز بين عضو وعضو، وهي عادلة جدا إلى حد إنها لا تصيب إلا من "هم" في طريقهم إلى قتل الناس. فهي كالرصاص الأميركي: تخرج من الجاهزية، تحجم، تعيق، تعطل فعالية شريرة مؤكدة، حتى لو كانت القوة المستهدفة سيارة عائلة منكودة يضعها القدر في مواجهة دورية أميركية مشحونة بالحقد.

وربما يذكر كثيرون التعبير الذي رددته وسائل الإعلام العربية، حتى الفلسطينية منها، حينما شرعت إسرائيل في اغتيال "الناشطين" الفلسطينيين في الشوارع والبيوت. ليست الإعلام يستخدم تعبيرا يعود إلى ما أسميناه بالشحن السلبي: "المطلوبون". وهو تعبير تجريبي، يرتبط بالمجرمين المطلوبين للعدالة، أو الفارين من وجهها. والكلمة تعبير شعبي وعالمي،

رأيناه لعقود طويلة يلصق على الجدران في أفلام رعاة البقر. إن المستمع والقارئ الغربي لا يبحث عن هوية الفلسطيني المقتول، لأن المرجعية اللغوية تخبره بأنه يستمع إلى خبر عن مجرم "مطلوب". وتحت تأثير العدوى الإعلامية ابتلع الإعلام العربي هذه الكلمات المسمومة ابتلاعا تاما، نتيجة لضعف الدراية والجهل الجديّ في فهم الآخر، وسوء فهم تطور علم اللغة وسبل استخدامه. وهذه الكلمة أكثر خطورة في دلالاتها النفسية الإخبارية، كمرجعية سلبية، من كلمة ناشط. لأنها تحمل في ثناياها مضمون كلمة "نشاط" إضافة إلى دلالاتها الجديدة. فالمطلوب يتجاوز، منطقيا، حدود النشاط إلى التنفيذ الفعلي للعمل الإجرامي. وهذا ينقسم الخبر إلى قسمين متساويين: الأول يشمل المطلوب، وهو بالضرورة ناشط سابق، أما الجانب الآخر من المشهد فيمثل منفذ عمليات إعاقة وتحجيم وتحييد المطلوبين، وهو رجل القانون. فالخبر يقسم عناصر الصراع إلى فئتين: الدولة، الشرعية، الحق، المجتمع، يقابلها أعداء الدولة والمجتمع والقانون والشرعية والحق. هنا لا يحتاج المتلقي إلى معرفة هوية وأسباب القتل. لأن صانع الخبر يقوم، نيابة عنه، باختيار الموقف الصائب له وحشره فيه.

في علم السياسة لا توجد كلمة بريئة وأخرى أقل براءة، فالكلمة مرجعية تأريخية تختزن التجربة وتعيد إنتاجها في الوقت المناسب.

لنتأمل هذين الخبرين: "ستزر وزير الدفاع البريطاني يزور إيران لتخفيف حدة القلق العالمي المتعلق بالمنشآت النووية الإيرانية" (الفضائية التونسية- الشريط الاخباري 29-6-2003)، "البرادعي: على إيران التعاون لغرض تبديد القلق العالمي من جراء رفض إيران تفتيش منشآتها النووية" (الفضائية التونسية- الشريط الاخباري 23-6-2003). إذا، نحن نعيش في عالم يسوده القلق الجماعي، وسبب ذلك يعود إلى احتمال وجود بؤرة نووية في دولة ما، في سبيلها إلى الانفجار وإفناء وجود البشرية! بعد مضيّ ثلاثة أعوام تستكمل "قناة دبي الفضائية" الخبرين السابقين من زاوية مغايرة فتقول: "الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن إضافة إلى ألمانيا يبحثون في لندن الإجراءات الواجب اتخاذها ضد طهران". (نشرة الاخبار، الساعة السادسة مساء 26-2-2007). في الخبر الأخير تُستخدم كلمة "واجب" الايجابية لأغراض موجهة سياسيا، تمنح بعض الدول واجبات كونية، تتضمن معاقبة الأعداء بالوسائل كافة. هنا يبرز دور الذاكرة التأريخية، فيغدو تعبير "الواجب"، المجرد، ذو الدلالة الايجابية هدفا سياسيا، ذا ملامح حسية، يمهد لتأسيس سلسلة من الأفعال السلبية المحتملة، التي لا يتطلب تذكرها سوى قدحة خيال صغيرة. وكلمة واجب هي قدحة الخيال ومفتاح التداعي الذهني التأريخي الجمعي. وكل ذلك تمهيد يشير إلى أن الصراع يبحث عن نهايته المنطقية: استخدام الواجب لإنهاء التهديد الدولي الموجه ضد البشرية جمعاء! هنا يكون العقل الجماعي، كله، مهيئا تماما لتقبل نتائج تنفيذ معركة الواجب، مهما كانت عواقبها وتفصيلاتها. معادلة الواجب وتنفيذه على ضوء الخبرة التأريخية للبشرية يلخصها بوسكا فيشر، وزير خارجية ألمانيا السابق (1998-2005) في مقالة عنوانها (النموذج ذاته السابق لحرب العراق)، تتحدث عن التصعيد الإعلامي الأميركي حول الخطر النووي الإيراني، قائلا: "هل علم السياسي من التأريخ، أم أنه ضحية نزعة التكرار الإرغامي للأخطاء السابقة، على الرغم من الدروس الكارثية؟"، ويضيف "يُخيل للمرء أن صدام حسين لم يزل حيّا، وأنه لم يزل يتربع على سدة الحكم، وأنه يتوجب إعادة إسقاطه مرة أخرى" (نقلا عن النص السويدي، داغنستيهيتر 30-1-2007).

كتب فيشر هذه المقالة، كما لو أنه يلخص كتابا انتهى توا من قراءته. فلم يمض وقت طويل حتى أعلن ديك تشيني تصريحه المشهور حول الأخطاء الأميركية في العراق، وماذا ستفعل أميركا، لو قدر للتأريخ أن يعود إلى الوراء. أجاب تشيني، بوضوح مطلق: "لو عادت عقارب الساعة إلى الوراء، سنفعل الشيء ذاته" (قناة الشرقية 1-8-2007). هذا المثال يقودنا إلى القول إن للسياسة الاستعمارية عامة ثوابتها المبدئية، فيما يتعلق بالحق والقانون الدولي وذرائع الغزو من تمدن وحماية المصالح وإنقاذ البشرية من الأخطار، توارثتها على مر الحقب والأزمان. ولكن، للسياسة الاستعمارية الأميركية ثوابت مبدئية مميزة، أكثر تطرفا، وصرامة من سابقاتها، أهمها الاستهانة المطلقة بالعدو وتجريده من خصائصه البشرية كافة. ولهذا السبب لا يرى الأميركيون سببا جديا يدعو هم إلى تغيير أو تعديل

مواقفهم أو إعادة النظر فيها، بل نراهم على العكس يحاولون بكل الطرق إرغام الواقع، مهما كان عصيّا، على الانصياع لما هو موجود في مخيلتهم، بأفدح الأثمان. إن الخيال الاستعماري الأميركي قائم على احتقار "الآخر"، والتلذذ بسبل إيذائه، والأهم من هذا كله اعتقادهم الصادق بأنهم يملكون الحق في فعل ذلك.

في علم السياسة يجري دائما صراع من أجل الاستيلاء على الذاكرة التأريخية والوعي الجماعي، كخطوة ممهدة للاستيلاء على الحاضر والواقع. وفي هذه الجبهة- الثقافة- تكون الكلمات واللغة سلاح المعركة وأداة القتل والتدمير الأساسية. ومن المنظومة الثقافية الانفعالية، ذات الشحن السلبي، التي أجاد الأميركيون والإسرائيليون وبعض الأوروبيين استخدامها في تعاملهم مع العرب كلمتي "إهانة" و"إذلال". استخدم الثانية جورج بوش الأب، حين وصف طبيعة العلاقة التي يود الأميركيون إقامتها مع الشعب العراقي، عند بدء الهجوم الأرضي لتحرير الكويت. ومن المفيد هنا أن نشير إلى كيفية استخدام هذا النوع من الكلمات. فهذه الكلمات، التي تدل على الاحتقار والاستصغار، لا يتم استخدامها إلا في صيغ النفي. لأنها تنطوي على سلوك يُعاقب عليه في أغلب القوانين المدنية الأوروبية. وحينما يتم استخدام هذه التعابير سياسيا فإنها تكتسب فورا دلالات عرقية وقومية. فمن المحال على رئيس أكبر دولة في العالم وأكثرها حمقا أن يقولها بحق أصغر شعب أوروبي: "نحن لا نود إهانة النرويجيين"، أو "لا نهدف إلى إذلال الرئيس الفنلندي"، مثلا. لذلك يتم الاحتيال على القوانين القضائية والأعراف الأخلاقية والسياسية بطريقة حاذقة، من طريق استخدام التعبير بصيغة النفي، لا صيغة الإثبات. والنفي هنا يحقق فعله النفسي والعقلي أفضل مما تقوم به صيغة الإثبات. لأن مغزى السلوك يثبت بتحققه، أي بوقوعه. فنفي جورج بوش الأب أن يكون هدف الهجوم الأميركي والحصار "إذلال" العراقيين، إنما يعني تأكيد عملية الإذلال، وفق قوانين المنطق، بما أن فعل الإذلال تم تحققه في الواقع، من خلال الغاية المعلنة: "إعادة العراق إلى العصر الحجري"، كما عبر عن ذلك القادة الأميركيون. كيف تحرر شعبا وأنت تعيده إلى العصر الحجري! وحينما ترفق هذه العبارات بصورة لجندي عراقي يرفع ثوبه الداخلي الأبيض على عصا مستسلما، وآخر يقبل حذاء جندي أميركي، فإن رسالة الإذلال تكون أبلغ وأعظم وقعا على النفس. استخدمت إسرائيل التعبير ذاته مرفقا بتعبير "الإهانة" حينما وصفت حصارها للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في غرفته الصغيرة في أريحا. فمارع حينذاك عدد من حكومات الدول الغربية والعربية إلى رفض "إذلال" و"إهانة" عرفات. لكن المواطن الأوروبي فهم هذا الرفض على أنه تأييد تام، أخلاقيا وسياسيا، لفعل "الإذلال" و"الإهانة"، بما أن هذه الدول لم تقف عمليا ضد الحصار، بل اكتفت بمراقبة فصول مسرحية الإذلال وصولا إلى فصلها الأخير: الموت المهين.

ومن أحدث نوبات استخدام تعبير "الإهانة"، ما جاء على لسان السفير الأميركي في بغداد زلماي خليل زاد، حينما توجه إليه صار الحكيم شاكيا من قسوة تعامل الجنود الأميركيين معه، بعد اعتقاله لنصف يوم وتفتيشه تفتيشا مهينا دينيا وأخلاقيا. أجاب زلماي على شكوى الحكيم قائلا: "إن واشنطن لا تريد إهانة عائلة الحكيم". وهو يعني هنا أن بيت الحكيم، حالهم كحال العراقيين كافة، يمكن أن يهانوا ويُذلوا. وقبل ذلك الحدث بأيام فحسب أقنع الأميركان، عمليا، بالممارسة، أشهر شخصية سياسية في المجلس الأعلى: عادل عبد المهدي، بأنه يمكن أن يهان أيضا علنا، حينما قرروا إعادة طائرته القادمة من تركيا من حيث أتت، من غير أن يشفع له كونه نائب رئيس الجمهورية والمرشح الأقوى لمنصب رئيس الوزراء. وكان تعليلهم مشابها لتعليل زلماي: لم يكونوا يدرون إهانته! وإذا أردنا تطبيق فرضيات علم المنطق، يمكن للقارئ التحقق بنفسه من صحة أو خطأ وقوع الإهانة، من خلال إعادة صياغة الاقتراض السابق وجعله كالتالي: إذا سلمنا جدلا بصدق قول زلماي. حسن، ماذا سيفعل (نوع الممارسة) الأميركيون مع الأشخاص ذاتهم، لو أن

الأميركان أرادوا، على سبيل الافتراض، إهانتهم حقاً؟ إن الجواب عن هذا السؤال يحمل معاني مرعبة ووحشية، في حال ثبوت صدق ادعاء زلماي بسعدم وجود نيّة لإهانة الحكيم. فزلماي يقول لحلفائه: الأفضل لكم القبول بهذا القدر من "الإذلال" و"الاهانة" في الوقت الحاضر!

وفي مؤتمر أنابوليس، لم تفوت وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس فرصة التحدث عن إذلال الشعب الفلسطيني: "أعرف ما يمكن أن يحس به الشخص عندما يبلغ بأنه غير مسموح له باستخدام شارع أو عبور نقطة تفتيش لأنه فلسطيني. أدرك الشعور بالذل والعجز". إن كوندوليزا رايس تعرف أن الفلسطيني يعاني الشعور بـ"الذل"، لكنها لا تعرف من المسؤول عن هذا الإذلال! وقد يتبادر إلى الذهن أن رايس كانت عادلة ومنصفة، وربما أخطأت في اختيار الكلمة المناسبة، فجاءت لمصلحة الفلسطيني. لكن الأمر خلاف ذلك تماماً، وفق منظومة أفكارها. فالفلسطيني وصل إلى حالة "الإذلال" بسبب أفعاله. أما الإسرائيلي فهو مرغم ومجبر على ترويض الوحش الفلسطيني الذي يهدد حياة أطفاله الأبرياء ووجوده. هذا الاستخدام اللغوي الحاذق والظالم، يؤكد ما ذهبنا إليه، ولكن بصورة أكثر إتقاناً ومهارة. فالفلسطينيون الذين تخاطبهم رايس ليسوا سجناء في غرفة، بل كانوا جالسين على منصة الرئاسة مع مذليهم. أما هي فلم تكن سوى كائن محايد ومضيف كريم وشهم، يملك مشتركات عاطفية وشخصية مع الطرفين. فقد شهدت، كما قالت في كلمتها، مرحلة التمييز العنصري الأميركية وعاشت أحزانها. لو أردنا تحويل كلمات رايس إلى تعابير حسية وشخصية مباشرة لأضحت كالتالي: إن السيد أولمرت مرغم على إذلالك يا سيد

عباس، لأنه يريد أن يحمي بيته ووجوه، فعليك بالكف عن تهديد أولمرت (الإخلال بالأمن)، حتى يكف هو عن إذلالك (يمنحك السلام). هنا تكمن منافع اللغة، التي يتمتع بها الأقوياء.

في العراق أفادت قناة "الشرقية" إفادة حسنة من الخبرات الإعلامية الإسرائيلية والأميركية، عند بثها الأخبار المتعلقة بالصدام بين عناصر جيش المهدي والقوات الأميركية، مستخدمة إشارات سعت من خلالها إلى الإيحاء بأنها تلتزم الجانب الأميركي: "قصفت القوات الأمريكية بدقة بالغة!! موقعا تم رصده من قبل أجهزة الاستخبارات المختصة!! من دون إلحاق أضرار بما يجاوره من البيوت السكنية!!" (صواريخهم تحدث أضرارا جانبية، قذائفهم موجهة، جنودهم حريصون وحذرون)، "يأتي قصف حافلة نقل الركاب بعد أن اختطف مجهولون من فرق الموت التي ترتدي الملابس السوداء قبل أسابيع جنديا أميركا من أصل عراقي ذهب لزيارة أقربائه (شبابنا منقذون، إنسانيون، حريصون، شجعان)" أو "بعد أن رصدت القوات الأمريكية (شبابنا محترفو قتال، مهنيون، منفذون للعدالة) عناصر من فرق الموت المنسوبة إلى مليشيات معروفة، تلبس الثياب السوداء!! (ناشط أو مطلوب من فرق الموت) تتحرك في المكان".

عند متابعة نشرات الأخبار نعثر على مئات الأمثلة يمكن إيرادها هنا، تتعلق بفلسطين خاصة. فحينما يناقش الإعلام الغربي التوتر الناشئ جراء الحفريات الإسرائيلية في باب المغاربة في القدس تنشر إحدى كبريات الصحف السويدية 'داغنسبيبتر' هذا الخبر: 'عودة التوتر إلى الشرق الأوسط'. ولا يخفي بعض الفلسطينيين غبطتهم عند سماع مثل هذه الأخبار، لأنها تنفع حجمهم، فتجعل من فلسطينهم الضائعة شرقا أوسطا كاملا! وفي حقيقة الأمر، تقوم اللغة هنا بتفتيت وبعثرة القدس، أو أحد أبوابها، على رقعة جغرافية مترامية الأطراف، تمتد من باكستان إلى لبنان، اسمها الشرق الأوسط. ولكن حينما تتفجر قنبلة في شارع إسرائيلي فإن الهوية الجغرافية تتحدد وتتموضع وتصبح: إرهابي فلسطيني يقتل مواطنا إسرائيليا. ثم تتوالى صور أطفال الرياض المذعورين. إن تقسيم الجغرافية، بتحويل القضية الفلسطينية إلى قضية الشرق الأوسط، ومشكلة الشرق الأوسط، والنزاع في الشرق الأوسط، ليست سوى استخدامات لغوية تهدف إلى إبعاد الأعين عن الحق الخاص، الفلسطيني: الأرض والسيادة، أي الأمر يتعلق بمرجعيات لغوية وما يرافقها من مرجعيات تأريخية وحقوقية. فهنا يراد تنظيف الذاكرة من أي مرجعية قد تربط الفلسطيني بأرضه. فهو كائن بلا أرض: ابن الشرق الأوسط. أي هو كما يريده الإسرائيلي المتطرف، وما نحن، الذين نستخدم المصطلح، سوى خدم مطيعين نكرر بوعي أو من دون وعي فكرا نرفضه عاطفيا، لكننا نتبناه واقعيا

عند الممارسة. وحينما نتابع أخبار صواريخ إسرائيل المتساقطة على جنوب لبنان، نجد انها لا تستهدف لبنان، ولا اللبنانيين، لأنها تضرب حزب الله. فالخبر يقول حرفيا: 'دك الطيران الإسرائيلي نشطاء حزب الله في لبنان'، وهو يعني أن الطائرات المعتدية قصفت لبنان من بيروت حتى الحدود الإسرائيلية. فهنا، على العكس من فلسطين، يتم اختزال لبنان إلى جماعة سياسية واحدة: حزب الله. وإذا أراد مصممو الخبر زرع المزيد من البجحة الإعلامية، فهم يضيفون إلى الخبر عبارة "المرتبط بإيران". وهنا يكون القصف الإسرائيلي موجها، كما هو واضح، إلى طهران، لا إلى بيروت. ومن العبارات اللغوية المرتبطة بالقوة، التي دخلت التأريخ من أوسع أبوابه، عبارة "أسلحة الدمار الشامل". وهي عبارة تتكون من كلمة وصفية محايدة 'شامل' وكلمتين تحملان شحنات متفاوتة السلبية: 'دمار' و"أسلحة". وعند تجميع هذه الكلمات نقف على معنى يدل على درجة عالية وعظيمة من الفتك، ولكن من دون تحديد لنوعه وحجمه. فهو يمكن أن يكون بضعة صواريخ، ويمكن أن يكون سلاحا ذريا. مثل هذه التعابير الغامضة استخدمت كمرجعيات زائفة لأغراض سياسية وعسكرية بحتة، وتقبلها الناس كحقائق، على الرغم من أنها تحتاج إلى إثباتين لكي تصبح حقيقة: الإثبات الأول يتعلق بالمعنى

المحدد للتعبير، والثاني يتعلق بالمرجعية، وبحقيقة وجودها في الواقع.

أما الشحن الايجابي المزور فنجده في الخبر الآتي: 'حكمت محكمة عسكرية أميركية على المجند جيمس باركر بالسجن مائة عام لقتله صبية عراقية'. حال صدور الخبر احتفلت صحف عربية كبرى بالحدث كدليل ناجز على فضائل أميركا وعدالتها. شارك في احتفالات إقرار الحق رؤساء صحف ومواقع ثقافية. أما الإعلام الأوروبي فلم يتوقف عند عبارة' مائة عام'، بل واصل القول موضحا لمتلقيه، كجزء من واجب الإعلام الأخلاقي والمهني: إن الحكم في التطبيق العملي ربما يصل إلى عقوبة لبضع سنوات فحسب- أقل من عشر سنوات- تحتسب ضمنها مدة الاحتجاز والتحقيق. ويفسرون ذلك بالقول إن مثل هذه الأحكام تخضع لشروط التنفيذ المحلية، مراعية أموراً عديدة: شخصية ومحلية ووطنية. وكل تلك الاعتبارات تحسب لمصلحة المجند الشاب، سيئ الحظ، الذي ذهب للدفاع عن 'الأمن الدولي' ضد خطر الإرهاب العالمي. أما أرواح عائلة عراقية كاملة، مكونة من أب وأم وابنتين أبرياء، وكراسة صبيّة قاصر تغتصب، وحرمة أجساد تحرق، واستخدام وحشي للواجب، فتباع كلها من قبل إعلاميين كرماء مهنيا وأخلاقيا بثمن قدره تسع سنوات أو أقل! عواقب هذا الفعل الإجرامي وموقف العدالة الأميركية منه عظيمة الدلالة تأريخيا. فهذا الشاب مؤهل لأن يظهر بعد عقد، في مكان آخر، وفي حرب أخرى، ولكن ليس مجندا نظاميا في الجيش الأميركي، وإنما كـ'متعاقد' في شركة أمنية، ذي خبرات غير اعتيادية، تؤهله لخوض أعنف وأشرس وأقذر الحروب باقتدار تام.

وربما يكون تعبير ' إرهاب' هو أكثر التعابير شيوعا في الاستخدام السياسي في وقتنا الحاضر. والكلمة ذات شحن عاطفي سلبي في المعايير كلها. بيد أن معانيها تتغير تبعا لتغير المواجهات السياسية. ففي حقبة السبعينيات كانت ترتبط بالفلسطيني واليسار المتطرف. وفي الثمانينيات أصبحت ملازمة للعربي، وعقب سقوط الكتلة الشيوعية حصرت بالإسلام. وهذا التطور يعكس طبيعة التحول في المناخ السياسي العالمي، وأثره في تغيير إيحاءات الكلمة الواحدة.

كشف الأقنعة، أو كيف يرانا الآخر؟

كيف قابل الأميركيون نداءاتنا؟

يقول المذيع الأميركي المشهور جون جيبسون في برنامج إذاعي على شبكة فوكس نيوز الأمريكية: إن الغزو الأميركي للعراق 'كشف القناع' عن العراقيين الذين وصفهم بأنهم 'متوحشون من القرن العاشر'. لكن جيبسون يضيف: 'ولكن من يقوم بهذا القتل؟ أعطوني فترة راحة. هؤلاء عراقيون يقتلون بعضهم بعضا. ماذا فعلنا نحن؟ إذا قلنا إن خطأنا هو أننا كشفنا القناع عنهم كمتوحشين.. من القرن العاشر.. فحسنا، سأصدق' (البديل العراقي 29-4-2007).

لنتأمل هذا الخبر الأميركي، الذي يصف أميركيي القرن الواحد والعشرين:

"جذبت أختها الصغيرة ووضعتها أمامي. وعندما بدأت الطلقات تطير انتشرت الدماء بين عينيها ثم ضحكت بجنون"، هذا مقطع من الترجمة الأميركية للأغنية التي شاعت بين المجندين الأميركيين على الانترنت في شريط مدته أربع دقائق، وأذيع على محطات بث صوتية محلية يستمع إليها يومياً خمسون مليون مستمع. بيد أن الغريب في هذه القصة أنها تبدو من حيث المغزى مزجا لنصوص الشعراء العراقيين المالفين: التنفيذ الحسي للفكرة تفجير الجماجم بالقنابل، والتمجيد العياني للاستخفاف بدماء الضحايا!

بعد مطالبة منظمة 'كير' وزارة الدفاع الأميركية والكونغرس الأميركي بالتحقيق في شريط الفيديو لم يعثر المحققون الأميركيون على أدلة عيانية جرمية تربط هذه الأغنية "المتوحشة" بشخص محدد، واكتفت السلطات العسكرية بإزالة الأغنية من الانترنت في مارس 2006، وهو الشهر نفسه الذي اغتصب فيه الجندي جيمس باركر، صبية أربعة من رفاقه المارينز، الصبية عبير قاسم، ثم قاموا بقتلها وحرق جثتها وقتل عائلتها وإلقاء التهمة على الإرهابيين.

"إن فكرة اغتصاب الفتاة قد تبلورت عندما كانوا يلعبون القمار، وإنهم اختاروا عبير لأن أسرتها لم تضم إلا رجلا واحدا، ما يسهل عليهم مهمتهم"، بهذه الكلمات يصف 'كورتيز'، من أفراد الفرقة 101 المنقولة جواً، وأحد المتهمين في الحادثة التي سميت زورا، حتى في الإعلام المعادي لأميركا، 'حادثة اغتصاب عبير'. ولنا

جميعا أن نتخيل الطريقة التي يرانا بها الجندي الأميركي: هناك "رجل واحد" يحمي بيته من مغتصبين أجانب، في وطن عدد رجاله أكثر من أربعة عشر مليون متفرج! هل انتقل المغتصبون إلى مرحلة دراسة أحوال الأسر والبيوت العراقية من داخلها؟ إن ما حدث لم يكن فعلا جنسيًا قام به بعض المجندين الشباب، المبعدين، بحكم الواجب الوطني، عن أهلهم وأحبائهم وحياتهم الشخصية والعاطفية. ما حدث كان فعلا إجراميا من الطراز الأميركي الخالص، قام به رسل محررون، جاؤوا لتعليم "المتوحشين" قواعد الحرية والديموقراطية. وهؤلاء المتحضرون لم يقوموا بـ"اغتصاب فتاة"، كما روجت وسائل الإعلام أجمع، بل قاموا بدراسة ميدانية لواقع حال أسرة كاملة، وخططوا مجتمعين لسبل تنفيذ عملية اغتصاب وقتل وحرق عائلة كاملة. ولم يكتفوا بذلك القدر من الإجرام الوحشي، بل قاموا أيضا بتزييف الواقعة، وقتل المزيد من "المتوحشين" من طريق الإدعاء بأن ما حدث من تدبير إرهابيين محليين .وقائع التخطيط للقتل، والتلذذ به، وتبريره، تشبه إلى حد كبير أجواء الأغنية. وأجواء الأغنية تشبه أحاسيس الشعراء العراقيين الذين مجدّوا القتل وبرروا النهب والتدمير والقتل. فأي طرف كان الأصل وأيهم كان الصورة؟! عند تدقيق كلمات الأغنية ومطابقتها مع مأساة عائلة عبير نجد أن الطرفين: مشاعر الأغنية ومشاعر القتل والاغتصاب، معا، نتاج واحد لذات واحدة، هما نتاج لموقف وتصور ثقافي وأخلاقي وسلوكي واحد، عن شعب محدد ووطن محدد. فمثل هذا الحدث- دراسة أحوال عائلة ثم الانقضاض عليها- يمكن أن يقع لأي عراقي بالقدر نفسه من الوحشية، الذي وقع على عائلة عبير . يمكن أن يقع للشاعر الذي طالب بحق شعبه، وهو الشاعر نفسه الذي سبق له أن هاجم المؤسسة الأميركية، بديوان كامل، حينما وقع أخ له في أسر الأميركان إبان حرب الخليج الثانية. آنذاك لم يكن الاغتصاب ممكنا ومقبولا أخلاقيا وسياسيا في نظر الشاعر العراقي، لأن المثقف المعارض لم يكن قد تخلى تماما عن الروابط التي تشده إلى وطنه، حتى لو كانت في هيئة قصائد حزينة وغاضبة عن أخ أسير . آنذاك كان الأميركيون يدرسون الصورة التي نرسمها لأنفسنا، ويتأملون جوانبها الخفية، الملتبسة، بحثا عمّا يكمن تحت قشرة الواقع الزائف، والذات الزائفة.

لنتأمل هذا الخبر الذي أوردته وكالة (رويترز) "أعربت الممثلة ليلزي لوهان عن رغبتها في زيارة القوات الأميركية في العراق والترفيه عنها لتسير على خطى الراحلة مارلين مونرو التي زارت جنودا أميركيين في كوريا في الخمسينات".

من يقرأ هذا الخبر لا يجد فيه ما هو خاص أو جديد: فنانة تعتزم زيارة الجبهة العراقية، "أريد أن أفعل مثلما فعلت مارلين مونرو عندما ذهبت وأقامت حفلات للقوات بنفسها"...

حتى هنا يظل الخبر خاليا من البصمة العراقية. لكن المصدر يضيف الكلمات الآتية:

"وقالت لوهان إنني لست خائفة من الذهاب (إلى العراق)". على الرغم من ورود كلمتي خوف وعراق فإن هذه الإضافة تخلو من الجدة أيضا ومن الطابع العراقي. فالمعلومات الشخصية عن لوهان لا تحمل شيئا يتعارض مع قواعد الشجاعة: فهي من أسرة مقاتلة، شارك عدد من أفراد عائلتها، لأجيال، في حروب خارجية عديدة منها حرب فيتنام.

تقول لوهان: "قال لي حارسي انه سوف يأخذني إلى مكان يعلمني الرماية عندما أعود إلى لوس أنجلس وسوف أبدأ دروس الرماية. ويقول إنني لو أردت الذهاب هناك لا بد أن أكون قادرة على إطلاق الرصاص".

لماذا "لا بد" أن تطلق الجميلة لوهان الرصاص؟ الجواب: لكي تدافع عن نفسها. ولكن، كيف تدافع عن نفسها وهي برفقة هيلاري كلينتون؟ وعلى من "لا بد" أن تطلق الرصاص؟

هنا نعثر على الخصوصية العراقية، على المشاعر المحددة والواضحة للأميركية "رائعة الجمال" كما وصفتها هيلاري.

لماذا تتدرب فتاة رائعة الجمال على إطلاق النار قبل أن تذهب إلى البلد المحرر؟ سيجيبنا الشاعر الأول: لتقوم بتفجير جماجمهم بالقنابل لأنهم مخانيث، وسيجيبنا الشاعر الثاني: لن تهز مشاعري أجسادهم المتقوية بالطلقات، ويقول الثالث: ألا يستحق جمالها وشجاعتها وإخلاصها للحرية تمثالا في ساحة الفردوس؟ أما رابعهم فيقول: إنها لا تطلق النار إلا على المؤسسات المعادية للشعب. لكل هذه الأسباب الوجيهة تدربت لوهان على القتل قبل ذهابها إلى العراق. فهي مستعمة جيدة، تحسن الإصغاء إلى كرم شعر لنا.

ولكن في مقابل هذه البربرية فإن المجتمع الأميركي قادر دائما، انطلاقا من حيويته الداخلية وفعاليته العالية، على إيجاد مساحة للاختلاف لا تتيحها بنية المجتمعات المقهورة، ولا الذات الثقافية الزائفة. ومما لا شك فيه لا تستطيعها العقول المحلية المستنسخة أيضا. ففي الوقت الذي يتكون العقل الأميركي من جمهوريين وديموقراطيين، ويتكون الجمهوريون من حمائم وصقور، ويتكون الصقور من صقور متعبة وأخرى نشيطة، ويتكون النشطاء من نشطاء وأقل نشاطا، نرى أن الأميركي العراقي نسخة رديئة من عقل أسوأ أنواع الصقور. وهنا تكمن نقطة الخلاف مع النموذج الأميركي. فهو يستعير أسوأ أو أبشع أعيى خصائص الحضارة الأميركية، وبالقدر نفسه يستعير أسوأ وأردأ تقاليد المجتمع العراقي النفسية والفكرية والأخلاقية. إنه وحدة نموذجية تأريخية للعنصر البشري في صورته الوضيعة.

أعداء أميركا الأميركيون!

إذا كانت لوهان تستعير حضور مونرو مصحوبة برغبات مسلحة، فإن المطرب والناشط الأميركي من أجل السلام "ديفيد روفيكس" يقوم بخطوة مضادة، لا تقل جرأة عن زيارة الممثلة الأميركية جين فوندا للمقاتلين الفيتناميين في السبعينيات خلال حرب فيتنام، فيقوم بتأليف وتلحين أغنية جديدة عن العراق يسجل فيها صوت المعارضة الأميركية لحرب النفط والاحتلال.

أما الممثل والمخرج الأميركي "ثون بن" فقد ناهض الحرب على العراق ونشر بيانات تندد بالحرب على العراق وبسياسة بوش الأب والابن. وجرى نعته من قبل اليمين الأميركي بالأحمر (الشيوعي!) وعدو أميركا. وإذا كانت كتابات وأفلام "مايكل مور" (صحفي ومخرج ومنتج أفلام وثائقية منح أحد أفلامه الوثائقية جائزة الأوسكار كما حصل فيلمه فهرنهايت 11 سبتمبر على السعفة الذهبية في مهرجان كان لعام 2004)، و"روبرت غرينوالد" صاحب شريط "حرب المنتفعين"، قد جذبت أنظار العالم بسبب جرأتهما في كشف خفايا الحرب الأميركية، فإن الأفلام التي أنتجتها هوليوود، في المدة التالية لهجمات 11 سبتمبر، حول الحرب على العراق أو الحرب على ما يسمى بالإرهاب، لم تتمكن من جذب الجمهور إليها سواء في أميركا أم أية بقعة أخرى من العالم. وقد أثبتت هذه الأفلام أن التكرار والمشاهد المسطحة والمعالجة الدعائية، والنموذج المطبوخ على عجل، غير قادرة على اختراق جدار الصدمة التي أحدثتها الحرب في عقول ونفوس الناس. فمبررات الحرب، وتحول الجمهور الأميركي من الصمت إلى المعارضة، وافتضاح أبعاد الحرب التمريرية، خاصة بعد استقالة مسؤولين كبار، كمدير الطاقة، ووزير الخارجية، وكبار القادة العسكريين الميدانيين، جعلت الصورة الخيالية، الخلابة، التي رسمت للحرب تفقد صدقيتها، وتعززت في المقابل صورتها الدعائية الفارغة، ونتائجها السلبية.

عن هذا الأمر نقلت صحيفة نيويورك ديلي نيوز في تقرير عن دور السينما في الإعلام الحربي وجهة نظر المنتج السينمائي ستيفن بوكو، الذي رأى أن من المحال تقديم صورة مقبولة عن الحرب الأميركية على العراق إذا لم تتمكن المادة السينمائية من تضمين بعض الجوانب السلبية للحرب، وان لا تغفل الانقسام السياسي الحاد داخل المجتمع الأميركي جراء هذه الحرب. هكذا عكس الإعلام الأميركي حربهم، الوطنية.

لم يئس العالم بعد أن الأميركيين بدؤوا حربهم بلعبة ورق، أسموها عصابة الخمسة والخمسين، شغل فيها صدام حسين ورقة الجوكر. ما دلالة هذه الإشارة الإعلامية المبكرة، وما صلتها بالعنف واللغة؟ لقد دخل الأميركيون الحرب وهم يتمتعون بروح الدعابة وحس الفكاهة. ولا يعرف المرء كم من المزاح والجهد العاطفي بذله مسؤولو الإعلام لكي يرضوا القيادة والعسكرية الأميركية، ويحصلوا على إذن منها لبدء

حرب من طريق لعبة بوكر! ولكن ما هو مؤكد أن مزاج من يتمتعون بلذة شن الحروب هو الذي انتصر! فقد صممت الحرب لكي تشبه 'الدخول' إلى ملهى ليلي، وليس إلى وطن. وحتى أوراق اللعب، جرى تصميمها تصميما حاذقا يتيح لهم إخفاءها أو حرقها أو تحويلها إلى أوراق خاسرة أو رابحة، تبعا لليد التي تمسك بها. إنها حرب مسلية، بكل معنى الكلمة.

إن ما يميز الصورة التي نستخلصها للأميركي من الأمثلة السابقة: الأخية ومقتل عائلة عبير وحياة ورحلة الفدائة ليلزي لوهان على قدر كبير من الأهمية. إن تحليل الصورة يكشف لنا أن الشخصية الأميركية موحدة، ومتكاملة الأجزاء. فعلى الرغم من تناقضاتها واختلافات بعض أطرافها إلا أنها تكون بمجموعها صورة منسجمة الأجزاء، لا نبدو فيها ضمن إطارها السياسي والاجتماعي والأخلاقي التاريخي الخاص، لأنها تمتلك وحدتها الداخلية. على العكس من شخصية العراقي، التي تسعى إلى إكساب نفسها وحدة زائفة مضللة من خلال التبرير، إلا أنها تظل شخصية ممزقة، تجميعية. فالشاعر العراقي يهاجم الشوارع والبيوت والبشر والسلطة نفسها، التي تضامن معها قبل حين، ويناصر العدو ذاته، الذي وصفه بالسفاح قبل حين. نحن، في الحقيقتين، أمام اللوحة ذاتها، أمام عناصر المشهد نفسها، وما تغيّر في اللوحة هو أمر واحد: تبادل مراكز القوة والمواقع، وتغيّر موقع الأقوى وصفته في وعي الشخصية الناظرة إلى المشهد. فالمهاجم يتحول إلى محرر، والخصم يتحول إلى قاتل ملعون! فما يتغير هنا ليس مراكز القوة بل مصدر القوة نفسها. لأن القوة (العنف) هي العنصر الثابت في المشهد. فهي المحرك الأساسي الذي يملي على المصور والعين الرائية طريقة تأويل مشهد العنف. فالقوة من الممكن أن تنقلب إلى لعنة بظهور الأقوى. هذا يتحول الأقل قوة إلى سجين ويحمل الثاني، المنتصر، صفة السجّان العادل. إنها معادلة واضحة العناصر، طرفاها الأساسيّان هما العنف والخضوع. وهذا ما أسميته بـ'ثقافة العنف'، أي القوة الداخلية المحركة والمنظمة لقواعد العنف ومساراته في حقبة تأريخية محددة.

مثل هذه الصور لم نجدها في يوغسلافيا، ولا في اليابان وألمانيا، لكننا نجد ما يماثلها فلسطين، ووجدنا مثلها في لبنان. وحتى الصور البشعة عن جثث الأميركان في الصومال، لم تقابل بكلمات مليئة بالوحشية والاستخاف، كما هي الحال عند الشعب العراقي. لماذا؟ لأننا، نحن، وليس الآخر من يرسم الصورة. إن الآخر، الصديق أو العدو، يتعامل مع الصورة ويحاول اختبار صدقها أو كذبها، فوائدها أو مساوئها، وفي النهاية يختار ما هو ملائم لأغراضه وغاياته. فماذا ننتظر من سجان أبو غريب أن يفعل وهو يرى شعراءنا لا يرتجفون هلعا لمرأى أبناء وطنهم يقتلون؟ ماذا سيفعل طيارو الأف 16 حينما يعرفون أنهم سيخلدون في ساحات بغداد عند كل قذيفة موجهة إلى حي سكني، وأن قذائفهم الجوية مستقطعة من ثروة الوطن المدمر، ومن مشاعر وعواطف خمسة ملايين يتيم؟

الوطن وطنان، وطن لي ووطن للآخرين!

لنتأمل هذا النص العراقي الحزين، الذي يصور معاناة أخ مكلوم، فقد أخاه، الجندي الذاهب كرها إلى معركة ليست معركته، تقوده إليها سلطة عمياء، ميتة القلب، وتضعه أمام أعداء لا يقلّون عنها قسوة.

"إلى الأمام أيها الكسير

فالحرب قد انتهت!

المدافع أسكتت

والأشلاء دفنت

فيما موهت الأعضاء المفقودة بالبلاستك

أنا وأنت فقط يا أخي الخاسران في هذه الحرب"

وهذا نص آخر للشاعر نفسه عن الحرب نفسها والأخ عينه، وعن الأعداء ذاتهم:

"أسقطت القنابل فارتفعت الأضواء والشرار والدم وكان الطيار مبتهجا بهذه الألعاب النارية، عيد الميلاد الذي أتى قبل الأوان بكثير...

سلاما لبغداد!

الملوك ربحوا تيجانه
و الأمريكان ربحوا نفطهم
و الروس شبعوا لحما!
الصينيون ربطات عنق إضافية
وربحت إسرائيل أراضي أخرى.
أنا وأنت فقط يا أخي الخاسران في هذه الحرب"

من أين يأتينا هذا الصوت الحزين؟ من أية بقعة خفية من النفس الجريحة يسري هذا الوجع الشعري، فيصل إلينا صافيا، صادقا، محملا بأوجاع الذات، التي حملناها معنا في الحروب وفي المنافي وفي القيامات المتتالية؟ من أين يأتي مثل هذا العزف المبكي؟

ألا يشبه هذا المشهد عراق اليوم، برسله المنقذين ومبشريه القساة"، ها هي الطائرة، جناح القانتوم الأسود التي تبيض قنابل الموت وتفقس الخراب في المدينة النائمة

وداعا جسر الجمهورية
وداعا جامع الخلاني
وداعا سوق السراي

وداعا أيها الأطفال المختبئون في ملجأ العامرية، سيأتي أبلاكم في الصباح فلا يرون ألا أسنانكم البيضاء تلمع في أجسادكم المشوية.

حجر الماس في مناجم الفحم: هذا هو العالم الجديد

ربما لا يصدق كثيرون أن هذا الصوت الرقيق المليء بالحزن و العاطفة، الذي يوجد أسر الأخ بأحزان جامع الخلاني، وقصف الطائرات الأميركية ينهب النفط وخرافة العهد الجديد، هو ذاته صوت الشاعر الذي طالب أميركا أن تعصف بشعبه! كانت السلطة الحاكمة ذاتها لمّا تزل تحكم، وجامع الخلاني نفسه لمّا يزل يقيم صلواته، وسوق السراي نفسه يتعرض للنهب و التدمير على يد كل غازٍ، والأسير الفرد صار ملايين الأسرى في الداخل و الخارج. ما الذي تغيّر؟ كيف يمكن للإنسان أن ينقلب على ذاته بهذه القسوة ؟ إن ضغط الواقع على ذات الإنسان العراقي عظيم وجبار، وهو الذي يجعل الفرد يغيّر جلده من غير أن يُمنح فرصة كافية لتغيير محتواه العنفي. فنراه ينتقل في المكان، ينتقل في المواقع، يتنقل بين الجماعات السياسية و الفكرية المختلفة، لكنه يظل دائما يحمل معه، في روحه، عدّة الحرب ومشروع العنف .كم يشبه هذا المشهد المرعب المشاهد المرعبة التي سبقته والتي جاءت من بعده!

"وداعا جسر الجمهورية"!

ها نحن أمام نبوءة أخرى من شاعر : جسر الجمهورية! الشاهد الحسي التأريخي الأعظم، الذي أرخ لحظة سقوط نظام ديكتاتوري وتمترس الدبابة الأميركية في قلب بغداد. من يقرأ هذا النص لا يصدق أنه كتب في حرب الخليج 1991، في ديوان (رسائل إلى أخي) للشاعر نفسه. أي منطق يقوى على تفسير هذه الانقلابات العاطفية و الفوضى الروحية العظيمة!

فإذاة هذا النص لا تكمن في قوته الفنية، ولا في حسن الصنعة الشعرية أو تفردها. على العكس تماما. إن فإذاة هذا النص تكمن في 'عدم' تفرده، وفي فقدانه التام للتقسيم النفسي والسياسي والحزبي، الذي ألفناه مطبوعا بقوة في نتاجات أدب الحرب: داخل وخارج، معارض ومؤيد، مناضل وعميل، متحزب ومحايد. من يستطيع أن يلمس الداخل والخارج، المعارض والمؤيد، الذي مع والذي ضد، في هذه الكلمات العراقية الخالصة؟ هنا يوجد وطن، وطن لنا، وليس لي وحدي، على الرغم من أن الإحساس بالوطن جاء من طريق معاناة عائلية بقوة في نتاجات أدب الحرب: داخل وخارج، معارض ومؤيد، مناضل وعميل، متحزب ومحايد. من يستطيع أن يلمس الداخل والخارج، المعارض والمؤيد، الذي مع والذي ضد، في هذه الكلمات العراقية الخالصة؟ هنا يوجد وطن، وطن لنا، وليس لي وحدي، على الرغم من أن الإحساس بالوطن جاء من طريق معاناة عائلية بقوة في نتاجات أدب الحرب: داخل وخارج، معارض ومؤيد، مناضل وعميل، متحزب ومحايد. من يستطيع أن يلمس الداخل والخارج، المعارض والمؤيد، الذي مع والذي ضد، في هذه الكلمات العراقية الخالصة؟ هنا يوجد وطن، وطن لنا، وليس لي وحدي، على الرغم من أن الإحساس بالوطن جاء من طريق معاناة عائلية (فقدان أخ). إلا أن النص عبر، بسماحة روحية، من الأخوة الفردية إلى أخوة الجماعة، وإلى أخوة الوطن: المواطنة. فهنا لا تعثر على 'عراق صدام' أو 'علم صدام'. هنا يوجد وطن يوحد الجميع. يوجد جامع الخلاني، وجسر الجمهورية، وملجأ العامرية، في مواجهة طيار مكلف بتحويل الأجساد إلى كوم من فحم. هنا يوجد حبل سريّ اسمه العراق.

إن عظم المأسي قد توحد البشر. وعظم المآسي قد تخلخل العلاقة بين البشر، والعلاقة بين الكائن وفطرته الخيّرة. فالشاعر الذي عبر التقسيمات التأريخية كلها في نصه السابق، والذي عبّر عن مكوناته العميقة بتلك الروح الصافية، لم يتأخر في استعطاف الطيّار الأميركي ذاته، قائد "القانتوم ذات الجناح الأسود"، طالبا منه أن يقوم بتفجير جماجم البشر ذاتهم، وتفجير المساجد ذاتها والجسور ذاتها. في قصيدة "اعصفي بهم يا أمريكا" يلتف الشاعر على نفسه مثل أفعى سامة، نازعا أجمل ثيابه العاطفية، ويقوم بلدغ جسده الذي تغنى باسمه طويلا. تلك انعطافة لا تقبل التفسير، وخسارة فادحة. أهي خسارة مؤقتة؟ يقف خلفها شاعر أصيل يستطيع أن يعي، ولو بعد حين، حجم الدمار الكامن في أعماقه؟ أم أنه لاعب يحترف معزوفة العنف، سيرغم حينا بعد حين، وجيلا بعد جيل، وحربا

بعد حرب، على قمع الكائن الرقيق، والموطن الصادق، والشاعر الحساس، القابع في أعماقه، مسترسلا في توظيف طاقاته التدميرية لمصلحة حروب جديدة؟ مثل هذه الانقلابات العاطفية، المقرونة بالعنف، ظاهرة فاشية (من فشا)، ومستحكمة. وإذا أردنا ان نقيم الدليل على هذا فما علينا سوى قراءة هذا الوصف التراجيدي للشخصية العراقية، الذي كتبه شاعر مهاجر: "الشاعر العراقي يحمل تأريخا مليئا بالدم، إنه إنسان تتشابك شرايينه في شعاب الخيال الكوني لمواجهة هذا الموت العام الذي يجعل من نشاطه، منذ كلكامش، بحثا عن مثوى القصيدة" (ص12 انفرادات، منشورات الجمل 1993).

إن ما يؤكد تفشي هذه الظاهرة وشدة استحكامها في نفوس الأدباء والمثقفين، الشعراء خاصة، لا يكمن في صحة ودقة الوصف السابق، ولكنه يكمن في شخص محرر النص. فهو المحرر نفسه، الذي لم يشعر بأدنى إحساس بالتعاطف وهو يرى أجساد أبناء وطنه تسحقهم الصواريخ، لكنه أحس بالوجع عندما رأى أجساد المبشرين الأميركيين بالعالم الجديد تخر ساقطة أمام عينيه. ولم يكن هذا السهو العاطفي سهوا عابرا، فالشاعر نفسه، سبق له أن "تحيز" لسماء وطنه حينما رآها تحترق، فوصف الحرب الأميركية على العراق بالكلمات الآتية: "وإذا بذلك الشيء ينبجس، هكذا، فجأة في صباح السابع عشر من كانون الثاني 1991، من الرأس إلى الفم إلى العين، ها هو يتحيز حيث أقيم، بكل ملامحه، وكأن شيئا لم يتغير! إنه جيل الستينيات. نعم، هكذا شعرت عند لحظة اندلاع حرب تدمير العراق." (انفرادات، ص9).

يقول الشاعر نفسه عن اللحظة ذاتها، والوطن ذاته، والموطن ذاته، والسلطة ذاتها:

"ليلة البارحة 30-3-2003 انتابني شعور بالحقد والكراهية ضد صدام حسين وزمرته بسبب ما تابعته على الشاشات صور أسرى الحرب الأميركان! حاولت أن أسأل نفسي لماذا لم ينتابني هذا الشعور وأنا أشاهد العديد من أبناء وطني وهم يقتلون أو يدفنون تحت أنقاض الصواريخ الأمريكية؟ لماذا ينتابني هذا الشعور وأنا أشاهد الجنود الأمريكان الذين لا أعرفهم ولست متعاطفا معهم إلا بالقدر الذي يخصني كعراقي تقاطعت مصالحه الوطنية مع مصالح الامريكان".

بهذه الفجاءة تنقلب الحروب، وتتغير أسماؤها ومدلولاتها، وتتغير الأدوار، فتصبح حرب تدمير العراق" معركة بناء العالم الجديد، ويغدو الطيار الأميركي حامل البشارة الكونية، ويصير كلكامش جنديا رساليا في قوات المارينز، ويمسي انكيو قائدا في فرقة الفرسان، التي تتولى مهاجمة مرقد الإمام علي! أما الشاعر فيصبح، فجأة أيضا، فريسة لـ"مشاعر الحقد والكراهية"، وهو يرى بأم عينيه أجساد الفتية المحررين تتحرر، بفعل الموت، من قوتها التدميرية!

أليست هي الحرب ذاتها، التي خاضها تعبويو صدام باسم الوطن، يتم تجييرها الآن لمصلحة تاجر السلاح والنفط الأميركي؟ كيف أضحت حرب اسمها "حرب تدمير العراق"، حرب "تحرير العراق"؟ كيف تتقلب القنابل العنقودية إلى باقات من الورود، وإلى قلائد تعلق في جيد الوطن؟

قطرة الموت السحرية

مثل هذه الأسئلة لا تشد إجابات سياسية، لأنها لا تتوجه إلى العقل السياسي، بل إلى روح وعاطفة ووجدان. تتوجه إلى الإنسان الخائف، المضطرب، المشوش، اللابد في أعماقنا. لكن الذات الرخوة والممزقة أوهن من أن تجيب عن هذا السؤال بشقيه السياسي والعاطفي، الحربي والشعري. أمّا الموطن الأميركي، العقيد "موريس جونز" فيجيبنا عن تساؤلاتنا، بمنطق الموطن المنسجم مع ذاته الوطنية، الموطن الواحد، على الرغم من تعدد مهماته وتناقضها.

حينما نقارن مشاعر الشاعر العراقي المضطربة القلقة بمشاعر عسكري أميركي محترف يتولى مهمة قيادة فريق للاقتحام، نجد تفسيرا واضحا لما أسميناه "وحدة الشخصية الأميركية" و"تبعثر الذات العراقية". يتحدث العقيد "موريس جونز" عن مشاعره كإنسان، ويقارنها

بعد حرب، على قمع الكائن الرقيق، والمواطن الصادق، والشاعر الحساس، القابع في أعماقه، مسترسلا في توظيف طاقاته التدميرية لمصلحة حروب جديدة" مثل هذه الانقلابات العاطفية، المقرونة بالعنف، ظاهرة فاشية (من فشا)، ومستحكمة. وإذا أردنا أن نقيم الدليل على هذا فما علينا سوى قراءة هذا الوصف التراجيدي للشخصية العراقية، الذي كتبه شاعر مهاجر: "الشاعر العراقي يحمل تأريخا مليئا بالدم، إنه إنسان تتشابك شرايينه في شعاب الخيال الكوني لمواجهة هذا الموت العام الذي يجعل من نشاطه، منذ كلكامش، بحثا عن متوى القصيدة" (ص12 انفرادات، منشورات الجمل 1993).

إن ما يؤكد تفشي هذه الظاهرة وشدة استحكامها في نفوس الأدباء والمثقفين، الشعراء خاصة، لا يكمن في صحة ودقة الوصف السابق، ولكنه يكمن في شخص محرر النص. فهو المحرر نفسه، الذي لم يشعر بأدنى إحساس بالتعاطف وهو يرى أجساد أبناء وطنه تسحقهم الصواريخ، لكنه أحس بالوجع عندما رأى أجساد المبشرين الأميركيين بالعالم الجديد تخر ساقطة أمام عينيه. ولم يكن هذا السهو العاطفي سهوا عابرا، فالشاعر نفسه، سبق له أن "تحيز" لسماء وطنه حينما رآها تحترق، فوصف الحرب الأميركية على العراق بالكلمات الآتية: "وإذا بذلك الشيء يذبحس، هكذا، فجأة في صباح السابع عشر من كانون الثاني 1991، من الرأس إلى الفم إلى العين، ها هو يتحيز حيث أقيم، بكل ملامحه، وكأن شيئا لم يتغير! إنه جيل الستينيات. نعم، هكذا شعرت عند لحظة اندلاع حرب تدمير العراق." ("انفرادات، ص9).

يقول الشاعر نفسه عن اللحظة ذاتها، والوطن ذاته، والمواطن ذاته، والسلطة ذاتها:

"ليلة البارحة 30-3-2003 انتابني شعور بالحقد والكراهية ضد صدام حسين وزمرته بعد أن تابعت على الشاشات صور أسرى الحرب الأميركان! حاولت أن أسأل نفسي لماذا لم ينتابني هذا الشعور وأنا أشاهد العديد من أبناء وطني وهم يقتلون أو يدفنون تحت أنقاض الصواريخ الأمريكية؟ لماذا ينتابني هذا الشعور وأنا أشاهد الجنود الأمريكان الذين لا أعرفهم ولست متعاطفا معهم إلا بالقدر الذي يخصني كعراقي تقاطعت مصالحه الوطنية مع مصالح الامريكان".

بهذه الفجاءة تنقلب الحروب، وتتغير أسماؤها ومدلولاتها، وتتغير الأدوار، فتصبح حرب تدمير العراق" معركة بناء العالم الجديد، ويغدو الطيار الأميركي حامل البشارة الكونية، ويصير كلكامش جنديا رساليا في قوات المارينز، ويمسي انكيو قائدا في فرقة الفرسان، التي تتولى مهاجمة مرقد الإمام علي! أما الشاعر فيصبح، فجأة أيضا، فريسة لـ"مشاعر الحقد والكراهية"، وهو يرى بأم عينيه أجساد الفتية المحررين تتحرر، بفعل الموت، من قوتها التدميرية!

ليست هي الحرب ذاتها، التي خاضها تعبويو صدام باسم الوطن، يتم تجييرها الآن لمصلحة تاجر السلاح والنفط الأميركي؟ كيف أضحت حرب اسمها "حرب تدمير العراق"، حرب "تحرير العراق"؟ كيف تنقلب القنابل العنقودية إلى باقات من الورود، وإلى قلائد تعلق في جيد الوطن؟

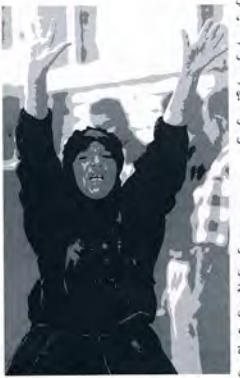

قطرة الموت السحرية

مثل هذه الأسئلة لا تنشد إجابات سياسية، لأنها لا تتوجه إلى العقل السياسي، بل إلى روح وعاطفة ووجدان. تتوجه إلى الإنسان الخائف، المضطرب، المشوش، اللابد في أعماقنا. لكن الذات الرخوة والممزقة أوهن من أن تجيب عن هذا السؤال بشقيه السياسي والعاطفي، الحربي والشعري. أمّا المواطن الأميركي، العقيد "موريس جونز" فيجيبنا عن تساؤلاتنا، بمنطق المواطن المنسجم مع ذاته الوطنية، المواطن الواحد، على الرغم من تعدد مهماته وتناقضها.

حينما نقارن مشاعر الشاعر العراقي المضطربة القلقة بمشاعر عسكري أميركي محترف يتولى مهمة قيادة فريق للاقتحام، نجد تفسيرا واضحا لما أسميناه "وحدة الشخصية الأميركية" و"تبعثر الذات العراقية". يتحدث العقيد "موريس جونز" عن مشاعره كإنسان، وبقارنها

بمشاعره كقائد لوحدة مسلحة تقود عمليات حربية في بقعة ملتهبة من بقاع العالم، تبعد ملايين الأميال عن سواحل بلاده. يجلس العقيد في مقر إقامته في معسكر "وور هورس"، المزروع على أطراف مدينة بعقوبة، وهو يراجع حساباته الميدانية، كمقاتل في الجيش الوطني الأميركي، وكإنسان، "دخل" العراق على ظهر دبابة عام 2003، مليبياً نداء الواجب الوطني. والعقيد "جونز" شاعر أيضاً، ولكن بطريقته الخاصة. فهو عسكري محترف، وأمر للكتيبة الأولى من فوج سلاح الفرسان الثاني عشر، وينتمي إلى عالم الملونين الأميركيين، لعائلته تراث مرموق في الحروب الدولية في كوريا وفيتنام. يصف "جونز" الصراع العنيف بين الواجب (الوطني)، كقائد أميركي، والمعاناة الفردية كإنسان، ويصوغها في وحدة صادقة، منسجمة. فهو يتحدث عن الخسارة والعنف ومقدار مسؤوليته الشخصية فيهما. ويتكلم عن الضمير والكرامة الوطنية ومقتضيات ومسؤوليات المعركة، كما يتحدث عن تقنيات السيطرة على الغضب والحزن، وعن الفصل بين ما هو عاطفي وما هو (وطني): "لا يمكنك السيطرة على أعصابك أحياناً. إنني لا أملك القوة. فأنا إنسان مثلك تماماً. لكن هؤلاء المدنيين المتأنقين يريدون منك أن تكون هادئاً وتفكر بطريقة صحيحة، أن لا تغضب ولا تقتلع أبواب بعض البيوت. لكن هذا لا يعني أنني لا أعود أحياناً فأغلق باب غرفتي عليّ وأجهش بالبكاء. إنني املك قطرات عيون أنظف بها عيوني من الدمع وأن لي إنجيلي الشخصي وكثيراً ما أرسل الصلوات. بعدها يمكن أن أخرج مرة أخرى وافعل ما يطيب لي ان افعل".

ليس للعقيد "جونز" وحده قطرته، التي ينظف بها عينيه من مشاهد الدمار والخراب وبقع الدم. فللشاعر العراقي أيضا قطرته التأريخية السحرية، التي تجعله ينتقل من حقبة إلى حقبة، ومن حرب إلى حرب. قطرة واحدة تكفي لأن تتحول المؤسسة الحكومية من أم رؤوم إلى مادة للاستباحة العلنية.

يقول أحد الشعراء في مقالة بعنوان "اللحظة التي انتظرها العراقيون طويلا مباشرة من بغداد، وبالألوان" نشرت في موقع "إيلاف" في التاسع من نيسان 2003. "ثقلت التلفزيونات العربية والأجنبية بصورة مباشرة، وبالألوان مشاعر الشعب العراقي، ولكن مراسليها لم يفوتوا الفرصة أيضاً للذكاية من هذا الشعب الصابر المبتلى، فهذا يقول: نهب للمحلات والمتاجر، فيما الصورة من وراء ظهره تظهر المواطنين بمئات مبانٍ حكومية بحتة". لقد انقضت بضع سنوات منذ أن حرر هذا الشاعر تقريره الثقافي، لكن القطع الأثرية التي سرقت من المتحف العراقي لم تزل تتساءل بأسى: أهي جزء من مبنى حكومي بحت أم غير بحت؟

هذا النموذج الثقافي "الملون"، هو ذاته الذي كان حتى أواخر التسعينيات يفقأ أعين أبناء الشعب المبتلى الصابر بمقالات اسمها: 'ذاكرة المعركة' و'مسرح أم المعارك'. بسعد إحراق مراكز التوثيق والمعلومات ونهب البنوك والمتاحف، وهي مؤسسات حكومية بحتة، يعود بطل مسرح أم المعارك فيخترع لنفسه ذاكرة جديدة، ويحتمي بأم جديدة على أنقاض أمه السابقة، أم المعارك! ولا يعرف المرء أي أم سيختار غداً! هذه هي بلوى العراق، عارية ملونة، بلوى اسمها مأساة الخضوع والعنف الوحشي.

قاد هذا الاختلاط العظيم في المشاعر، والاضطراب الكبير في القيم والمفاهيم إلى حدوث خلخلة جدية ملموسة في فعالية المنطق (التفكير)، فلما تجد مثيلا لها في مكان آخر. يستطيع المرء تثبيت ذلك، بيسر تام، من خلال مراقبة سبل التعبير وما يقف وراءها من مدلولات عقلية، ليكتشف حجم هذا الخلل والاضطراب. والأكثر أهمية من كل هذا إن هذا الخلل أصاب بشرا رأوا في أنفسهم أنهم الأقدر على الفهم وعلى إخراج المجتمع من أزمته العقلية. يعضهم، كجماعات أو كأفراد، لا يشك المرء في مقدار نزاهتهم وحرصهم، لكن سوء الواقع جعلهم يفقدون بوصلتهم العقلية وهم يسعون إلى إيجاد مخارج لأزمات الناس وأزماتهم الشخصية. لنتأمل هذا النص، ولنتأمل فيه مرة أخرى، هواية البكاء على جثث الأحبة من "البشر".

هذه الكلمات وردت في موقع "يساري، علماني، ديموقراطي" اسمه "الحوار المتمدن"، في 21-9-2004، وانتشرت في غير موقع انتشار النار في الهشيم.

"مبروك للفلوجة الثمن الغالي الذي تدفعه اليوم..."، "كان ينبغي للاميركان وقد استندوا إلى أغلبية شعبية عراقية، وتخبة سياسية أصيلة من مختلف الأعراق ومن جل مثقفي هذا البلد وأحراره، كان ينبغي لهم أن لا

يتهاونوا ويرتهنوا خيارات التغيير ومصالحهم وأمن المنطقة والعالم لخيارات سلفيو صدام في الفلوجة وغيرها...! كان بودنا لو أنهم أحسنوا قراءة الملف العراقي وبالذات فصوله الوسطى... هذا الوسط السني القومي النزعة القاشي حتى العظم وما دون العظم...! حتى جاءت جريمتهم البشعة الأخيرة التي حملتمونا عارها أبد الدهر...! جريمة حرق جثث بشر وسحلها في شوارعكم وتعليقها على أعمدة النور... لقد أحسن الأميركان غاية الإحسان إذ قصفوا مساجد الإرهاب والشوفينية والردة".(ثم الاحتفاظ باللغة كما وردت في النص).

على الرغم من بشاعة فعل التنكيل ووحشيته، إلا أن المقارنات بين النصوص تكشف لنا مفاجأة عقلية وعاطفية غير مألوفة. فمرتزقة "بلاك ووتر" يدون هنا أكثر رأفة وحصافة ودماثة، بل وإنسانية، من بعض من كتبوا دفاعا عن مرتزقة الماء الأسود. لا نريد هنا أن نقيم مزادا علنيّا للموازنة بين عدد القتلى وطبيعة القتل، لكننا نتوجه إلى المرتزقة أنفسهم، لنتعرف على أنفسنا من خلالهم. حينما نقارن النص السابق بأقوال مرتزقة "بلاك ووتر" نرى أن المرتزقة الدوليين كانوا مجرد هواة عنف، قياسا بمن يدافع عنهم من العراقيين.

يقول غاري جاكسون رئيس شركة بلاك ووتر في حديث لموقع متخصص بالشؤون الأمنية "مهمتنا الأولى هي دعم الأمن القومي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة ولا يمكن أن نقدم خدمة لأي جهة إذا كانت تعارض هذا المبدأ".

وردا على اتهامه بأنه "ناشط مسيحي يسعى من وراء هذه الشركة للدفاع عن المسيحيين حول العالم في وجه العلمانيين وفيما إذا كان لديه قساوسة في الشركة وما دورهم"أجاب: أولا نحن لسنا جيشا خاصا بل فريقا من المتطوعين العسكريين المدربين على الخضوع للقانون لحماية الدبلوماسيين وتقديم التدريب وخدمات لوجستية ونقوم بذلك في عمليات حفظ السلام لدول صديقة ومنها دعم بعض الحلفاء المسلمين.. ورغم أني لا أحب الحديث عن حياته الشخصية لكن أقول لك إن اريك برينس (مؤسس الشركة) يؤدي الصلوات وهو من الرومان الكاثوليك وليس متطرفا أبدا. وكأي وحدات شرطة أو وحدات عسكرية لدينا قساوسة".

فكم هو مهذب وعميق الإيمان بقيمه الأمنية والدينية قياسا بالمدافعين عنه من "العلمانيين" العراقيين!

أما المرتزق "جان جيدس"، الذي عمل في العراق عام 2003، مستخدما مهاراته وخبراته كعسكري سابق في وحدة المظليين التابعة للقوات الجوية الخاصة البريطانية، المكلفة بمكافحة الإرهاب، وكمرتزق محترف في ايرلندا والبوسنة وبقاع أخرى من العالم، فيقول عن قتلى الفلوجة الأربعة: إنهم "ضباط سابقون في قوة "دلتا فورس"، ذهبوا بمهمات خاصة لصالح القوات الأميركية التي تتقدم على المدينة من جميع المحاور".

ذكرت الصحافية الإيطالية جوليانا سيغرينا في كتابها "من خط النار" أن ما يقرب من 36 ألف بيت جرى ضربه في الفلوجة وحدها، أما عدد القتلى والجرحى فلم يعرف حتى الآن، ولم يقم، ولا يريد أحد، معرفة الرقم الحقيقي. كل ذلك مقابل هلاك أربعة قتلة من عصابة بلاك ووتر".

وهذا نص بعنوان "مرحبا بالدبابة الأمريكية" ذيل باسم شاعر عراقي مقيم في سويسرا يقول فيه: "مرحبا أيتها الدبابة الامريكية، لولاك لتناسلت المقابر الجماعية، ولدفع العراق في كل يوم مزيدا من أبنائه البررة، ولانتهكت مزيد من الأعراض والحرمات، وبقت الأكثرية من العرب العراقيين والكرد في خانة القردة... لولاك لبقيت الملايين من العراقيين في المنافي بعيدة عن الأهل والوطن والأحبة، ولأضاف لها القمع ملايين أخرى بعد مصادرة ونهش واستلاب" نشر النص في 23-5-2003.

قراءة هذه النصوص تقودنا إلى نقطة واحدة: إذا كان المواطن الأميركي المتماهي مع ذات الدولة الأميركية، كمؤسسة وطنية، يجمع بين العنف الوحشي وحب الذات في وحدة منسجمة، فإن العراقي المتماهي مع مشاريع الحرب، يجمع في كيانه، جمعا فظا، بين العنف

والخضوع، بين التصلف (تصنع الصلف) والانكسار، بين صورة مهلهلة، فكاهية، لكلكامش ونسخة مزورة من بوش أو صدام.

إن الدولة هي مركز الثقل في توازن العنف والخضوع. وعلاقة الفرد، المعقدة والمضطربة، بها قائمة على عنصري الطاعة والإكراه، أي العنف والخضوع. فالدولة هي التجسيد الأكبر لوحدة المتناقضات النفسية المتعلقة بالمواطنين كأفراد. أمّا تناقضات الأفراد النفسية فهي المكون الأول لشرعية الدولة اللا شرعية. من هنا جاء صدام حسين وسيأتي غيره، طالما إن العلاقة القائمة بين الفرد والدولة لم تحطم تحطيما ثوريا، ولم تزل، من حيث الجوهر، تؤدي دورها العنفي كما كانت هي عليه الحال من قبل.

إن شخصية الخضوع وشخصية العنف ليستا منفصلتين عن بعضهما. إذ لا توجد هنا شخصيتان متناقضتان، متعاديتان في كيانين مستقلين، بل هما شخص واحد. ثقافة العنف والخضوع ثقافة واحدة، متلازمة. إن العنف يشترط وجود الخضوع، أي الإستسلام السلبي. لذلك فهو المظهر المكمّل والمحفّز للعنف، وليس النتيجة أو المحصلة المترتبة على العنف. فكل هيمنة عنفيّة تتطلب خضوع الطرف المقهور. وهذا أمر طبيعي. بيد ما نعنيه بالخضوع هنا، في الحالة العراقية، هو كون الخضوع سببا من أسباب ولادة العنف. أي أن العنف والخضوع متلازمان، يولد أحدهما الآخر ويغذيه. فهما لا يوجدان في كيانين منفصلين، بل في كيان واحد. وتلك هي المعضلة. فالسياسي العراقي الذي بالغ في التحرير، ابتزّ حتى المحتل نفسه. فوثائق الأمم المتحدة تقر كلمة احتلال. وحتى الحاكم الأجنبي بريمر أورد في كتاب مذكراته "عامي في العراق" غير مرة صفة احتلال ومحتلين. لكن السياسيين العراقيين، والإعلام المرافق لهم، يتطرفون في تنزيه الاحتلال من صيغته الحتلالية. وبذلك فهم لا يعتدون لغويا وأخلاقيا على شعبهم فحسب، بل يقومون أيضا بتجريد المحتل من مسؤولياته القانونية، المقرّة دوليا، تجاه المجتمع الذي يحتله. من المسؤول قانونيا: ماليا وسياسيا عن تشريد أربعة ملايين عراقي؟ لماذا نُخلي المحتلين من مسؤولياتهم؟ فالخضوع هنا، لا يحمل معنى المبالغة المتطرفة في القبول بالقوي. إنه نوع من الرّق الاختياري، الذي يجبر القوي (العنف) نفسه على الظهور بمظهر المعتدل جراء تطرف المستسلم في خضوعه وتقبله للعنف. وهو السبب المباشر لظهور التبريرية الكاذبة وإخفاء الحقائق، والاستهانة بالمجتمع والمنطق. ففي العراق لا يوجد منطق للحقائق، ولا توجد قواعد عقلية للمقايسة والمحاججة. إنها فوضى لا أول لها ولا آخر. لأنها انعكاس لفوضى الداخل المضطرب، الممزق. إن علاقة السياسي القائمة على الخضوع نجدها تنعكس على الأدب، فتأخذ شكلها الفردي وتجسيدها الحسي في المقالة والنص الشعري أو النثري والصحافي.

تناقضات الشخصية من التطرف العنفي إلى الخضوع السلبي، نجدها في صيغ سياسية جماعية وفي صيغ فردية: نجدها في تصعيد قضية غير أساسية كقضية العلم إلى مستوى الصراع الوطني، وتصغير صراع يهدد مصالح الوطن حاضرا ومستقبلا كإيواء مسلحي حزب العمال الكردستاني، إلى شأن جغرافي وخرائطي.

أطفال الحرب

سلام عبود

(إلى حسين وهو يقاتل وحيدا في مقبرة وادي السلام)

نحنُ أطفال الحرب،
يتامى رغم أنوف آبائنا الأحياء،
ولدنا على دمدمات المدافع،
ورضعنا زئير الراجمات.
كان أبي بُحّارا، يصنع توابيت الذين يساقون إلى انتصارات مؤجلة،
وأمي تخيط رايات سوداء، وأعلاما وطنية يرتجف في قلبها الله محاصرا،
حينما الهاربات سقوف الحرب
هربنا نحو عراء أسود الضمير،
كان الضباط يرمون لنا حارّة الوطن ببساطيلهم،
والشعراء المعصومون يمدون ألسنتهم المدببة،
ويلحسون حليب القنابل.
هربنا كقطيع دبابات معطّوبة
واحتمانا حلف النوابت،
تخيط بنا تلال الحقد والوشاية.
لبثنا عاما بعد عام،
نقتات ديدان الأرض كلما حرثتها المحتزرات،
وحينما يشتد بنا العطش،
نستنشق أثر الماء في مجرى نهر المشرّح، حيث ولدنا،
أو نلم العلّيق المنصّب من قاع الكحـــلاء، الذي غدا،
ساقية سوداء، تبول فيها الدبابات وهي واقـفة فوق الجسور.
كان الفرات مشطورا بالقنابل،
ودجلة مأسورا، مثل سمكة، في شباك حنود الإعاشة،
كنا حلف النوابت،
نقيم العزاء على روح الأرض،
حين وضعت الحرب رأسها على كتف سيدها،
وأخذت بالتثاؤب.
ركضنا مثل حمراء عمي،
تتبعنا الراجمات.
عرنا حقول حسنّ مسمّدة بالخراء،
وحقول ألغام مسمّدة بالجثث،
تسللنا بين غابات البنادق والمشانق،
معتمرين خوذ الإخفاء، التي نسبها الموتى في الخنادق،
قبل فرارهم إلى الأرض الخلال.
-لكم هم ماكرون أولئك الموتى!
قلت ذلك لسكينة، ابـنة عمي، وهي ترقص إلى جواري، مثل قطة فيا ألف عين.
-لكم هم ماكرون! تصوري، إنهم يهربون من خدمة العلم! يقطعون أنفاسهم، يوقفون دقات قـلوبهم، ثم ينسلّون جلسة تحت الأرض، لابدين في حفر مظلمة، ملطخين أنفسـهم بـالكافور، كي يخدعوا الديدان ومفارز الحرس الفاشي.
لكم هم ماكرون!
حرّرتني سكينة بعبوها الألف المشـتعلة، فقـلت لها ساخرا من نفسي:
-لا تلتفتي إلى الوراء يا سـكينة، فلن نعود إلى هذه البلاد قبل أن تترع بسطاها الأبدي!
حرثنا معا من ثقب في جدار الحرب،
ترّكنا وراءنا سماء معصوبة العينين،
وأرضا مدججة بالمآذن والصواريخ،
أغمضنا عيوننا،
قفزنا فوق خط الحدود المنقّط، المرسوم على الخارطة المدرسيّة،
فاحتضنتنا مخالب المارينز!
***
نحن أطفال الحرب،
نصطاد الموت بشواهد القبور،
ونرسم الشهادة على أضرحـة مستباحـة على مر العصور.
عراق، يا حسين، يا عراق، يا وحيد!
رمحُ أيّ حزب يحمل رأسك الشهيد؟